

السخرية في الأدب العربي

تأليف

دكتور نعمان محمد ربيع طه

أستاذ الأدب العربي
كلية البنات - جامعة الأزهر

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٢٩٩ هـ ١٩٧٩ م

السخرية في الأدب العربي

بحث طريف في موضوع طريف لم يسبق تناوله : تعرض فيه المؤلف للكلام
عن الضحك والفسكاهة وهما روح السخرية ومجالها الحيوى ، وتسكلم عن
صورها المختلفة وأساليبها في مصادر الأدب والبلاغة عند العرب وغيرهم ،
وتناول بالتفصيل أشهر الساخرين في القرون الخمسة الأولى وهم : الحطائنة
وجرير وابن المقفع والجاحظ وأبو العيصاء والحدوني وأبو العلاء المعري :
فربط سخريتهم بحياتهم في تحليل أدبي نفى رائع ، كما ذيل الكتاب الذى
يقع فى ٢٨٣ صفحة بمقطوعات تهكمية للشاعر الحدوني .

الخيرية في الأدب العربي

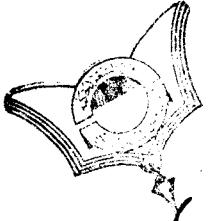
للكبير زهران محمد أمين طه

١٠١٠ / ١٠

١٢ / ٦

١٠١٥

اسكن شد



١٣٧٦

مكتبة مصرى اسلام

السخرية فى الأدب العربى

حتى نهاية القرن الرابع الهجرى

تأليف

دكتور فحمان محمد ربيع طه

أستاذ الأدب العربى المساعد
كلية البنات - جامعة الأزهر

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م

دار التوفيقية
للطباعة بالأزهر

تقديم

بسم الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين وبعد :
فقد راودت نفسي فكرة معالجة هذا الموضوع منذ أمد ، منذ أن قرأت
الأدب العربي دارساً ومدرساً . وألمت بتلك النظريات التي دارت حول
مناهج البحث فيه : تلك التي تعددت بين مدرسية ، وإقليمية ، ونفسية ،
وغيرها (١) .

وقد ران على نفسي صراب دراسة شخصيات الأدب دراسة متندة
دقيقة فاحصة شاملة من جهة ، ودراسة موضوعات الأدب أثره وشعره من
جهة أخرى .

وقد أخرجت من قبل - لكي أحقق ما أصبو إليه من معالجة - دراستي
عن « جرير » الشاعر الأموي المشهور .

وهأنذا اليوم أقدم دراستي عن غرض من أخطر أغراض الأدب العربي
شعره ونثره : ألا وهو « السخرية » ، التي ظلت موضع اهتمام الأوربيين
والأمريكيين وغيرهم منذ أمد طويل ، معالجة وممارسة وتالياً ، حتى بلغت
كتبهم في ذلك المثات ، وظلت أيضاً تعالج بحثاً في دوائر معارفهم تحت ألفاظ
متعددة منها Hnmour , Irony, Satire, Sarcasm, Laughter, Comedy, Caticature ,,, etc ... وغيرها ، بينما لا نكاد نعثر على مؤلف عربي يضارع
أو يقارب ما هو موجود لدى هؤلاء القوم .

ولعل قد استطعت - في بحثي هذا عن السخرية - أن أملأ الفجوة التي

(١) مناهج الدراسات الادبية للدكتور شكري فيصل .

نفسر بعينها : سواء في محاولة استكناه هذا الموضوع ، أو في دراسة طائفة من الساخرين الذين يفتشون في أدبنا العربي هنا وهناك .

والقد ضربت صفحا عن فصل طويل كنت قد عقدته للتعريف بالساخرين في الآداب الأجنبية متبعا لإيام تنبعا تاريخيا ، ومفصلا القول في مؤلفاتهم وفي قيمة عملهم الأدبي حتى نستطيع أن نحسن تصور هذا الموضوع في أدبنا العربي مقارنة بمثيله في الآداب الأجنبية تصورا أميناً دقيقاً ، ولكنني خشيت الإطالة ، فمررت على أرجاء هذا الفصل ونشره في طبعة أخرى إن شاء الله .

والله أسأل هونه وهدايته وتوفيقه ، وأن يجنني الزلل ، مرددا في خضوع وخضوع دائما دعاءه الكريم :

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين .

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم .

د . نعمان محمد أمين طه

العباسية في شعبان ١٣٩٨ هـ

يوليو ١٩٧٨ م

مقدمة

١ - حاجة الإنسان إلى الضحك :

لكل إنسان حى فى هذا الوجود حاجات مادية كثيرة ، يستطيع فى أكثر الأحياء الوصول إليها ، وقد تحول فى بعض الأحيان بينه وبينها الحوائل والموانع ، فلا يصل إلى بغيته : إما لأسباب مادية تجعل ما يبنى تحقيقه أمراً صعباً أو مستحيلاً ، وإما بسبب طبيعة المجتمع الذى يعيش فيه ؛ إذ تحتل رغباته رغبات غيره ، وتصطدم مطالبه بمطالبهم ، فيتوقف وصوله إلى أهدافه على مقدار علاقته بهم ، وعلاقته بهم به .

فإذا أخفق الإنسان فى الوصول إلى غاياته ، امقلت نفسه أحقاداً ، ما تلبث أن تؤثر فى جسمه وجهازه العصبى تأثيراً سيئاً ، ويزداد هذا التأثير سوءاً حتى ينتهى إلى أحد أمرين :

إما أن يصاب بعلل فى عضو من أعضائه ، أو ينتابه فتور عام يضنى به الجسم ويهزل .

وقد يحاول المرء أن يخفف عن نفسه ما يفرضه من آلام فينجح فى التخلص منها أو من بعضها نجاحاً ما ، بالنسبة عن نفسه أو بالاختلاط بأفراد جنسه ، شاكياً بثه وهمه ، أو مستمعاً إلى ما يشبه آلامه ، فتخفف تلك بمثلاتها تأسياً . . . وهكذا تحدث شبه حركة داخلية فى الجسم ، يفتن إليها الإنسان بطبيعته ، فيزاولها ، وكذلك قد يكون للحركة الخارجية التى تهتز بها أعضاء الجسم ، كانتقاله من مكان إلى آخر مغاير لما كان فيه ، قد يكون لهذه الحركة تأثير قوى فى فصله شيئاً فشيئاً وإلى حد ما ، مما يعانى من آلام^(١) .

(١) وأستطيع أن أسوق دليلاً على ذلك تلك الحركات العنيفة التى تقوم بها بعض المريضات حينما يسمعن دقات بعض الآلات الموسيقية الصاخبة أو بعض

إذن ، فالحركة - داخلية نفسية أو خارجية عضوية - هي من أقوى الدعام التي يحاول الإنسان بها مراجعة عوامل الهدم في الطبيعة ، بالتخلص مما يعكر مزاجه من شوائب مادية أو نفسية ، وقد عبر أرسطو عن الجانب النفسى من تخلص الإنسان من آلامه بقوله : « إنه يطهر عواطفه »^(١) .

والطفل - بمحض غريزته - لا يستطيع إلا أن يقضى طفولته وصباه متحركا في كل الأمكنة التي تستطيع أن تحتل حركته ، وتوسع لها ، وحماية نموه في الحقيقة ما هي إلا حركة مستمرة . وما الحياة إلا حركة دائبة تؤدي نشاطها داخل العالم الأكبر المتحرك بأجرامه المختلفة المتعددة ، سواء منها الذى وصل إلى علم الإنسان ، أو مالم يصل إليه بعد ، بأبحاثه العلمية .

إذن : فالجانب المادى الداخلى من جسم الإنسان ينفذ الحركة الخارجية لمعالجة الرواسب المتعددة والتخلص منها ، كذلك الجانب الذهنى من الإنسان يحاول بالحركة أن يطرد الآلام التي هي أفكار ذهنية وعواطف لا يحجبها ، بل يمتتها كل المقت ، ويحاول أن يتخلص منها .

ولست هناك وسيلة للتخلص من العواطف المؤلمة المختلفة إلا بحركة ذهنية داخلية تطرد هذه الآلام خارجا ، ولا تتولد هذه الحركة إلا بالضحك .

* * *

== أنواع الموسيقى الراقصة المحركة كالرومبا والسامبا ، فيتخلصن مما يكن قد أصبن به من أمراض عصبية : كبتلك الفتاة العانس التي أشار عليها أحد الأطباء النفسيين بسماع تلك الموسيقى - وكانت مصابة بمرض عصبى - فشفيت منه .

(١) كتاب الشعر لأرسطو ترجمة إحسان عباس ص ٦ .

٢ - محاولة تعريف الضحك :

والضحك استعداد فطرى فى الإنسان ، لا يكتسبه بالتجربة ، وهو انفعال إنسانى خاص يتميز به عن بقية الحيوانات ، ولذلك عرف الإنسان بأنه حيوان ضاحك . وله - ككل الغرائز - أركان ثلاثة : مؤثر أو باعث يستثيره ، وحالة انفعالية مصاحبة ، ووظيفة أو غاية يسعى إلى تحقيقها . ولذلك فالمقصود بالدراسة ذلك الضحك العميق الذى ينتهى بالإنسان إلى حالة الانشراح المعروفة لا مجرد السمات الخاصة التى تظهر على الفم وأسارير الوجه .

وما الضحك إلا حركة داخلية وخارجية ، لها سماتها المعروفة بإخراج صوت خاص من جهة ، وباهتزاز الجسم هزات تختلف وقوة الضحك من جهة ، وطريقة الأشخاص وعاداتهم من جهة أخرى .

وإذا تأملنا الضاحك فى أثناء ضحكه ، واستبطنا أنفسنا فى أثناء عملية الضحك تبيننا - لأول وهلة - انفراج الفم وإخراج هذا الصوت الذى يبدأ بحرف (ه . . .) والذى يخرج من الجوف فى صورة أمواج متتابعة كأنه تيار من الهواء يجتذب معه آلام الضاحك إلى الخارج . وكذلك تحريك أعضاء الجسم كالرأس إلى الوراء والرجلين واليدين . ويقال إن هذه العملية - عملية الزفير والشهيق فى أثناء الضحك - تؤثر فى الحجاب الحاجز ، فيؤثر - باهتزازه - فيما تحته من أعضاء داخلية ، فيسرع نشاطها ، وبذلك يمكن أن يكون هذا الوصف ، هو ما يحدث من تأثير للاهتزاز العضوى الداخلى فى الاهتزاز النفسى ، فينتج ما يسمى السرور أو الانشراح Euphoria أو الارتياح أو الابتهاج أو ما يمكن أن نسميه الانتعاش الجسمى النفسى .

وقد حاول العالم الإنجليزى ، سبنسر تفسير الضحك بما يشبه تفسيرنا

السابق ويعرف تفسيره بنظرية الطاقة^(١) . وبذلك كان سبنسر من يفسرون الضحك بتفسير فسيولوجي ، وهناك بعض الفلاسفة يحاولون تفسيره تفسيراً نفسياً محضاً ضارين صفحا عن الناحية الفسيولوجية التي يحسها الإنسان في أثناء الضحك . وهكذا انقسم الفلاسفة منذ فجر الإنسانية إلى فريقين : أحدهما يفسره ذلك التفسير الفسيولوجي ، والآخر ذلك التفسير السيكولوجي ، وأخيراً حاول بعضهم الربط بين التفسيرين فيما سمي بالسيكوفسيولوجي . ولعل الفلاسفة الوجوديين هم أقرب الناس إلى فهم هذه الظاهرة الإنسانية فحاولوا الابتعاد عن محاولة تفسيرها قائلين : « يحسن بنا أن نقلع عن محاولة تفسير الضحك أو البحث عن علل للفكاهة ، لكي تقتصر على النظر إلى الملابس أو الذرائع التي تكتنف تلك الظاهرة ولو أننا حاولنا أن نفهم الضحك باعتباره ظاهرة نفسية ذات دلالة إنسانية ، لتبين لنا أن هناك من أفانين الضحك بقدر ما هناك من مواقف بشرية^(٢) . من العبث أن نجتزئ في فهمنا للضحك بتطبيق نظرية واحدة نحاول عن طريقها أن نتأول شتى المواقف البشرية للضحك ، لأن الحياة البشرية أكبر من أن تحيط بها نظرية تقوم بتأويل ما تتطلبه عليه مواقفها الكثيرة من قيم ومدلولات^(٣) .

٢ - الضحك وأنواعه :

وليس للضحك أنواع مختلفة متباينة كما يفهم من عنوان هذه الفقرة ، ولكنها أوجه مختلفة لذلك الجسم الحي المسمى بالضحك^(٤) ، وذلك لأن الحدود التي تفصلها هي من اللطف بحيث قد تخفى على عين الإنسان

(١) هربرت سبنسر : كتابه فسيولوجية الضحك .

(٢) ذكرى إبراهيم : سيكولوجية الفكاهة والضحك ص ٨٩ و ٩٠ .

(٣) المرجع السابق

(٤) المرجع السابق

ولا يستطيع التمييز بينها تميزاً تاماً . غير أننا يمكن أن نعلم من حالات الضحك أو ما يضحك : الفكاهة والسخرية . وكثيراً ما يخطئ الناس بينهما ولا يكادون يفرقون بينهما حين يشملهم الجو المرح الضاحك وتنبعث من أفواههم النكات التي يمكن أن تكون لمجرد الإضحاك فحسب وحينئذ فهي الفكاهة ، وقد تكون بقصد اللذع والإيلام فهي سخرية ، وقد تجمع بين الغرضين .

لكن النكت الفكاهية ما يروى عن أحد المفرطين في شرب الخمر أنه قال له أحدهم : إن الخمر انتحار بطيء .

فأجاب : ولماذا تريدونني على أن أنتحر بسرعة ؟

ومن النكت الساخرة فادوة تروى عن أحد الأمراء ، فقد التقى يوماً بغريب يشبهه تمام الشبه ، فابتدعه بقوله :

— هل كانت أمك يا هذا تقيم في البلاط الملكي ؟

فأجاب الغريب ببديهة الجاهزة : كلا ياسيدي ، بل أبي (١) !

وإذا روى أحد الأشخاص النكتة السابقة لبعض الجالسين بقصد الضحك فهي فكاهة ، أما إذا حدث فعلاً في مجلس من المجالس فيمد الرجل ساخراً بالأمير ، ولذلك تسمى سخرية .

ومثلها ما يروى عن الممثل الساخر شارلي شابلن حين سئل عن المرأة الطيبة في العالم ، فقال : امرأتان طيبتان في العالم . . . إحداهما ماتت ، والثانية مفقودة .

وهكذا نرى أن كل ما يضحك ، فهو هزل ، ولكنه ينقسم قسمين :

(١) وقد روت كتب الأدب هذه النادرة بين الخطيئة والغرذوق .

أحدهما ليس له غرض أو هدف إلا الإضحاك فحسب وهو ما يطلق عليه الفكاهة ، والآخر له غرض هادف واضح - سواء أ كان معينا أو غير معين حين إلقاء النكتة - وهو السخرية .

ولذلك كان المزاح يشمل النوعين : التفكه والسخرية أى الإضحاك واللذع ، ويكون المزاح فى أول أمره لإشاعة جو مرح ضاحك بين الجالسين ولكنه كثيرا ما ينقلب فى النهاية إلى سخرية يتضرر منها بعض الأفراد وقد يعقبها الشجار ، ولهذا اشتملت كتب الأدب القديمة على النص على كراهية المزاح^(١) .

٤ - السخرية والهجاء :

عرفنا فى الفقرة السابقة أن السخرية تلتقى مع الفكاهة فى المنبع الذى تنبعان منه ، وقد تختلط إحداها بالآخرى كما مزاج رحيق فاكهتين مختلفتين ، وقد تفرقتان ، كذلك تمزج السخرية بالهجاء . من ناحية الوظيفة ولكنهما يفترقان من ناحية المادة أو الطبيعة التى يشتمل عليها كل منهما . فالهجاء طريقة مباشرة فى الهجوم على العدو ، ولكن السخرية طريقة غير مباشرة فى الهجوم^(٢) .

٥ - ألفاظ السخرية وتعريفها :

والموضوع الذى نحاول بحشه عدة ألفاظ فى اللغة العربية سنحاول

(١) أدب الدنيا والدين للماء ردى ، وحامى ابن الشجرى وغيرهما .

(٢) Edgar Johnson : A Treasury of Satire, P, 13

أما السخرية : فن مادة (س خ ر) وأصل السخيرة : التذليل ، جاء في (اللسان : سخر) سخرته : أى قهرته وذلكه . وسخره تسخيرا : كلفه عملا بلا أجره ، وكل مقهور مدبر لا يملك لنفسه ما يخلصه من القهر فذلك : «مسخر» وتسخرت دابة لفلان : أى ركبتها بغير أجر. وأصل المادة في المعجم تدور بعامة حول «اللين» ، من الناحية للصوتية فإذا تتبعناها عرفنا مقدار ذلك^(١) ، سواء أكان الحرفان (س ، خ) متواليين كما ذكرنا في الهامش ، أو منفصلين^(٢) ، ومن هذا يتبين لنا أن الحرفين (س ، خ) في كلمة (سخر) يوحيان باللين (التذليل) والخفاء ، وعدم الإبانة بطريقة مباشرة .

وتذكر هذه الألفاظ في المعاجم مترادفة بمعنى السخرية ، ولم تحاول

(١) سخا : تدوير حول لين الطبع ، من «السخاوى» ، الأرض اللينة التراب والسخراء الأرض السهلة الواسعة .

— سخب : قلادة تتخذ من قرنفل وسك ومحب ، أو هى خوط ينظم فيه خرز : فخيط هذه القلادة وما ينظم فيها كله لين توحى به العبد والخفاء .

— السخت : أول ما يخرج من بطن ذى الحنف ساعة تضمه أمه .

— السخاج : الأرض الحرة اللينة .

— السخذ : دم وماء فى السابياء ، وهو السلى الذى يكون فيه الولد .

— سخم : شجر إذا طال تدلت رموسه وانحنى .

— السخط : ضد الرضا .

— السخف : رقة العيش ، وبالضم رقة العقل . وثوب سخيْف : رقيق النسيج .

— السخلة : من أولاد الممز والضأن ساءة يولد .

— والساخن : الماء الساخن : الخفيف المرتفع . . . (انظر اللسان فى المواد التى سبقت) .

(١) فى اللسان : سبخ و السباخ (يكون تحت الأرض ، سبخ ، سبخ ، سبخ :

و السبخ : الأصل ، وهو مختلف تحت الأرض ، ، ساخ فى الأرض : اختفى .

للتفريق بين معانيها الدقيقة ، بل لم تهتم بإيراد شواهد كثيرة لكل كلمة ، وقد تركت أيضا المعنى العام الذى يشمل السخرية والاستهزاء ولاتهتم بدون تعريف بقربه من الأذهان ، يدل على ذلك ما جاء فى اللسان فى مادة (عظ) قال : عطفى به : سخر منه وأسمعه القبيح وشتمه ، وفى مادة (فلح) التفليح : المكر والاستهزاء ، وقد فلهوا به : أى مكروا به ، وفلح بهم تغلبا مكر وقال غير الحق .

* * *

ومما يمكن من أمر ، فقد اخترنا كلمة « سخرية » عنوانا لبحثنا ، لأنها أقرب الكلمات دلالة على الموضوع : إذ ورد معناها فى اللغة مشتملا على التذليل ، والساخر - فى الحقيقة - يحاول إخضاع خصمه له ، وفى هذا ما فيه من تشف عميق ، وإراحة لنفسه المتعبة المكدودة ، وكذلك لاشتيا الكلمة على السين والحاء : وهما الحرفان اللذان يعبران عن اللين والطلاوة والخبث والدهاء ، بعكس لفظة « تهكم » التى تدل على محاولة الهدم المفاجئ ، أو كلمة « الهزء » التى تدل على السخرية الصريحة السريعة العابرة فهى أشبه بالجملة العارضة منها بالروح الذى وطد العزم وكرس قواه لهذا الصنيع : وهو الاشتفاء من الناس - بسبب ما - بالسخرية منهم : ففى السخرية لين أشبه بلين الأفاعى ، والساخر أفعى ليس له صوت حين يسير أو حين يسخر ، ولكنه يقتل بسخريته . وهنا يلتقى المعجم العربى مع الكتاب الأوربيين فى محاولتهم تعريف السخرية حين يقول أحدهم : « طريقة من طرق التعبير ، يستعمل فيها الشخص ألفاظا تقلب المعنى إلى عكس ما يقصده المتكلم حقيقة . وهى صورة من صور الفكاهة تعرض السلوك المعوج أو الأخطاء ، التى إن فطن إليها وعرفها فنان موهوب تمام المعرفة ، وأحسن عرضها ، تكون حينئذ فى يده سلاحا مهمتا^(١) .

وقال آخر : د. وهى طريقة فى التهمك المرير ، والتندر أو الهجاء الذى يظهر فيه المعنى بعكس ما يظنه الإنسان ، وربما كانت أعظم صور البلاغة عنفا وإخافة وفتكا ، (١) .

وقال ثالث : د السرية سلاح شائع عند جميع الكتاب ، والمؤلفون السكبار يأخذون أنفسهم بممارستها ، وهى تظهر فى شعر الملاحم وفى التراجم ويدا علاوة على الكوميديا ، والخطباء يستمدون منها النبرات المؤثرة وكذلك تتخذ البلاغة منها سلاحا أشد فتكا لا يمكن إغفاله أو الاستهانة به . وتكون السخرية - فى بعض الأحيان - سمة دالة على قوة اليأس ، (٢) .

ويمكن تعريف السخرية بعامة بأنها : النقد الضحك أو التجريح الهازي . وغرض الساخر هو النقد أولا والاضحاك ثانيا ، وهو تصوير الإنسان تصويرا مضحكا : إما بوضعه فى صورة مضحكة بواسطة التشويه - الذى لا يصل إلى حد الإيلام - أو تكبير العيوب الجسمية أو العضوية أو الحركية أو العقلية أو ما فيه من عيوب حين سلوكه مع المجتمع ، وكل ذلك بطريقة خاصة غير مباشرة .

ولا نرى بالتعرف السابق - من المضحك أو السخرية فى تعريف لأن عمله السخرية وكيفية شئ حتى قبل كل شئ : د . د هذا الشئ خفيف الوزن ، فإننا نعامله بما تستحقه الحياة من احترام ، (٣) وقد أصاب علم المنطق الحديث والباحثون فيه بقولهم : لا يمكن تعريف شئ من الأشياء على وجه الأرض تعريفا جامعا مانعا ، لأن الشئ الحى لا يمكن الإحاطة به وتصويره ببعض ألفاظ قاصرة إذ هو حى متحرك ، والألفاظ - مهما تكن -

Americana V.15 P. 390

(١)

La Rousse V.20 P. 793

(٢)

Henry Bergeson, Le Rire P. 13

(٣)

جامدة ساكنة ، فكيف يمكن وضع الحى فى قوالب جامدة ساكنة ؟ فهو إما أن يوضع فيها فيموت وإما أن يحطمها ويخرج إلى متنفس الحياة لكي يبقى حيا خالدا في الانفس الحية الخالدة ، ومصداقا لهذا جاء في كتاب علم النفس : إننا لو حاولنا حصر الانفعالات التي تدخل في تكوين انفعال ما - على ما يظهر لنا - لبقيت بقية تقصر اللغة عن تسميتها ووصفها... فمهما يبلغ الانفعال من التحقد والتركيب ، فلا بد أن يدخل في تركيبه عنصر نفسى خاص ، ليس من المستطاع تسميته :^(١) .

والسخرية يحسها المتفنن وقارئ الفن معا ، يتفقان في الاحساس بها والاحتفاء بها دون أن يعنهما تعريفها ، لأنهما في الحقيقة ربما عجزا عن تعريف ، ولذلك حاول أدلر Adler تحليل السخرية - بصفتها انفعالا مركبا - فقال إنها مركبة من غرائز ثلاث : الغضب ، والانتقام ، والخضوع ، ثم قال بعد هذا صادقا : « ولست مقتنعا إلى اليوم بأى تعريف لها فيما قرأته إلى الآن ،^(٢) وقال عن اللعب والمجاعة - وهما عنصران من عناصر السخرية : « وهما من الانفعالات والغرائز التي يصعب تعريفها ،^(٣) وقال كاتب مادة « فكاهة » Humour في دائرة المعارف البريطانية : « وهى أى الفكاهة - إحدى صفات الساخر التي تسيطر عليه ، وهى اصطلاح لا يابى أن يعرف فحسب ، بل بمعنى آخر ، تتعالى عن التعريف ، ويمكن أن يعد من علامات النقص في روح الفكاهة أن تبحث عن تعريف للفكاهة ،^(٤) »

(١) حامد عبد القادر وآخرون : علم النفس ٣ - ١٧٦ .

(٢) أدلر : العقل الباطن ص ٨٣ .

(٣) المرجع السابق ص ١٠٨ .

(٤) Encyclopaedia Britannica; Humour (٤)

وعلى هذا، يكون توضيح السخرية بمحاولة وصف الفنان الساخر، واستبطان نفسه، ووصف وقصها على الإنسان، لا بمحاولة تعريفها بمهارات منطقية محدودة.

* * *

أسباب السخرية :

والساخر هو ذلك المتعالي بنفسه عن المجتمع الذي يضحك منه أو من أحد أفراده لأسباب ترجع إلى حقه على المجتمع، لما يشعر به من نقص خلقي أو حرمان ويتقد - بما منحه الله من موهبة السخرية - الأفراد أو المجتمع لإخفاء هذا النقص.

وقد ترجع إلى عداوة بينه وبين الشخص الذي ينقده لسبب من الأسباب التي تنجم عن الاحتكاك الدائم بين الناس، لغرض الانتقام.

وقد ترجع إلى تعالي شخص ناقص لا يحس ما فيه من نقص، فوضعه الأديب الساخر إلى أن يرده إلى صوابه أو إلى منطقته، كما يقول برجسون Bergeson ويحاول حينذاك أن يبحث عن عيوبه فيضحكها ويكبرها، ويجعل منها بفتنه أداة للضحك، وقد صدق أدلر Adler حينما قال : « البغض والانتقام هما العنصران التوأمين اللذان يولدان السخرية » (١).

وقد تتولد عن تعالي الشخص الساخر نفسه، ولشعوره بالغرور، فهو لا يفتأ ينقد ما في المجتمع من نقائص أو مفارقات ولذلك قال العقاد :

... فالعبث والغرور بابان من أبواب السخر، بل هما جهاج أبوابه كافة. (٢)

(١) أدلر : العقل الباطن ص ١٠٧

(٢) عباس محمود العقاد : مطالعات في السكتب والحياة ، طبعة التجارية سنة

وقد تكون تابعة من حساسية الناقد نفسه ، فهو يكون ذاعين بظيرة
نفاذة : يحس نقائص المجتمع ، ثم يكون ذا روح مرح ضاحك يتناول العالم
وما فيه تناولا بأساليب السخرية المختلفة ، يقصد من وراء ذلك الإصلاح ،
وفي طيات ذلك الإضحاك ، أو يقصد معالجة هذه الحساسية - إن صح هذا
القول - لأن الحساسية مرض ، قد يتناهى حتى يتعب صاحبه فيجعله لا يرضى
عن شيء في الحياة ، ويهديه الإحساس بوجوده الطبيعي وحس البقاء ، إلى
الظئنة لهذه الوسيلة في علاج نفسه ، أو التنفيس عما يشعر به ، ولذلك قال
جوته الشاعر الألماني قوله المشهورة : « السرور يولد للقوة » . والناس في
الحقيقة ينهجون إحدى سبيلين في موقفهم من الحياة : إما أن يستبد بهم
الغضب إلى النهاية ، وإما أن يحولوا هذا الغضب إلى سخرية من الناس . وقد
حاول Adler أن يرجع السخرية أو يحللها - كما نفع - إلى مركب - إلى
الغرائز البسيطة التي تتركب منها ، فقال : « هي خليط من انفعالين هما الغضب
والاشمئزاز : فنحن إذ نشور فينا غريزة النفور نشمئز ، فإذا عدا الشيء الذي
أثار اشمئزازنا على صفاء عيشنا ، من أية ناحية من النواحي ، بعثت فينا
غريزة المقاومة والانفعال المقترن بها ، وهو الغضب ، فدفعنا بنا إلى السخرية
عما بعث اشمئزازنا أو بمن أثاره في نفوسنا . ولا يخلو هذا من عنصر الزهو ،
لأننا ننزع إلى الرضا عن أنفسنا والاسترواح إلى شعورنا ، عقب مطاوعة
السخرية والانسياق معها ،^(١) .

وقد ترجع الرغبة في السخرية من الغير إلى استعداد الفنان المزاجي
الذي يكون ذهنه مهيئاً دائماً إلى التعريض بالغير ، والسخرية من الناس ، مع
انتفاء دافع شخصي معين ، يدفعه إلى ذلك^(٢) . ويمكن أن يصل حد هذا

(١) أدلر : العقل للباطن تعريب حافظ محمود ص ٧٦

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٠

الدافع أو الوازع إلى أن يكون الشخص نفسه ميالا إلى الشر بطبعه ، يميل إلى أغاظة الناس والتشفي منهم ، اضعه أصله ومحاولة الانتقام من الناس كرها وحقدا ، وهذا متأصل في الطفولة الإنسانية حينما يرى بعض الصبية يقذفون الحيوانات بالحجارة أو يعتدون عليها من غير مازحة أو شفقة ، لغير سبب ظاهر . و يرى بعض الناس قد تأصل فيهم الميل إلى المشاكسة وجرى في طبعم إلى حد مضايقة غيرهم ، والشعور باللذة حينما يرون غيرهم يتألمون^(١) ، وأوضح مثال على ذلك « الحطية » في الأدب العربي ودوبرناردشو ، في الأدب الإنجليزي ، فقد كان الأول مغموز النسب محروم الميراث ، لقي بين القبائل ، ونشأ الثاني في بيئة اجتماعية منحلة : فكان أبوه يدمن الخمر ولا يحفل بشيء ، وإذا أصيب بكارثة أو محنة ، رفه عن نفسه بالضحك والسخرية ، كما أن أمه تركت زوجها ، وعاشت مع معلم الموسيقى دون أن تحفل بمهام البيت ، ودون أن تلتق بالآ إلى شئون الزوجية .

* * *

٦ - مقومات السخرية :

ترتبط السخرية في أعماقها بالمجانة ، التي يمكن أن تكون صنو « اللامبالاة » ، لأن الساخر يجب أن يكون ماجنا - ولو في أعماقه - ويجب أن يكون مباليا بمن أمامه ، وإلا ما استطاع أن يجرؤ تلك الجرأة ، وأن

(١) وللتدليل على ذلك : نذكر حادثة الخادمة التي روع لها الناس ونشرتها الصحف ، وملخصها أن خادما عملت بمنازل مصر الجديدة وأخذت تمتدئ على بنات مخدوميات الصغيرات بأن تنفض بكارتهن ، ولما سأل في أثناء التحقيق معها قالت : إني أشعر بلذة في ذلك انتقاما من اعتدى علي وأنا صغيرة !

بضحك منه بالتقليد والمحاكاة ، أو بالحركات ، أو بالآلفاظ (في فن الأدب) أو بالرسم (من ناحية فن الكاريكاتور) . ولقد عدّ أدلو Adler المجانة - حين محاولته تحليل العواطف إلى الانفعالات البسيطة التي تتركب منها - عاطفة تتركب من : الزهو ، والمنافسة ، والغرور ، والاعتداء^(١) .

قال : « المجانة أساسها - على الأرجح - الانفعال المسمى بالزهو . مقترنا بالاعتداد بالذات ، ولا نزاع في أننا نحس أننا أسمى من الشخص الذي يشير فينا المجنون ، وإن كان عنصر الدهش أيضاً عاملاً من العوامل التي تبعث على الضحك والمزاح ، كما تنطوي المجانة على عنصر المنافسة ، وأدخل ما تكون النكتة الطيبة على مشاعرنا حين نتغلب على أصحابنا ، ونتفوق بها على أهل مودتنا^(٢) » .

وكما أن الساخر يجب أن يكون قوى الأعصاب ، يحمل في طياته روح - اللامبالاة ، أو المجنون ، كذلك لا بد له من أن يكون على قدر كبير من الذكاء وقوة المخيلة أو الخيال الهازل الذي يمكنه من اقتناص أو ابتداء الصرير النادرة التي يستطيع بها إغاطة خصمه من جهة ، وإضحاك نفسه والناس منه ، من جهة أخرى ، ولذلك ارتبط معنى الذكاء بمعنى الفكاهة في لفظه Wit الانجليزية .

والحق أن الإنسان الذي حرم الذكاء لا يستطيع أن يدفع عن نفسه غائلة الأعداء المعتدين ، فيأخذ في كبت شعوره بالضيق والكراهية والالام ، حتى يخلخل - أو يكاد - أعصابه ، كما حدث لبطل رواية Wuthering Heights المشهورة في الأدب الانجليزي :

أما إذا كان على جانب من الذكاء والفطنه في تخير الإجابة عما يسد

(١) العقل الباطن : لادلو : ترجمة عباس حافظ .

(٢) المرجع السابق .

إليه من سهام النقد أو التحقير والازدراء ، وكل ما يثير الغضب والالام
والحق بكلمات لاذعة فكهة ، فإنها تسرى عنه من جهة ، وتعمل فعلها في
عدوه أو خصمه من جهة أخرى ، وتشيع فيما حولها جو المرح الذي يؤمن
الشخص الضعيف من غائلة المعتدى ، فتخف وطأة غضبه - ولو إلى حين -
بسبب السخرية .

ولعل من أسباب ارتياح الساخر إلى نجاح سخريته ، وإلى أنها سلاح
أقوى من السب ، أو الضرب أو العراك ، أن هذه الوسائل البدائية السافهة
الذكر وسائل الإنسان الضعيف الحيلة الذي ينتقل غضبه وشيكا من
الإحساس إلى العضلات بطريقة بدائية بسيطة تشمر وتدل على انهيار
الشخص النفسى لما حدث له من خصمه ، أما الساخر الجلد - الذى يملك
نفسه عند الغضب كما قال الحديث الشريف - فيضحك منه لإشعاره بأنه أقل
من أن يفعل به ما يسبب إيلامه . ولذلك تمدح العرب قديما بالتجلد
كما قال الشاعر :

وتجلى للشامتين أريهم أنى لريب الدهر لا أتضعضع

ولذلك وصلت قوة أعصاب برنارد شو وكبرياؤه إلى أنه كان يتحدى
الموت وأنه كان يقول : لن أموت قبل أن أبلغ المائة من عمري ! ظنا منه
أنه بسلامة أعصابه - التى كان يريها أولا فاولا بالتفيس عن نفسه بسلاحه
الرهب وهو السخرية ، يستطيع أن يحتفظ بصحته وبنشأته حتى يبلغ من
عمره المائة عام ، وأى رجل أقوى من هذا الساخر الأيرلندى الذى رد على
تلك المرأة الإنجليزية التى جاورته عرضا فى القطار ، ولم تكن تعرفه ،
فسأله : أنت إنجليزي ؟ فرد عليها ساخرا : لا ، لانتى إنسان .

وجلس يوما فى مأدبة عشاء إلى جوار فتاة جميلة ، فدار بينهما حديث
قال خلاله الفتاة للفياسف الأيرلندى :

- لو تزوج رجل مثلك - يا مستر شو - بامرأة مثلي ، لتكان لنا
- بلا شك - أذكي الأبناء وأجملهم .

فما كان من برنارد شو سوى أن رد عليها بقوله :

ومن يدري يا آنستي ، فربما ورث أبنائنا حظي من الجمال ، وحظك
من الذكاء !!

٧ - السخرية في البلاغة العربية :

- إن الموضوع الذي نبجته الآن يمس أكثر ما يمس - من العلوم العربية -
علم البلاغة ، ولذلك سأحاول أن أدرس نضيبه من عناية البلاغيين القدامى
والمحدثين وإلى أي حد فهموا كلمة «سخرية» ، أو مترادفاتهما ، وإلى أي
حد استعملوها .

* * *

فإذا بدأنا البحث في تاريخ الكلمة نفسها - أو مرادفاتنا - وجدنا أن
النصوص الجاهلية التي ذكرت فيها قليلة جداً^(١) وأقدم ما يعتمد عليه في ذلك
هو القرآن الكريم : إذ ذكر جميع المترادفات تقريباً التي تعنيها في هذا
الموضوع : سخر ، هزى ، ضحك . ولم يكن نهيب هذه الكلمات من
كثرة الاستعمال في الأدب الأموي بأحسن منها في الأدب الجاهلي ، فنرى
الكهيت يقول في إحدى الهاشميات :

يعيبونني من خبيثهم وضلالهم على جبكم ، بل يسخرون وأعجب^(٢)

* * *

(١) انظر أبيات عمرو بن شعبة التي رواها أبو خاتم السجستاني في كتاب
المعمرين من العرب ص ٣٣ ونقلها د . ناصر الأسد في مصادر الشعر ص ٢٣١ .
تهزأت عرسى - استسكرت - شيبى ، ففيها جنف وازورار ==

وأقدم كتاب أدبي ذكرت فيه هذه الكلمة هو ترجمة ابن المقفع السكيلة ودمنة في أوائل العصر العباسي ، إذ ذكرت هذه العبارة على لسان الملك وكان يعنى بها معناها الأدبي : « إنك كائن نر بي يا إبلاذ » (١) .

أما من الناحية النقدية التي تعنينا ، فنعثر على الكلمة في طبقات ابن سلام إذ ورد فيه هذا النص : « فكان من الشعراء من يتأله في جاهليته ويتعفف في شمره ، ولا يستهتر بالفواحش ولا يتهكم في الهجاء ، ومنهم من كان يغنى على نفسه ، ويتعهر ، ومنهم امرؤ القيس والأعشى ، وكان الفرزدق أفرل أهل الإسلام في هذا الفن ، وكان جرير - مع إفراطه في الهجاء - يعف عن ذكر النساء ، كان لا يتشبه إلا بامرأة يملكها . فترى (٢) فيه كلمة « تهكم » التي تعتبر صفوا للكلمة سخرية أو مرادفة لها ، ولكن معناها في هذا النص مبهم إلى حد ما : إنها لم ترد في النص صراحة الجاهلية بالمعنى الصريح المفهوم من كلمة سخرية (٣) ، ولم تذكر مرة واحدة في القرآن الكريم على الرغم من أن أخواتها من الكلمات الأخرى المرادفة لها قد ذكرت في عدة مواضع منه ، وإذا حاولنا أن نعرف ما يروى به النص من معناها ، وجدنا أنه معنى أخلاقي أكثر مما هو فني أدبي ، يدل عليه ما قبله وما بعده من الفاظ ، وما تحمله تلك الألفاظ من معان : يتعفف ، لا يستهتر بالفواحش يتعهر ، يعف . إذن فالكلمة ذكرت بصدد الهجاء البعيد عن الفحش ، والروح المحيطة بها روح أخلاقية بحتة . . . أي أنه يمكن أن يفهم من كاهة

== لا تكثرى هزما ولا تعجبى فليس بالشيب على المرء عار

عمر ك ، هل تدري أن الفتى شبابه ثوب عليه معار

وانظر هاشميات الكميت : تحقيق نعمان محمد أمين طه ص ٤٠ ، ٤١ .

(١) كيلة ودمنة : (طبعة دار المعارف سنة ١٩٤٢) .

(٢) طبقات لفرل الشعراء : لابن سلام ص ١٥ .

(٣) بل وردت بمعنى عدم قول الحق أو التخاطب (أنظر مادة فلع به في اللسان)

«التهكم» الإغاطة بذكر الفعل الفاحش أو العورات أو السباب الخلق أو ذكر النساء ورميهم بالفاحشة صراحة كقول - سويد بن أبي كاهل في هجائه بني غبر :

من سره بغير مال فالغبريات على طحال^(١)

ويؤيد ذلك ما ورد عن امرئ القيس وخشه في معلقته واستهتاره . وكذلك ما عرف عن الفرزدق الذي قال عنه جرير : « تدليت تزي من ثمانين قائمة » .

ويمكن أن يدخل « القول بالفاحشة والهجاء بها » في موضوع «التهكم» ولكنه لا يعنى « طريقة التهكم وأسلوبها » تلك الطريقة التى تميز «التهكم» كأسلوب أكثر مما نمزه كموضوع ، لأن الهجاء والتهكم تقريبا - وإلى حد كبير - يشتركان فى الموضوع ، ولا يشتركان فى الطريقة التى يتناول كل منهما هذا الموضوع بها .

هذا من ناحية تخريج النص أو تحليله ، فإذا قرأنا تعقيب أبى عمرو ابن العلاء على قول زهير :

فتغلل لكم مالا تغل لأهلها قرى بالعراق من قفيز ودرهم

استطعنا أن نستبعد معنى «التهكم» الأسلوبى الذى يعنيه ابن سلام فى النص، قال أبو عمرو بن العلاء تعقباً على بيت زهير : هذا منه تهكم^(٢) وكيفما كان الأمر ، فلا نستطيع أن نفهم من النص أكثر مما توحى به العبارة برمتها ، وكذلك نستطيع أن نقول إن الكلمة كانت ولا شك مفهومة معروفة

(١) اللسان : مادة غبر .

(٢) انظر ديوان زهير : (طبعة دار الكتب المصرية) ص ٢١ حيث ينسب ذلك إلى الأصمعى . وفى شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ص ٢٧١ نسبته إلى يعقوب قال : هذا تهكم أى مزه .

عند الجاهليين والإسلاميين ، ولكنها من الناحية النقدية ، كانت قليلة الاستعمال بدليل عدم إيرادها كثيرا في الأحكام النقدية أو في التعاليق على الآيات في كتب الأدب أو النقد .

وبسبب ميل الجاهليين - ومعهم الإسلاميون الأوائل - إلى التعبير المأدب فإن الزبرقان لما غضب من الخطيئة حينما سخر منه قائلا :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

وعرض الأمر على حسان بن ثابت ، قال : « لم يهجه بل سلاح عليه » . وفي رواية : « بل ذرق عليه » . وهذا يدل على فهم الجاهليين لقوة أثر السخرية ولو أنهم لم يبرأوا عنها التعبير الذي تستحقه ، بدليل أنه شبهها بالسلاح ، (١) .

وأقدم من تعرض للموضوع تعرضا ما ، هو ابن المعتز (ت سنة ٢٩٦هـ) إذ ذكر في كتابه « البديع » أنواع البديع الخمسة التي عرفت منذ الجاهلية في رأيه . ثم ذكر « صنوفا ثانوية » أطلق عليها كلمة « محسنات » ، ومنها : الاعتراض والاتفات وتأكيد المدح بما يشبه الذم وتجاهل العارف

(١) وما رأت أعجب لتظاهر عمر رضي الله عنه بأنه لم يفهم القصة الكامنة في بيت الخطيئة مع أن السخرية كانت واضحة ولم تكن شيئا جديدا على العرب أو على الطبيعة البشرية ، ولكن عمر - ذا العقاية القضائية - لم يجد فيها دليلا ماديا يدين به الخطيئة ، ولذلك استدعى خبيرا في فهم الشعر . وهناك عدة تعبيرات لعمر في هذا الشأن : فيقال إن عمر قال : ما أسمع هجاء ولكنها معاتبه (ديران الخطيئة ص ٢٠٧) وفي طبقات الشعراء لابن سلام ٩٨ . فقال عمر لحسان : ما تقول ؟ أهجاء ؟ وعمر يعلم من ذلك ما يعلم حسان ، ولكنه أراد الحجة على الخطيئة . وفي موضع آخر : فقال له عمر : ما أعلم هجاءك ، أما ترضى أن تكون طاعما كاسيا ؟ .

والتعريض وحسن التضمين والهزل الذي يراد به الجلد . وقد هجر عليها ابن المعتز وحده ، وله هذه المصطلحات (١) . وإن تأكيد المدح بما يشبه الذم والتعريض والهزل الذي يراد به الجلد لتدخل ضمن صيغ السخرية ، ولكن ابن المعتز يعتبر هذه الصنوف مجرد محسنات ، ولا يحاول أن يتناولها من زاوية الهجاء الضاحك أو غير المباشر ، وإن كان يقترب مما نحن بصدد البحث عنه حين يذكر النوع الأخير من المحسنات ، وهو الهزل يراد به الجلد . ومن عجب أن النقاد في كثير من الأحيان يفتنون إلى شدة قوة السخرية وعنف أثرها إلى حد أنهم ينعتون المكاتب المولع بها بعبارة « روح السخرية تسيطر عليه أو على كتابته » ، ويقرنون لفظة السخرية بـ « روح » لعنف أثرها المعنوي والشعوري الذي يشيع في الساخر والسخرية معا ؛ ولكن ابن المعتز لا يحاول الكلام عنها أو إدخالها في « البديع » كما سماه متضمننا الاستعارة التي هي إحدى الأردية الزاهية التي ترتدى بها « السخرية » .

وقد تبعه بعد ذلك مؤلف كتاب نقد النثر (٢) فقسم الشعر العربي إلى مديح وهجاء وحكمة و« لحو » ، والظاهر أن القسم الأخير هو ترجمة للكلمة اليونانية Comedia التي هي أحد قسمي الشعر الإغريقي المسرحي ، والكوميديا عند اليوناني كانت تستخدم أسلوب السخرية ، ولكن ليس معنى هذا أن مؤلف نقد النثر كان يفهم الكوميديا اليونانية على حقيقتها إلى حد أنه يعني بكلمه « لحو » ، قدما من أقسام الشعر اشتغالها على السخرية ؛ بل أغلب الظن أنه يقصد بها الفكاهة أو ما كان يسمى وقتذاك « بالمزاح » .

(١) إرايم سلامة : كتاب الخطابة لأرسطو (الطبعة الثانية) ص ٦٢ (نشر الانجلو) .

(٢) وقد أثبت البحث العلمي الحديث أنه ليس لتقديمه بن جعفر .

وما دمنا قد وصلنا إلى هذه الكلمة وإلى هذا الكتاب الذى ألف فى القرن الرابع الهجرى ، فيحسن بنا أن نذكر المؤلفات الأدبية التى ذكرت شيئاً مما يتصل بموضوعنا من قريب أو من بعيد وهو « المزاح » ، وأهمها كتاب « نثر الدرر » ، للأبى المتوفى سنة ٤٢٢ هـ ؛ وقد تكلم عن المزاح عند كثير من الطوائف : الخلفاء والصحابة والأشراف والمتنبيين ، والمدنيين والطفيليين وغيرهم . والكتاب بفصوله أو أجزائه السبعة يعتبر موجزاً شاملاً لكثير مما جمعت وحوث صدور مئات من الرواة فى القرون الأربعة الأولى بعد الهجرة ، وقد ذكر كثيراً من النوادر أو القصص أو الأجوبة الساخرة تحت اسم « المزاح » ، وهذا هو الاسم الشائع الذى كان يطلق على كل ما يبعث الإنسان على الضحك ؛ وهو ما يقابل فى اصطلاحنا الحديث « النكتة أو الفكاهة » ، ولا نعثر فى هذا الكتاب على محاولة من الكاتب من ناحية التوبيخ أو التمليق للتمييز بين نوعى الفكاهة إذ أن أحدهما يرمى إلى الإضحاك فحسب ، والثانى يرمى إلى نوع أسمى وأجل وهو السخرية أو النقد الرمزى الضاحك . وقد جمعت نوادر أبى العيناء فى هذا القرن الثالث الهجرى - وبرغم أن روح السخرية تسيطر على أغلبها ، لم يطلق عليها إلا لفظة « نوادر » . كذلك كان يعاصره الحدوث الذى تندر كثيراً بابن حرب وسعيد ، ولم تنعت أشعاره إلا بأنها أشعار ظريفة أو « مضاحك الأشعار » .

غير أننا نجد فى أحد كتب الثعالبى المتوفى سنة ٤٤٠ هـ - وهو فقه اللغة - فصلاً بعنوان « فى المدح يراد به الذم » ، فيجربى مجرى التهكم والهزل ، ولعل الثعالبى أول من ذكر أمثلة توضيح غرضه ، ومنها آيتان من القرآن الكريم قال : العرب تفعل ذلك فتقول للرجل تستجمله : يا عاقل ، والبرأة تستقبحها يا قرا^(١) ، ولم يستطع أبو هلال العسكري على الرغم من عنايته البالغة بتعداد

(١) الثعالبى : فقه اللغة ص ٢٦٨ (طبعة المطبعة الادبية بمصر سنة ١٣١٧ هـ) .

صنوف البديع إلى حد فات جميع السابقين له ، لم يستطع أن يذكر - بما نحورض فيه - إلا الكناية والتعريض ، وبجاهل العارف ، ومزج الشك باليقين^(١) . ونذكر للشمالي أيضا كتابه « الكناية والتعريض » ، الذي ذكر طرفا من كنايات العرب وعدد منها أمثلة كثيرة تستغرق معظم صفحات الكتاب ، ثم أمثلة قليلة للتعريض ، ولم يحاول أن يعقب عليها أو أن يذكر نكتتها الأدبية^(٢) .

ثم نجد ابن رشيق القيرواني (ت سنة ٤٥٦ هـ) يذكر طرفا من أنواع البديع التي تناو لها من سبقه بالذكر ، ويذكر منها « تركيد المدح بما يشبه الذم » ، ويسميه باب الاستثناء ، ولم يحاول أن يذكر عكس هذا الباب ، وهو ما يدخل في موضوعنا^(٣) .

أما البلاغيين ، فلعل القاضي عبد الجبار (٣٢٠ - ٤١٥ هـ) في كتابه تنزيه القرآن من المضاعن (ص ١٠٨ ومتشابه القرآن ٢١٥) هو من فطن إلى الاستعارة التهكمية دون أن يشير إلى هذا الاصطلاح وذلك حينما تعرض لتأويل الآيتين السكريمتين من سورة النساء ١٦٨ ، ١٦٩ : « إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ، ولا يهديهم طريقا إلا طريق جهنم » . وكذلك في قوله تعالى : « فأتائبهم غما بغم » . (آل عمران ١٥٣) وسمى القاضي هذين الموضوعين مجازا .

ونجد بعد ذلك تلميذه الزمخشري (ت سنة ٥٢٨ هـ) صاحب الكشاف

(١) وهما الفصلان الثاني عشر والثالث والعشرون من الباب التاسع الذي شرح فيه أنواع البديع .

(٢) الشمالي : الكناية والتعريض (طبع مطبعة السعادة سنة ١٩٠٨ م) .

(٣) ابن رشيق القيرواني : العمدة جزء ٢/٩٩

يلت في ثنايا تفسيره شرحاً أدبياً للسخرية حينما يفتن إلى وجودها في آية من الآيات كقوله : ... هذا من معارضض الكلام ، ولطائف هذا النوع ، لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضية من علماء المعاني ، والقول فيه : أن قصد إبراهيم لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم ، إنما قصد تقريره لنفسه ، وإثباته لها على أسلوب تعريض ، يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة ، وتبكيهم^(١) .

وقد يكون الإمام الفخر الرازي (٥٤٤ - ٦٠٦) هو أول من حاول أن يطلق عليها اسمها الاصطلاحي حينما سماها الاستمارة العنادية .

وفي القرن السابع الهجري نلتقى بالقرويني (٦٦٦ - ٧٣٩) مؤلف الإيضاح والتلخيص ، وذكر فيه ، تأكيداً للذم بما يشبه المدح ، والتعريض - وقد سماه القرويني التوجيه - والهزل الذي يراد به الجد ، وتجاهل العارف . ونرى أنه لم يصف جديداً عن تقدمه ، وكذلك لم يحاول الإفاضة في تحليل هذا النوع من البديع - كما سماه - بما يدل على ذوق وتبصرة^(٢) .

أما معاصره النوري (ت ٧٣٣) فقد ذكر في كتابه ، نهاية الأرب ، بعض أنواع من السخرية منها : التعريض ، وتأكيده للذم بما يشبه المدح ، غير أنه زاد على من سبقه : الهزل ، والتندير ، والنهكم ، وبذلك يكون أول من ذكر هذه الأنواع بأسمائها ، ويسوق أمثلة عليها . وبما يعاب عليه عدم اهتمامه بالتعقيب ومحاولة سرد أمثلة كثيرة بصفة أول من ذكرها من البلاغيين^(٣) .

(١) الومخشي : تفسير الكشاف ٤٩/٢

(٢) الفخر الرازي : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ص ٩٨ وانظر البلاغة :

تطور وتاريخ ، للدكتور شوقي ضيف ص ٢٨٢ .

(٣) النوري : نهاية الأرب الجزء السابع : الصفحات ٦٠ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ،

وكذلك بمن عاصر القزويني والنويري ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١) فلم يذكر في كتابه والفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان إلا الهزل الذي يراد به الجد، (١).

أما ابن حجة الحموي - صاحب خزانة الأدب - فقد أطال بعض الشيء فيما ذكره من أنواع تتصل بالسخرية كالهزل الذي يراد به الجد، والتهكم وتجاهل العارف، والنورية، والتتكيت، والمدح في معرض الذم، والتمريض وأسهب في الكلام عن الأنواع السابقة بما يدل على فهم أدبي سليم حين سرده الأمثلة المختلفة ومحاولة تحليلها وبخاصة حين الكلام على التهكم والهزل الذي يراد به الجد وتجاهل العارف. (٢) وما يدل على ذلك قوله :

« وهذا النوع - أعني به الهزل الذي يراد به الجد - ما سبكه في قوالبه إلا من لظفت ذاته ، وكان له ملكة في هذا الفن ، وحسن تصرف » (٣).

هذه ملامح من السخرية عند البلاغيين منذ العصور الأولى ، لم نستطع سردها بالتفصيل ، لأن الأقدمين لم يهتموا بالكتابة عنها من الناحية البلاغية ، ولذلك اكتفيت بهذا القدر بعد قراءة كتبت البلاغة العربية القديمة .

أما في العصر الحديث ، فبلغ على أن الأستاذ عباس محمود العقاد كان أول من قرأ المؤلفات الغربية ، وحاول الكتابة لأول مرة عن ملكة السخر عند المعري ، وقد صدرها بهذا السؤال : لم يسخر الإنسان ؟ وكان بدؤه

(١) ابن قيم الجوزية : كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان (طبعة الخانجي سنة ١٣٢٧ هـ) ص ١٦٢ .

(٢) ابن حجة الحموي : خزانة الأدب (المطبعة الخيرية سنة ١٣٠٤ هـ) الصفحات ٥٦ ، ٩٨ ، ١٢٢ ، ٢٣٩ ، ٢٧٥ ، ٤١٩ ، ٤٢١ .

(٣) المرجع السابق ص ٦٩ .

الكتابة في الموضوع سنأ ١٩٠٢م في « خلاصة اليوم » ، ثم كتب عدة مقالات نشرها في كتابه مطالعات (١) . ثم كتب الشيخ عبد العزيز البشري مقالا عن « مرد النكتة » ، سنة ١٩٢٧ عقب عليه العقاد بمقال طريف عن رأيه في النكتة ثم جمع آراءه في الضحك والسخرية وما يتصل بهما في كتابه « جحا الضاحك المضحك » وصدره بمقدمة طريفة بلغت صفحاتها أكثر من نصف الكتاب (٢) وقد تعرض العقاد أيضا للكلام عن النكتة المصرية في أثناء كلامه عن طبيعة الأمة المصرية في كتابه « سعد زغلول » ، فقسم النكتة إلى « نكتة دعابة » و « نكتة تهكم » (٣) .

وكتب بعده المرحوم الدكتور عبد اللطيف حمزة مقدمة لكتاب « حكم قراقوش » (٤) ، تحدث فيها عن المزاح أو الهزل Comique والفكاهة أو التندر Humeur والذع أو التهكم Ironie وقد ذكر فيها أمثلة غير قليلة من الأدب الأجنبي والأدب العربي وحاول محاولة لا بأس بها التعريف بكل مصطلح مما سبق . غير أنه لم يترجم المصطلحات الأجنبية الفنية ترجمة دقيقة فإن التندر وهو الاستهزاء والسخرية غير ذكر النوادر والفكاهات الذي يعنيه الاصطلاح اللاتيني Humour وكذلك فإن المزاح لا يمكن أن يوضع ترجمة لكلمة Comique والدكتور حمزة تكلم لكتاب السالف أصدره سنة ١٩٥٤

(١) عباس العقاد : مطالعات في الكتاب والحياة (الطبعة الثانية نشرتها

المكتبة التجارية) ص ٨٩ - ١٠٢

(٢) صدر الكتاب عن دار الهلال في أغسطس سنة ١٩٥٦ العدد ٦٥ من

بجريدة كتاب الهلال .

(٣) طه حسين : فصول مختارة طبع دار الطباعة الحديثة ١٩٥٦ ص ٢٥٠-٢٥٤ .

(٤) عبد اللطيف حمزة : حكم قراقوش : الحلبي سنة ١٩٤٥ ص ٧٤

بعنوان : « ابن علقمى ، ^(١) أضاف إليه كثيرا من السخریات المختلفة فى موضوعات شتى فى الآداب الأجنبية .

ولقد أفرد الأستاذ أحمد عطية الله ^(٢) ، الضحك ، بكتاب خاص أطلق عليه « سيكولوجية الضحك » ، تكلم فيه بإسهاب عن طبيعة الضحك وكيف يضحك الإنسان وبواعث الضحك وأنواعه التى خص منها صوحه التهكم وأنواعها ، وضحكه الأزدراء ، وضحكه الهزء ، وضحكه السخرية . غير أنه لم يحاول التمييز بين هذه الأنواع المتعددة من الضحكات تمييزاً أدبياً .

وقد ألف الدكتور شرقى ضيف كتابه « الفكاهة » ^(٣) فى مصر ، صدره بمقدمة موجزة عن الفكاهة ، وتعرض فيه - من بعيد - إلى صلتها بالسخرية .

وقد ظهر فى نفس العام كتاب « سيكولوجية الفكاهة والضحك » للدكتور زكريا إبراهيم عن مكتبة مصر بالفجالة ، أفاد المؤلف من الدراسات النفسية التى صدرت فى القرن الماض إفادة ممتازة .

ثم صدر فى سنة ١٩٦٠ م كتاب « أسلوب التهكم فى القرآن الكريم » حاول فيه مؤلفاه سرد الآيات البينات فى هذا الموضوع بعد التقديم بمقدمة مترجمة عن دائرة المعارف البريطانية لمادة Humour .

وأخيراً أصدرت مجلة الهلال عدداً خاصاً عن « الفكاهة » ، سنة ١٩٦٦ م

(١) صدر عن دار أخبار اليوم سنة ١٩٥٤ م .

(٢) أحمد عطية الله : سيكولوجية الضحك : (عيسى الحلبي سنة ١٩٤٧)

ص ١٢٩ ، ١٦٠ .

(٣) صدر عن دار الهلال سنة ١٩٥٨

يحتوى على ثمانى عشرة مقالة عن الفكاهة فى الأدب وغيره كالرسم الكاريكاتورى . هذا ، وقد جمع الدكتور أحمد الحوفى فى كتاب له عن الفكاهة طائفة من النوارد معتمدا على جل كتب الأدب القديم من غير أن يعلق عليها .

٨ - أساليب السخرية :

أما وقد اتفينا من محاولة تعريف كلمة « سخرية » وموضوعها فى البلاغة العربية ، فلنحاول أن نعدد أساليبها المختلفة ، أو أنواعها .
وعلىنا قبل البدء فى ذلك أن ندرس مجالها الحيوى الذى تنبع فيه وهو الفكاهة أو « ما يضحك » .

والمضحكات تنقسم من ناحية منبعها إلى قسمين :

أحدهما : يكمن فى الطبيعة كالنبع الذى يتفجر من الأرض حيا متدفقا ويتخلق حينذاك فى الفرد ، وفى الظروف المحيطة به ، وفى كلماته وفى طبعه ، وفى حرفته .

وهذه العناصر أو يثبات الضحك السابقة : يضحك منها الناس ، ويفطنون إلى وجودها بسهولة ، من غير حاجة إلى وسيلة لمعرفة أو خلقها (أعنى ابتكارها) ويدركونها بما فيهم من صفة طبيعة تسمى « إدراك الفكاهة » .

وثانيهما : يصنعه الناس أو يحاولون أن يصنعوه ، وليس كثير منهم بمستطيع ذلك وإعماهم فيه خاصة يسرى فى كيانهم استعداد خاص : فى لغتهم ، أو فى شكلهم ؛ أو حركاتهم ؛ ويصطنعون لذلك أدوات مختلفة كالملابس والأصباغ والحركات الشاذة وغيرها مثلما يفعله المهرجون فى المسارح المختلفة أو من لديهم المقدرة على إرسال « النكتة » أو ارتجالها ويقال إن لديهم « إحساسا فكاهيا » ، وهو ما نسميه تجوزا « خفة الظل » ، أو « خفة الدم » .

والفريق الثانى من المضحكات إما أن يهدف إلى الإضحاك فحسب وحينئذ يطلق عليه : الفكاهة أو المزاح أو الهزل .

وإما انتقد الناس فى قالب مضحك أو للسخرية بهم ويطلق على هذا النوع التندر أو العبث أو اللذع أو التهمك أو الاستهزاء .

وللمضحك سمة واضحة يكشفها ذهن بين الأفكار : كالتناقض العقلى ، أو الاستحالة المحسوسة وما إلى ذلك ؛ وهى تعريفات إذا انطبقت فعلا على جميع أشكال المضحك ، فإنها لن تقول لنا أبدا : « لم يضحكنا المضحك »^(١) .

ولعل الدافع إلى السخرية : هو محاولة المجتمع أن يجعل الشخص يتلاءم مع الحياة الاجتماعية : فإن لم يتلاءم معها فقد يكون ذلك راجعا إلى تصلب فى الجسم ، أو تصلب فى الفكر ، أو تصلب فى الطبع .

إذ المجتمع يقتضى منا انتباهها دائم اليقظة ، يميز حدود الموقف الراهن ، وشيئا من المرونة فى الجسم والفكر ، تجعلنا قادرين على التلاؤم^(٢) مع هذا الموقف ، فالترتر (التصلب) والمرونة هما القوتان المتكاملتان اللتان تستخدمهما الحياة : فإذا أعوزا الجسد كانت أنواع الرزايا ، وكانت العادات والأمراض كالأحجب الذى تعود ظهره الانحناء السبيى ، وداوم هو على هذه العادة نتيجة عناد مادى أى نتيجة تصلب .

(١) برجسون : الضحك ص ١٦ .

(٢) انظر فى ذلك كلية معاوية : بينى وبين الناس شعرة إذا شدوها أرختها وإذا أرخوها شدتها .

وإذا أعوزا الفكر : كانت شتى درجات الفقر الروحي وشتى أشكال الجنون ، وأعظم مثل لذلك شخصية الذاهل دون كيشوت التي ابتدعها سيرفانتز . Cervantes تلك الشخصية التي علق فكرها بالآوهام وعاشت فيها .

وإذا أعوزا الطبع ، كان فقدان التلاؤم مع الحياة الاجتماعية وهو أصل الشقاء ، وسبيل الجريمة في بعض الأحيان : ونضرب مثلا أو أمثلة لذلك بشخصيات : البخيل والمقار ، والغيور ، والحجول .

فالمجتمع يقتضى منادائهما : مرونة في الجسم ، ومرونة في الفكر ، ومرونة في الطبع ، ومادام المجتمع لم يصب بأذى ، فإنه يجيب على التصلب البسيط بحركة بسيطة ألا وهي الضحك ، فالمجتمع يرد أن يزيل بعض هذا « التصلب » في الجسد والفكر والطبع حتى يوفر لأعضائه أكبر مرونة ممكنة وأعلى اجتماعية ممكنة ، فهذه الصلابة هي : المضحك ، والضحك : قصاصها .

* * *

إذن فالمضحكات التي يبتدعها الفنان أو المضحك أو الساخر تكون منتزعة من فرد متصلب منحرف - كما قلنا سابقا - أو من ظروف مختلفة محيطه به تنكرر أو تنقلب رأسا على عقب وتأتي بعكس المنتظر أو يتدخل بعضها في بعض كما إذا تبادل ضدان كشيخ وقسيس أو امرأة ورجل بعض ملابسهما وهذا ما يسمى بتداخل السلاسل ، أو ينتزع من الكلمات التي تضحك بذاتها لرنينها الصوتي الخاص بها أو بوضعها متجاوزة بصورة مضحكة وكذلك ينتزع المضحك من الطبع المنفصل عن البيئة المحيطة به أو البعيد عنها ، وأخيرا ينتزع من الحرفة التي يمتنها الإنسان في حياته وتسيطر عليه أفاظها ومقتضياتها في جميع أحوال حياته الاجتماعية ، حتى يبدو هذا الإنسان المضحك كأنه ذاهل

داخل إطار حرفته كل الذهول ، وسيطرت عليه كل السيطرة فنرى أن الذى ينطق دائماً ليس صديقنا فلانا بل محترف هذه المهنة الذى رانت عليه عقليا وصورتيا .

* * *

والصور الساخرة أو صور الفنان الساخر يتدعها بعد إضافة روحه ، أو أعمال خياله الهازية أو الضاحك فيها ، فيصبغها بصبغة فنية جديدة ، أو يجعلها تنبض بنبض يلتفت نظر من لم يكن ملتفتا إليها أو تزيد لفت نظره إليها : مثل الفنان الذى يرسم منظراً جميلاً ويضعه فى لوحة أو إطار ، ويجعله أمام الأعين على الدوام : إذ ربما كان هذا المنظر الطبيعي موجودا فى الطبيعة الحية أمام الناس ، ولكنهم يمرون عليه مر السكرام ، أما رسم الفنان إياه ، فقد لفت أنظارهم إليه . وبخاصة حينما بث فيه " نفسه " أو ما نسميه عبقريته أو شعوره أو إحساسه بهذا المنظر ، فعمل الفنان أو ابتداعه شيئاً جديداً هو الطبيعة الحية مضافاً إليها جهد النفس البشرية أو العبقرية المعبرة .

كذلك الساخر : فهو يضيف نفسه أو شخصيته أو فنه أو عبقريته إلى هذه الصورة المسخورة منها ، وبذلك يخلقها خلقاً جديداً ، وهو ما يسمى بالإبداع أو الخلق : فهذا رجل كسيح يمشى أمامنا . . . ربما عطفنا عليه لعاهته ، ولكننا نسمع عنه أنه مجرم يفرض إتاوات على الناس ، ويرتكب حوادث إجرامية ضد المجتمع فيتناولوه الساخر ، ويحيله من صورة صماء إلى صورة متحركة مضحكة ، تجعلنا نضحك منه ونهزأ به فننتشى به بعد أن كان يبعث فى أنفسنا الرثاء أو الخوف أو كليهما .

وهكذا يصنع الفنان من المواد الأولية .. إن صح هذا التعبير - بإطلاء على بعض النماذج البشرية وغيرها .. يصنع منها مواد مركبة منها تركيباً لا يقدر

عليه إلا الساخر ، وينتهي بها إلى الصور والحوادث والحركات والنفسيات المضحكة . . . وهو لا يضحكننا من الجسم كشيء مادي فحسب ، بل كظرف أو وعاء فيه روح معوجة أو شاذة أو غير مستقيمة ، لأن الجسم .. ميتا .. لا يمكن أن يضحك أو يهزأ به ، لأنه أصبح في دنيا العدم بالنسبة لنا كأحياء متحركين ، نحر كننا وتسيطر علينا روح ما داخل أجسامنا .

٩ - صور السخرية أو أساليبها :

حاول كثير من الكتّاب والنقاد الأوربيين الإحاطة بصور السخرية والفكاهة المختلفة ، وترتيبها زمنيا حسب نشأتها منذ القدم ، ثم تدرجها على مر العصور ، فمن هؤلاء آرثر سيد جويك Arthur Sedgwick وتابعه ^(١) G. G. Sedg. وحاول مناقشة تاريخ الكلمة وتطور معانيها ولم يستطع معرفة تاريخها قائلا : « فحتى لو لم يكن لصبرك أو لوقتي من حدود فإني غير مستطيع سرد القصة بأكملها ، لأنني لا أعرفها ، ثم قال في موضع آخر : « وكما قلت آنفا ، فربما كانت السخرية النحوية المبينة على قواعد اللغة .. هي أول صورة للسخرية نقابلها ولا أظن أنها أقدم صورها ، وهي تبدو .. في الحقيقة .. مرحلة ثالثة أو رابعة من مراحل تطور السخرية التي تعدها حسب رأيك ^(٢) .

وقد حاولت دراسة صورها دراسة تجريبيية ، أي أنشئ أو أحاول ابتداء بعضها من جهة ، وأن أنعمق الناس في سخرهم على اختلاف أسنانهم وطبقاتهم وحالاتهم النفسية والثقافية والاجتماعية وطباعهم وأمزجتهم من جهة أخرى ، حاولت ذلك ردحا من الزمن : قد يطول حتى يشمل عمري

1 - G.G. Sedgwick : OF Irony , Toronto 1948 P : 4

2 - Ibid P : 6

كله بما فيه من ذكريات مفعمة بالسخرية ، وقد يقصر حتى لا يزيد عن الست
السفريات التي استغرقها البحث ، فخرجت بهذه الأنواع التي أحاول الآن ترتيبها
ترتيباً زمنياً بقدر الإمكان .

فأول صور السخرية وأقدمها في تاريخ البشر وأكثرها انتشاراً بين العامة
هي السخرية « بالمحاكاة » ، في الكلام والمشى والحركات الجسمية وأنواع
السلوك المختلفة ، أى في السمات البارزة التي تميز شخصية ما من الشخصيات
كأسلوب ما من أساليب الكتابة التي يمتاز بها كاتب من المكاتب أو خطيب
من الخطباء أو شاعر من الشعراء في قصيدة ما من قصائده كما فعل حافظ إبراهيم
معارضاً شوقياً في قصيدته المشهورة « عن أى نغر تبتسم » . وهذا النوع من
تقليد القصائد وإحالة الجاد منها بمعانيه إلى هزل أو مضحك منتشر في الآداب
الأوربية أكثر من انتشاره في الأدب العربي .

والسبب في أن « التقليد » يكون مدعاة إلى السخرية هو أن الساخر المقلد
ينقل شخصية المقلد برمتها ويجعلها رداء له يلبسه ويتماجن به كيفما يشاء
فكأنما هو يمسخه وكأنما جعل شخصية الأثغ متبلورة أو مركزة في لثغته .
والفنان لا يكتفى بمجرد التقليد كعامة الناس أو الأطفال بل هو يولد منها
صوراً متفرعة كثيرة كلها مشتقة من اللثغة أو من صورة هذا الأثغ وروحه
العام .

وقد ذكرت دائرة المعارف الأمريكية (الأمريكانا) هذه الصورة كصورة
من أقدم صور السخرية عند الهنود والهنود الحشيين .

أما « المناداة بالألقاب » ، فهي من أقدم الصور السهلة الساذجة في السخرية
وتستعمل فيها أسماء الحيوانات كالألقاب كقولهم للسمين يادرفيل ، ثم استعمال هذا
اللقب .. فيما بعد .. أما يطلق على هذه الشخصية وتعرف به ، وكذلك استعمال الصفات
المعكوسة وهي عكس ما يتصف به الشخص حقيقة كالألقاب ثم أسماء .. تتكرر

كثيرا في عور منوعة ومناسبات مختلفة حتى يلصق هذا الاسم بهذه الشخصية
كإطلاق صفة الهزيلة النحيقة على المسكنزة « والسبع » (أفندي) ، على
النحيق ، ويمكن استعمال ألفاظ أجنبية لزيادة الهزء بإدخال عنصر الغرابة
كاستعمال (مدموازيل) للعجوز الطاعنة في السن وكذلك استعمال أسماء
الردائل وإضافتها إلى من يدعون التمسك بأهداب الفضيلة كإطلاق « الشيخ
متلوف » - هزءا وسخرية - على الفاسد ، والأمين على الص... وإنما
لا نحس جرس السخرية من أحرف فحسب بل من الجو المحيط بها ، وأعنى
به الجو الاجتماعي الذي يفهمه السامع أو القارئ : فالسخرية قد هزئوا - زمن
الردة - بأبي بكر فسموه « بأبي النصيل » .

ومن أقدم طرق السخرية وأكثر دأ شيوعا السخرية بالصوت ، وتلويحه
ورفعه وخفضه وإعطائه نبرات خاصة معروفة يفهمها السامع غالبا ويعرف
صفاتها التي لا يمكن أن ينقلها القلم إلى الطرس . وكذلك السخرية بانفراج
أساور الوجه وتحريك عضلاته ، أو هز الرأس أو الكتفين أو بالعجز
والعين ...

وقد يكفي للسخرية بالشخص أن تنظر إليه - صامتا - ثم تأخذ في إدامة
النظر إليه وأنت تبسم ابتدامة السخرية أو تضحك ضحكة السخرية . وأعتقد
أن هذا النوع أقدم أنواع السخرية ، ولكن لا يمكن إثبات ذلك نظرا لأنه
لا يسجل على الورق كتابة أو على الحجر نقشا .

أما النوع الرابع فهو : معالجة الشيء الحقير كأنه عظيم ، أو ما يسمى في
الأدب العربي « الذم بما يشبه المدح » ، ويدخل فيه أيضاً « تجاهل المعارف ، وكل
ذلك وغيره يتسق وبنية نظم في عبارة طويلة لا تستمد تأثيرها من ألفاظها : لفظة لفظة
على حدة ، بل من العبارة برمتها : ونضرب مثالا على ذلك بمخاطبة عالم يستهزئ

بجاهل قائلاً: قل لي يامسيدي الأستاذ، أو أخبرني أيها العالم الجليل . أو مخاطبة
القبيح قائلاً: القمر يغار منك .

وبعضهم يسمى هذا النوع ، أو يؤثر أن يطلق عليه « التهكم » ، ويلاحظ
أنه لا يمكن إعطاء أمثلة حقيقية لمثل هذا النوع بجملة مبتورة نظراً لأن
الكلمة أو الجملة تفقد حيويتها إذا انتزعت من الكل الحى النابض بالحياة
كالعضو الذى يموت إذا اقتطع من الجسم كله .

أما النوع الخامس فهو : « معالجة الشيء العظيم كأنه حقير : ويمكن أن
يكون طريقة من طرق الاستهزاء ، كما شبه يتلر أماكن العبادة المسيحية
ساخراً بحرف يذهب إليه الناس ليدفعوا شيئاً ويأخذوا شيئاً .

ومن أنواع السخرية : تجاهل العارف أو التباله: وهى الطريقة المشهورة
التي أثرت عن سقراط .

يسأل الأب ابنه الراسب فى الامتحان - وهو يعلم برسوبه - أنجححت فى
الامتحان ؟

أما التعريض فهو : من أشهر أنواع السخرية فى الأدب العربى ، وجمع
الشعاب فى كتابه « الكناية والتعريض » طائفة من الأمثلة ، كذلك الذى دار
بين معاوية بن أبى سفيان والأحنف بن قيس ، إذ سأل الأول الثانى قائلاً :
ما الشيء الملفن فى البجاد ؟ فقال الأحنف : هو السخينة يا أمير المؤمنين !!

وقد أراد معاوية قول الشاعر :

إذا مامات ميت من تميم فسرك أن تعيش لحي بزاز

بخبز أو بتمر أو بسمن أو الشيء الملفن فى البجاد

وأراد الاختف بثقله : السخينة ، أن قریشا يأكلونها ويعيرون بها وهى أغلظ من الحساء ، وأرق من العصيدة ، وإنما تؤكل فى كلب الزمان ، وشدة الدهر ، وقد سموا قریشا « سخينة » ، تعبير ألهم بذلك (١) .

وكان عبد الأعلى بن عبد الرحمن الأموى عتب على بعض ولده الحارث فقال له معرضا بما قال حسان (٢) :

كما نيط خلف الراكب القدح الفرد
فقال :

إخال بالعم وبالجسد مفتخرا بالقدح الفرد
الهج بهمان وأشده فأنهسا أدعى إلى المجد (٣)

وصاير شريك بن عبد الله النخعى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى فبرزت بغلة شريك ، فقال له يزيد : غض من لجامها !
فقال : إنها مكتوبة أصلح الله الأمير ! فضحك ، وقال : ما ذهبت حيث أردت .

وإنما عرض بقوله : (غض من لجامها) بقول جرير المشهور :
فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا
وعرض له شريك بقول ابن دارة :
لا تأمنن فزاريا خلوت به على قلو صك واكتبها بأسبار

(١) الآبى : نشر الدرر ٢ / ١٢ ومراجع أخرى كثيرة .

(٢) قال حسان يهجر أباسفیان :

وان امرأ كانت سمية أمه وسمرام مغموز إذا بلغ الجهد
وأنت زنم نيط فى آل هاشم كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

(٣) زهر الآداب ٢٦ - ٢٧

وبنو فزارة يرمون ياتيان الإبل^(١) .

ومن صور السخرية : التصوير النبالغ فيه (الكاريكاتورى) : وهو وضع الشخص فى صور مضحكة : كالمبالغة فى تصوير عضو من أعضاء الجسم ومحاولة تشويهه إلى حد ما ، بحيث يحول الشخص كأنه لا يدرك أو يعرف إلا بهذا العيب الذى جسده وكبره : ومن ذلك ضخامة الجسم أو نحافته ، وقصر القامة أو طولها المفرط ، وارتفاع أحد الكتفين بصورة ظاهرة أكثر من الآخر ، وتصوير الشذوذ فى ملامح الوجه يلعب الدور الهام فى هذا الصدد والأنف بصفة خاصة يعد مقياساً للشذوذ المثير للضحك ، لهذا نلاحظ أن المصور الكاريكاتورى يميل إلى تأكيد طول الأنف أو انعدامه لما يضفيه هذا الشذوذ من تأثير هزلى على الوجه^(٢) ، وتصوير الأنف يكون بطولها أو بكونها معقوفة أو فطساء . وكذلك يصور الفم تصويراً هزلياً لاتساعه ، أو لعدم انتظام أسنانه أو لعب في إحدى الشفتين كقطع فيها أو ما يشبه ذلك من عيوب ، والشذوذ الحسى يدخل فى هذا النطاق : كالاعمى والأصم والأبكم ، فهؤلاء جميعاً يثيرون عاصفة من الضحك إذا سلكوا مسلكاً يحاولون به إنكار ما فيهم من نقص : فالأبكم الذى يرسل خليطاً من الأصوات للتعبير عن غرضه يضحكننا ، وإذا ما أصر على استخدام هذه الطريقة الشاذة فى التعبير عن حالة نفسية يقصر دونها الكلام بله الأصوات كأن يصور لنا هذا الأبكم فى موقف غرامى ، فإن سلوكه يكون مصدراً ثراً للدعابة ، ولا يكفى المصور الكاريكاتورى رساماً أو كاتباً - بتصوير الشذوذ الخلقى ، بل يتخذ من السلوك الشاذ مادة خصبة لسخريته : كالجنانين والبله والمفكرين ذوى الآراء الجريئة التى لم يألفها المجتمع ، وكذلك شدة

(١) زهر الآداب للحصرى : ص ٢١ ، ٢٢

(٢) سيكولوجية الضحك : لأحمد عطية الله ص ٨٢ .

الإنسيان . وقد اعتدت الكوميديا زمنا طويلا على هذه الظاهرة ، فتماع
فى القرن السادس عشر ما كان يعرف بمسرحية كوميديا الأمزجة
Comedy of Humours وفيها يعرض المؤلف شخصيات ذات أمزجة خاصة
غير مألوفة فيها كما نجح فى القرن الثامن عشر ما عرف بكوميديا العادات .
Comedy of manners وفيها يعرض المؤلف شخصيات ذات عادات نائية
تستثير الضحك لغرابتها^(٢) .

وقد يكون التصوير مضحكا ساحرا بسبب الألفاظ ذاتها إذ هى التى
تبعث على الهزء والسخرية لرنينها وتنافر حروفها ، أو لأنها قوية التعبير عن
نفسية الذى يصور أو يمسخ أو يحاول التعبير عنه .

ومن صورها : السخرية عن طريق التورية أو (السخرية التراجيدية)
Irony وهى العبقرية التى تجعل شخصا من الأشخاص يستعمل ألفاظا تعنى
شيئا ما بالنسبة إليه ، وشيئا آخر بالنسبة للنظارة العارفين بالحقيقة^(٣)
كمن يقول لأعدائه مقدما إليهم طعاما مسموما : طعاما هنيئا يا سادة .

ومنها : السخرية عن طريق الصور الملففة بالمضحكة أو ما يسمى بالادعاء
أو الدعاوى الكاذبة ، ومنها اختراع النوادر والنسكت وإضافتها إلى أغنياء
الحرب ومحدثى النعمة والقرويين السذج الذين زاروا المدينة لأول مرة
مثلا ، فن أمثلة السخرية بالقرويين والتشنيع عليهم أن قرويا زار القاهرة ،
فسأله زميل له مخبرا : على ذلك فأنت تعرف الترام والمترو ؟ فأجاب القروى :
كيف لا ، وقدأ كنت منهما كثيرا أو كذلك التندير والتشنيع ، على الأطباء والمعلمين

(١) سيكرولوجية الضحك : لأحمد عطية الله ص ٨٤ :

(٢) المرجع السابق ٨٧ :

Har ms worth ' s Universal Encycl. V.5. P : 4315

(٣) دائرة المعارف البريطانية ١٢ / ٦٨٢ مادة Irony

وغيرهم من ذوى الحرف المختلفة ومحاولة تسديد سهام النقد إلى ناحية من نواحي النقص التي عرفت عندهم .

وكذلك يهاجم الساهر الجبان والبخيل والمتطفل والمنسول وكل العيوب الاجتماعية الأخرى بالمبالغة في وصفها واختراع الصور المبالغ فيها . وفي كتاب البخلاء للجاحظ أمثلة طريفة .

ومنها : مجابهة الشخص بعكس ما يتوقع ، ومن ذلك سرعة الجواب الساهر ، كذلك المادرة التي تروى أن صيادا رمى عصفورا فأخطأه ، فأراد ساهر أن يسخر به ، فقال له أحضرت ! فقال الصياد : أتهزأ بي ؟ فرد عليه الساهر بسرعة : والكمك أحضرت إلى العصفور !

ومن ذلك ما يحكى عن أحد الأمراء أنه أراد أن يسخر بالشاعر الفرنسي الكبير فيكتور هوغو ، فقال له : ألم يكن أبوك خياطا ؟ قال فيكتور : بلى .

فقال الأمير : ولماذا لم تكن خياطا مثله ؟

وبنفس الطريقة سأله الشاعر : وأنت أيها الأمير : ألم يكن أبوك مهنبا ؟ فقال الأمير : بلى .

فقال الشاعر : ولماذا لم تكن مهنبا مثله (١) ؟

وقال في ذلك الأستاذ أحمد عطية الله : يحاول المستهزئ - في بعض الأحيان - إمعانا منه في الزهو بنفسه - أن يدخل في روع الهزأة أنه حقا ذو شأن وخطر ، حتى إذا ما اعتقد هذا الأخير مأوهم به ، كشف المداعب

(١) وانظر مادار بين أبي العيناء وشخص أراد السخرية به ص ٢٦ من كتاب نوادر أبي العيناء المطبوع سنة ١٩٧٢ م .

عن حقيقته ، فاخفت مسحة الجد من وجهه ، وراح يضحك ساخرا من صاحبه الذى تذهله المفاجأة حتى يعجم عليه القول^(١) .

ومن تلك الصور الأدبية : التهمك .. وهو ذكر أشياء أو باطيل لا يعتقد بها الشخص وفي نفس الوقت يتظاهر بالاعتقاد بأنها صحيحة ، أو يذكرها في معرض التعجب من وجودها ومن ثم الاستهزاء بها .

وعلى كل ، فالتهكم من صور السخرية الشفافة التى ليس من السهل تعريفها ولكنها تعرف بالذهن المباح ، قال النويرى : والفرق بين التهمك وبين الهزل الذى يراد به الجد أن التهمك ظاهره جد ، وباطنه هزل ، والهزل الذى يراد به الجد على العكس منه . كقول ابن الرومى :

فياله من عمل طالح يرفعه الله إلى أسفل^(٢)

وقان آخر : أصل الأمر فى التهمك أن تقول قولا وأنت تريد ضده كقول النظام : ما بعد هذا الكلام كلام : فهو لم يقصد بهذه العبارة إلا ضدها ، ظاهر كلامه الاعتراف بعلم المخاطب ، ولكن باطنه تعريض بجهله^(٣) .

وأكثر ما يستعمل التهمك فى الخطاب ، فهو يغلب على الأحاديث حق يكاد يكون لهجة ينفرد بها بعض الناس . ومن الأمثلة على ذلك قول الشاعر الجاهلى :

يحزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا

(١) سيكولوجية الضحك ص ١٥٠

(٢) النويرى : نهاية الادب ١٧٩/٧

(٣) الجاحظ : شفيق جبرى ١٩٩

أو قول زهير :

فتغلل لكم مالا تغل لأهلها قرى بالعراق من قفيز ودرهم

أو قول طه حسين :

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لو خرج فلان لأهل قريته عن بعض ماله ، ليسيقيهم ماء نقيا ، لزال عنهم المرض ، ولاستفاد زرعه من صحة أجسامهم .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفقى : هو أعطف عليهم من ذلك ! ألم تعلم أن المرض محنة ، يثاب عليها المريض إن أحسن احتماها ! وأن الصحة فتنة ، إن أساء الصحيح استعمالها ، يعاقب عليها فهو (يؤثر) أهل قريته بالشراب ، و (يعصمهم) من الفتنة ! (١)

ومن تلك الصور أيضاً : السخرية بالمفارقة (فى الحوادث تسمى سخرية القدر) ويستخدمها السائر بمهارة فى القصص ، ومن أمثلة ذلك :

« دخل رجل عل طبيب فى « عيادته » فاعتقد الطبيب أن الزائر مريض يطلب علاجاً ، وأراد أن يوحى إليه بمقدار أجره فى غير مساومة ، فعمد إلى التليفون ، وأداره وراح يقول لمحدثه المزعوم :

نعم . أنا الدكتور (فلان) : لئننى مشغول جداً . . تسأل عن القيمة المطلوبة ؟ إنها كما أخبرتك : أربع جنيهات . . وأنت تعرف هذا . حسن . . إلى اللقاء إذن .

(١) انظر قول بشار بن برد فى خياط أعور يسمى عمرا خاط له قباء :

خاط لى عمرو قباء لى عينيه سواء

ثم وضع سماعة التليفون ، والتفت إلى الزائر متسائلا : ماذا أستطيع أن أصنع لك يا سيدي ؟

فأجابه الزائر : لا شيء . . . إننى موظف مصلحة التليفونات الذى طابته لإصلاح تليفونك ، !

والساخر لا يستخدم لغة مضحكة ، بل يترك الموقف للسامع أو القارئ .
لكي يضحك منه ما شاء له الضحك .

ومما شاع منها فى الآداب الأجنبية : الجمل أو التعبير اللاذع :
وهى جمل تكون كالحكم السائرة أو المثل السائر وتتناول شخصا من
الأشخاص أو مهنة من المهن بالنقد اللاذع المختصر ويكون فى صيغة ،
« التعريف » ، وقد اشتهر كثير من أدباء الغرب بهذا النوع أمثال برناردشو
السكراتير الأيرلندى ، وأوسكار وايلد الانجليزى . فالأول يعرف انتشاره
بقوله : « إنه الرجل الذى يعتقد أن الناس أشرار مثله فيحقد عليهم لذا
السبب ! » ويعرف أدامسون الطفل بأنه فتاة هضمية ينتهى طرفها بصوت
مزعج ، وطرفها الآخر بالفوضى ! ويعرف أحدهم الأستاذ الجامعى
بقوله : « هو الرجل الذى يعلم تلاميذه كيف يحلون مشكلات الحياة التى حاول
هو أن يتجنبها باشتغاله بالعلم ! »

ومن أمثلة التعريفات الساخرة قول أحدهم عن الأمريكيين :
الأمريكيون أحرار لأنهم « يأخذون ، حريات كثيرة ! »

وقد يستخدمون طريقه المقلبة ، بدلا من التعريف ، كقولهم : فى بعض
البلاد الشرقية لا يرى الزوج امرأته قبل الزواج ، وفى بعض البلاد الغربية
لا يراها بعده . ! !

تحمّر البنت القروية إذا خجلت ، أما العصرية فتخجل إذا حمرت ١١ كانت
البنت قديما لا تجسر على تناول يد فتاها ، ولكن البنت حديثا لا تجسر على
تركها ١

وأخيرا التلاعب اللفظي : والأساس فيه هو محاولة المتندر أن يكسب
الألفاظ معاني غير معانيها الواضحة ، فإذا ما اكتشف السامع أن ما يقصده
المتكلم هو هذا المعنى الغريب يسخر من فهمه الأول للمعنى الجملة ، فيضحك ،
ويكون للتلاعب اللفظي : باختصار الفكرة ، أو بالإضافة إليها بحيث يفرجها
عن معناها الأصلي أو بتبديل الكلمات المكونة لها ، أو بنحت بعض ألفاظها
أو بتقسيمها ، أو بالعيب بإعجامها^(١) كأن ندعو من تسمى فاطمة الزهراء بأن
نقول فاطمة الزعراء ١

* * *

وبعد ، فإن خيال الساهر في الحقيقة خيال مرن ؛ يتناول السخرة أو
المسخور منه بالمداعبة والعبث واللعب ، كما يسلك القط مع الفأر قبل افتراسه ،
وهو لذلك يستخدم وسائل وأساليب متعددة في سخره تتداخل كل منها
بحيث لا يمكن إحصاؤها أو عدّها ، وهي معرضة دائما لابتكار
العقول المبتكرة ، بحيث لا يمكن للبلاغي حصرها في اصطلاحات ضيقة
فمثلها كهروف الهجاء في أية لغة من اللغات : يمكن الإنسان اشتقاق آلاف
الألفاظ منها ، والتعبير بها عن آلاف الأحاسيس فتكون طبيعة في يده
يستخدمها كيف يشاء . ومن حاولوا إحصاء أنواعها المختلفة في الآداب الأوروبية
ايفان ايزار في كتابه Humour of Humour ؛ ولكنني أرى أن لاجدوى
من ذلك ، بل يكفي معرفة أشهرها ، والتعرض لما يجد منها أو ما يكون خاصا
بأديب دون آخر ، بالتحليل ومحاولة بيان أوجه الجمال أو العبقرية فيه .

(١) سيكولوجية الضحك : أحمد عمية الله ٢٩

صيف السخرية :

والساخر حين يسخر ، يعتمد ، كل الاعتماد على خياله العايش الذى ينتقى من صور السخرية ما يراه مسعفا له على إدراك غايته وهو التشكيل بخصمه أو الوصول إلى هدفه فى اقتلاع رذيلة من الرذائل بفنه الساخر وهو فى ذلك يرجع إلى طبعه وما جبل عليه : فمن الساخرين من يملكون إلى صيف بعينها يختصون بها ويدور معظم سخرهم على هذه الصيغة ، ومنهم من يستخدم أغلب هذه الصيف ، ومرجعه فى ذلك عقلاه الباطن الذى يهديه أو بعارة أخرى يسيطر عليه كل السيطرة ، فيملئ عليه ما يريد ، ويوحى إليه بالصيغة التى تقتضى أو تلائم قوة الموضوع الذى يعالجه ، وقد لاحظت عليهم ذلك ومنهم زميل لى (أ - م - ن) كان يسخر دائما باستخدام صيغة المغاطة .. يخطئ فى نطق كلمة ويدعى أنه يريد عكسها كاصحفى الذى يكتب تحت صورة أحد الزعماء - مدعى الخطأ - وهذه هى صورة الكلب الذى فر من قفصه ، ويكون هذا الزعيم مسافرا إلى بلد أخرى ، ثم يكتبون تحت صورة كلب ، وهذه صورة الزعيم العظيم (فلان) متأهبا إلى الرحيل عن وطنه ، وهذه طريقة من أنكى الطارق إذا تخصص فيها الشخص وأتقنها بملاءمتها لذوقه وحسه وطبيعته من جهة ، وكثرة تمرنه عليها من جهة أخرى .

وهناك شخص آخر تخصص فى قول كلام مبتور يوحى إلى السامع بذلك أنه سيقول عبارة (ما) من العبارات حتى إذا ما اطمأن إلى أن السامع تأكد أنه سيقول مثل هذه العبارة . قال هو عكسها ، وبذلك يسخر من السامع وكأنه كرة يلعب بها كيف يشاء .

وأروع درجة من درجات السخرية هى التى تعتمد على الإشارة المباشرة وتقوم على الإيجاز الشديد ، وما يذكر فى ذلك محاولة أحد الصحفيين المصريين السخرية بأمر يسكا فرسم فى مجلة آخر ساعة السفير الأمريكى مفكرا تفكيرا

عميقا ، وملا للصفحة كلها - على اناسها - بالصورة ثم كتب عنوانا صغيرا
« صفقة الأسلحة » . ولم يزد شيئا على ذلك . وأذكر أيضا نادرة أخرى شاهدتها
بمعنى : أراد بعض الطلبة في إحدى حفلاتهم العامة السخرية بإحدى الطالبات
وكان سلوكها محاطا بشيء من الريبة ، فوزعوا جوائز وهدايا على بعض حضروا
الحفل ، وكان نصيبها أن قدموا لها في صمت : كوزا من الذرة « وكفى » (١)

وأراد بعض الطلبة السخرية بمدرس لهم يدعى « أحمد قنة » ، فإذ كان منهم
إلا أن استدرجوه لكي يشرح لهم إحدى مسائل الحساب ، فلما وافق ووضع
يده في صندوق المحسك « الطالبات » لم يجد فيه إلا جسما أملس ناعما ، فلما
أخرجته ، وجده « خيارة » ، إشارة إلى اسمه !

وهكذا يكون الرمز والإيماء في السخرية أنسكى من الإطالة ، وذلك
لطبيعة السخرية التي تجمأ في الإطناب كل المجافاة إذ أنها نتاج العقول الذكية
وتخاطب في الأغلب الأعم العقول الباحية .

ومن صيغ السخرية التي يمكن تعدادها :

الاستهزام مثل : « أنت أيها الجبار العنيد ؟ لمن ضؤل شأنه .

والأمر مثل : « ذق إنيك أنت العزيز ، واللهكم بالبخل : ابتعد حتى

لا تصاب مثلهم بالسكرم !

والنهي مثل قول الخطيئة :

دع المسكرم لا ترحل لبعيتها وأقدم فإنك أنت الطاعم الكاسي

وقول الشاعر :

لا تطلب المجد إن سلبه صعب ، وعش مستريحا ناعم البال

(١) انظر ما دار بين محمد بن مكرم وأبي العيئة في « نواذر أبي العيئة » ص ٥٩ ، ٧٨

والقنى مثلها يقول القائل للقسيس السارق : « ليتك تمنحني بركنك ،
وقول القائل للعاجز : لعلك تستطيع أن تحمل هذه المعضلة ١١

والثورية : كما جاء في الآية الكريمة حينما كان اليهود يقولون (راعنا)
ليكى يوهوا المسلمين أنهم يقصدون اشتقاقها أو معناها العربى ، وهم فى الحقيقة
يهدفون إلى معناها العبرى ونزلت الآية الكريمة : « لا تقولوا راعنا ، وقولوا
انظرنا ، ^(١)

والمشاكاة : كمن أراد أن يداعب أو يهزأ ببخيل وعده شيئا ثم أخلفه ،
ثم وعده بوليمة عظيمة ، فيقول له :

قالوا اقترح شيئا نجد لك طبخا

قلت : اطلبخوا لى جبة وقيصا ١١ ^(٢)

وكثيرا ما استعمل أبو العيناء هذا الأسلوب مع بعض الحكام فى
عصره ^(٣) .

والمواربة : وهى فى الأصل المخادعة والدعاء : وفى الاصطلاح أن يجعل
المتكلم كلامه بحيث يمكنه أن يغير معناه بتجريف أو تصحيف .

والعكس ، ويسمى القلب والتصدير ^(٤) : وهو أن تقدم جزءا فى الكلام
ثم تؤخره بأن تؤخر ما قدمت ، وتقدم ما أخرت ، مثل قول أحدهم يسخر

(١) اللسان مادة رعن

(٢) زهر الربيع للحملاوى ١٥٤

(٣) نواذر أبى العيناء ص ١٠٢

(٤) زهر الربيع ص ١٦١

من صديق له غضب لمزاحه معه : ليس الضحك بداية سيئة للصدقة (١) ،
ولكنه نهاية حسنة . وقد يدخل هذا النوع فيما يسمى « باللعب بالألفاظ » ،
وتجاهل المعارف : وهو سوق المعلوم مساق المجهول للمزحة : كالمبالغة
في المدح أو الذم أو التوبيخ . كما قال زهير (٢) :

وما أدرى - وسوف إخال أدرى - أقوم آل حصن أم نساء ؟

وتأكيد الذم بما يشبه المدح : وتنبع السخرية منه من المفاجأة التي يفاجأ
بها المخاطب المقصود بالذم أو السامع مفاجأة لم تخطر له على بال حينما يبدأ
الساحر بأسلوب المدح ثم يختتمه بأسلوب الذم مثل ، أجل شيء في صديقي :
طول أذنيه ١١ وإنه يسكر منا دائما بانقطاعه عن زيارتنا ١

وحسن التعليل : أو السخرية بمحاولة التعليل أو التظاهر بالتعليل تأييدا
للمخاطب المسخر منه : مثلاً يقول أب لابنه كسر كوبا :
أعرف أنك كسرتَه لأنه مكث لدينا زمنا طويلا ١١

والتضمين : ويسمى أيضاً الإبداع : وهو أن يضمن الشاعر كلامه
شيئاً من شعر الغير مصراعاً أو بيتاً ، مع التنبيه على ذلك ، إلا إذا كان مشهوراً
فإن شهرته تغني عن التنبيه عليه (٣) . مثل (٤) قول بعض الشعراء مخاطباً
طبيباً كان ببغداد يدعى نعمان لا ينجح مريض على يديه :

أباً منذر أفنيت فاستبق بعضنا ١١

حنانيك ، بعض الشر أهون من بعض ١١

(١) جحا : الضاحك المضحك للعقاد ص ١٦

(٢) زهر الربيع ١٦٥

(٣) زهر الربيع للحملاني ص ١٧٧

(٤) جمع الجواهر للحصري ص ٥٩

وقد اشتهر بهذا النوع الحمدوني في طيلسان ابن حرب وشاة سعيد .
والسخرية بالفاظ المدح : وهو أن يكون الهجو أو السخرية بالعبارات
التي تستعمل في المدح مقرونة بما يصرفها إلى الهجاء كقول الحماسي :

يحزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا (١)
وقال بعضهم لشاعر . إنك أشعر من رسول الله !

والتصحيف : إما بوضع لفظة مكان أخرى بتبديل حرف يغير معنى
الكلمة أو بوضع كلمة في غير موضعها ، كما محاولة كاتب أن يسخر بطبيب
بقوله إنه كتب تقريراً عن شخص متوفى ، وكان يعالجه ، وأخطأ وكتب
اسمه أمام : « سبب الوفاة » .

وبعد ، فهذه بعض الصيغ التي تصاغ فيها السخرية ، وليس من همي
إحصاؤها إذ هي كالبحر العميق الزاخر بشتى الأحياء ، أو هي دنيا واسعة
لا يمكن حصر ما بين أطرافها ، كما يحاول البلاغيون حينما يحصرون أنواع البديع
المتخلفة أو غيره من أبواب البلاغة ، وحمي في ذلك للتعبير عن رأي أن أذكر
كلمة « برجسون » عن هذا الشيء المسمى بالسخرية : « أخشى أن يكون هذا
الجوهر اللطيف من تلك الجواهر التي مرعان ما تنحلل إذا عرضتها للضوء » (٢)

(١) زهر الربع للحملأوى ص ٢٨١
(٢) الضحك لبرجسون ص ٩١

السياب الأول

١ - قدم السخرية ورسوخ قدمها عند الأوربيين:

للسخرية أو الميل إلى إثارة الضحك بواسطة الصور المضحكة جذور عميقة في الطبيعة البشرية ، وهي من أقدم المواهب الفطرية التي مارسها الإنسان في مجتمعه البدائي غير المهذب ، ولولع الإنسان بالضحك والهزء والفكاهة ، وفطنته السريعة إلى كيفية إثارتها قد شملت البدائيين ، وقد ظهرت بوضوح في علاقات بعضهم ببعض من قديم الزمن وحتى قيل أن يصقل الإنسان أدب أو فن ، كان رئيس القبيلة البدائية يجلس في كوخ محاطا بالمحاربين من قبيلته ، وكانوا يسلمون أنفسهم ويتلمهون يتناول أعدائهم وخصومهم بالهزء بهم : فكانوا يضحكون من ضعفهم ويتبادلون النكات بما يحسون فيهم من نقص أو تشويه ، سواء كان هذا النقص عضويا ، أو في عقلهم وحياتهم ، ويطلقون عليهم ألقابا مضحكة ، وهم يقصدون من وراء ذلك أن يهزأوا بهم بالألفاظ أو بأن يلفقوا عنهم الحكايات التي هي في عداد الأشياء التي تثير انبساط أساريرهم وضحكهم .

ثم انتقل الإنسان القديم إلى مرحلة تالية في هذا الفن : بأن بحث عن وسيلة يكسب بها هزءه صورة أكثر بقاء وخلودا ، فأخذ يرسمها على الصحف المكشوفة ، أو على أي سطح إن رسمها سادجا .

ثم عرف هذا الفن عند كثير من الأمم القديمة : (١) المصريين والإغريق والرومان والهنود والوثنيين والمسيحيين . وقد وصلت آثار أدبية ساخرة عن أرسطوفان أعظم مؤلفي الكوميديا الإغريقية كالصفادع وغيرها .

(١) أنظر دائرة المعارف الفرنسية La rousse مادة Caricature حيث
تورد عدة أشكال منقولة عن الآثار المصرية القديمة تفيض سخرية .

وكان الكتاب الساخرون دائماً رواد الحركات الإصلاحية في التاريخ
فاشتهر سقراط منذ القدم بطريقة الساخرة وهى التباله أو ادعاء الجهل
ومحاولة إثارة الموضع الذى يتكلم فيه أو يناقشه بهذه الطريقة ، وأصبح
من ذلك الوقت علماً على هذه الطريقة فى الفلسفة Socra tic Irony
أما هؤلاء الذين تقدموا النهضة الأدبية - ومن ثم الاجتماعية والسياسية - فى
أوروبا ، وفتحوا عيوناً جديدة فى تاريخ شعوبهم بل تاريخ النهضة الإنسانية
فهم رابليه الفرنسى (١٤٩٠ - ١٥٥٠) وسرفانتيس الأسباني (١٥٤٧ - ١٦١٦)
أما الثورة الفرنسية فقد قدم لها ومهد المصلحون الساخرون وعلى رأسهم
فلتير ١٦٩٤ - ١٧٧٨ .

٢ - فى الأدب الغربى :

وللسخرية عندى فى نقد المجتمع القدح المعلى : فها هو بترونيس ينقد المجتمع
الرومانى ، ويحذو حذوه فى القرون الوسطى رابليه وسرفانتيس ، وقد حاول
الأخير استئصال فكرة « الفروسية » التى كانت مسيطرة على أوروبا فى ذلك
الحين ، وينهج نهجه بطل الذى سخر من انتمائتين ، ورينيه الفرنسى الذى كان
يسخر من الذين يعنون بقواعد اللغة والعروض عنايه تطفئ على الموضوع ،
أما موابيز فقد نقد أكثر صور المجتمع التى سادت عصره : كعالم النساء ،
والبخل والنفاس ، والأطباء وغيرهم . وأخيراً يطل علينا من عل شيخ الساخرين
الاجتماعيين « شو » الذى نصب نفسه لهدم أكثر التقاليد البالية ، فكانت
لسخرية غاية هى لإصلاح المجتمع .

وعرفنا بما سبق أيضاً بعض صور السخرية التى يشعبها الساخرون
كحكاية الأمور الجدية بطريقة هازلة لإحالتها إلى صور مضحكة عابثة ،
وكالشعر الحماسى الساخر Mock Heroic والتعريض . ورسم الصور للمضحكة
والمبالغة فيها أو فى عضو ما من أعضاء الجسم .

وكانت السخرية إما منظومة وإما في قالب مقالات أو قالب قصص أو مسرحيات أو قصصا خيالية مبتدعة كما رأينا عند لوشيان ، الذى تخيل وصف رحلة إلى القمر ، وتصور قتالا بين أهل الشمس وأهل القمر ، أو كما تخيل « بوالو ، معركة تذكشا بين رجلين حول شيء تافه : « منصة الخطابة » ، وكما حذا حذوه « بوب » ، فى « اغتصاب الخصلة » ، وأخيرا كما سلك صمويل بتلر فى أريون ، أو جوناثان سويفت فى « رحلات جلفر » أو لافونتين فى خرافاته . وإلى جانب القصص الخيالية ، تفيض القصص الواقعية التى يحاكي الحياة بأحداثها كما جاء فى « كنديد » لفولتير ومسرحيات موليير وبرناردشو .

وقد اتخذ بعض الكتاب من السخرية مادة خفيفة تشيع فى كتابته بين الحين والحين كالملاح يصلح القليل منه الطعام ولا يقصد إليها قصدا بل تظهر فى ثنايا جملة من غير تعمد ، والبعض الآخر قد ركه شيطانها وطغت عليه حتى كان فى أغلب كتابته أو مؤلفاته ساخرا ، وكأنما قد أصبحت مادة أسيلة فى دمه وفى عقله الباطن . أما الفريق الأول ففهم لى ساج .

وأما الفريق الثانى فيقدمهم رابليه الذى كان يقول إن الفكاهة والسخرية هما وحدهما السبيل إلى نجاة العالم وتخليصه من شوائبه ، ولذلك يطاق على هذا المذهب « المذهب البانتاجريل » ، نسبة إلى مؤلفه العظيم ، ومن أئمة فولتير وسويفت وشو الذى نظر إلى العالم بأجمعه تلك النظرة الساخرة ففلسفها بقوله : « والدنيا إحدى نكات الله » .

وهكذا يمكن أن نفرق بين نوعين من السخرية من ناحية الكم - إذا سمح لنا التعبير الأدبى بذلك - أما من ناحية الكيف : فقد اختلفت درجة السخرية عند الكتاب : فكانت عند بعضهم خفيفة رقيقة هادئة ، وعند بعضهم الأخر قاسية عنيفة لا ترحم ، فمن النوع الأول كان (١) باسكال فى

في خطاباته الريفية ، وأوستن Jane Austen ١٧٦٥ - ١٨١٧ ، ولي ساج Le Sage ١٦٦٨ - ١٧٤٧ ومن النوع الثاني جوستاف فلو بير .

وانستطيع أن نميز أيضا بين سخرية ضاحكة مستبشرة متفائلة يحيطها الكاتب بسياج من الفكاهة وهي الصفة الذاللة على أكثر الكتاب الأهر بكتين الساخرين مثل واشنطن أرفنج ومارك توين ، وهناك مثل آخر من الأدب الألماني هو جوزيف فكتور فن سيفل ١٨٢٦ - ١٨٨٦ مؤلف Ekhird ومن الأدب الفرنسي بروسيير مريمى ١٨٠٣ - ١٨٧٠ والسخرية الأخرى التي تقابل ذلك هي السخرية الجادة الرزينة المتشائمة كما ظهرت عند سويفت .

وانستطيع أن نميز بين السخرية السطحية التي يدركها القارئ العادى فى عجلة ودون حاجة إلى إعمال الفكر وبين السخرية العميقة التي تعدو فطنة القارئ العابر وأغاب الكتاب ينتظمهم النوع الأول وهم فريق يعملون على اجتذاب القراء إلى استساغة سخريتهم وإلى الوصول إلى غايتهم ومأربهم من أقرب سبيل .

أما النوع الثانى فيشتهر من بينهم صمويل بتلر ، ولذلك قال عنه النقاد ولذلك لم يظفر بإعجاب عامة القراء ولم يعجب به إلا الخاصة المثقفة ، ومع ذلك فلا نستطيع فى كثير من الأحيان أن نعثر على كاتب يتخصص فى نوع واحد من الأنواع السابقة أو تغلب على سخرية صفة واحدة ، بل لأن الكاتب ربما استخدم هذا النوع أو ذاك وفقا للوضوع الذى يكشف فيه ، أو وفق الحالة النفسية التى تسيطر عليه فى أثناء كتابته . وعلى كل فاقى . كثير من الكتاب ينغم آدبهم بأكثر هذه الأنواع ، وما هى إلا درجات مختلفة متفاوتة لا يميز بينها إلا خط دقيق ليس من السهل على اللغة أن تصوره .

وقد تأثر كثير من الكتاب الساخرين بظروف حياتهم أو تنكوبهم الخلقى أو الخلقى والنفسى فصنع حياتهم بصيغة السخرية ، وصنع سخرتهم بصيغة ما : فالكتاب الرومانى جوفينال كان موقورا ، عانى فى نشأته الأولى كثيرا من الاستخفاف والاحتقار ، حين اضطره فقره إلى الاعتماد على بعض السادة من الأغنياء بفقى إلى ظل حمايتهم ، وينال عطاءهم لقاء شعره ، وقد علم أن له من المواهب والذكاء ما يفضل به هؤلاء السادة الذين يتفضلون عليه بما يقيم أوده ، فترك ذلك فى نفسه مرارة لا ذعة .

وكذلك كان جونسون سقيما فى طفوانته ، طالما عانى من الأمراض الرمدية أما جسمه فقد اصطلحت عليه الأمراض الدصية والتشنجية ، وكان بوب سقيما وكانت حياته - كما ينعتها - مرضا طويلا : فقد كان عاجزا عن أن يرتدى ملابسه بغير مساعدة ، وكان شديد الحساسية بالبرودة إلى حد أنه كان مضطرا إلى أن يلبس نوعا مزدوجا من الفراء تحت قبضه السميكة وكان أحد جنبيه متقلصا ، وانحول ساقه كان يضطر إلى لبس ثلاثة أزواج من الجوارب لا يستطيع ارتدائها إلا بمساعدة ، وكان ينتابه مع ذلك صداع منهك يحطم ما بقى من قواه ، وقضى بعد وفاة أمه حياة مقفرة لأنه لم يتزوج . أما جى دوموياسان الكاتب الفرنسى الكبير فكان متشابها سرداوى المزاج ينظر إلى الحياة بمنظار أسود ، وقد مات مصابا بالشلل وهو لم يزل فى ميعة الشباب (١٨٥٠ - ١٨٩٣) . وكان هاينى متشائم النظرة ، وقد خاب فى حبه وكان - على حد تعبير أحد النقاد - فى شعره بمثابة من يعترك مع الحياة اعتراكا : وبما كان مصدره مرض أعصابه الذى انتهى به آخر الأمر إلى شلل الرمى الفراش ، وقد أطلق على فراشه إذ ذاك « قبرا من حشايا » وكذلك كان صنوه الألمانى جوزيف فكتور فون شيفيل فاق النفس ناقما متشابها . وكان فواتير - الذى بعض أئمة الساخرين فى العالم أجمع - ضعيف الجسم ، وكان له

من هزال جسمه ما أكسبه من اجا حادا عنيفا، وعله لاتنقطع أسبابها حتى نيف
على الثمانين وهو يشكر شكوى متصلة من ضعفه الذى يشرف به على الهلاك.

وكذلك كانت حياة سويقت فقـد نشأ يتيمًا وضاق ذرعا بالحياة
فى كشف عمه ومن كان يعمل تحت إمرة ، ولم ينل مأربه أو ما يكافئه نبوغه
وقضى الأعوام السبعة عشرة الأخيرة من عمره فى وحشة ويأس من الحياة
شديد .

ونستطيع أن نعدد أمثلة أخرى فنضرب المثل ببرناردشو ومارك توين،
أى أن الألم هو المنبع الأصيل - فى أغلب الأحيان - للسخرية.

وعرفنا مما سبق أيضاً أن بعض الساخرين كانوا يهاجمون -
بسخريتهم أشخاصا معينين خصوصا لهم أو أعداء كما سلك جون دريدن مع
الذين حققوا عليه بسبب تنصيه أمير الشعراء .

وهناك آخرون كانوا يهاولون مهاجمة عيوب المجتمع ويحاولون إصلاحها،
والمزيمهم فى ذلك مريير وبرناردشو. وأخيرا أذكر كنا فائدة للسخرية وأثرها
فى المجتمع الأوربي وإلى أى حد طغى تأثيرها كما فعل سيرفانتيز فى أسبانيا
بل فى أوربا كلها ، وشارل ديكنز فى إنجلترا ، بل ليس بخاف علينا ما فعله
كتاب المسرحية إبان احتلال الألمان فرنسا فى الحرب العالمية الثانية وكيف
بنوا بهاروح المقاومة وأشعلوا الوطنية الصامدة .

* * *

٣ - فى الأدب الجاهلى :

وإذا حاولنا دراسة السخرية ، فى الأدب العربى فيحسن بنا أن نلتزم
المنهج التاريخى فنبدأ بالبحث عنها فى الأدب الجاهلى : نبحث عن الألفاظ
التي تدل على السخرية ، وعن الشواهد التي تبين سخرية الجاهليين .

أما الألفاظ التي تدل على معنى السخرية فقد نثرت في الأدب الجاهلي، وأوردتها معاجم اللغة دون العناية بإيراد الشواهد التي تجلو دلالتها، وقد قرأت أغلب المصادر ووافقت منها موقف الشحيح ضاع في الترب خاتمه على أهتدى إلى مقدار كاف من الشراهد ، فلم أعثر إلا على هذه الأمثلة :

قال عبيد بن الأبرص: (١)

وساخرة منى ، ولو أن عينها رأت ما رأت عيني من الهول جنت
أبيت بسملاة وغول بقفرة إذا الليل وارى اللحن فيه أرنت

وقال عبد المسيح بن عسلة العبدى (٢) :

فأما أخو قرط - ولست بساخر - فقولاً له : يا سلم بكرة سالما
وقال الراعى النميرى (وهو الذى عاش فى بيئة شديدة القرب من البيئة
الجاهلية : (٣)

تغير قومي ولا أسخر وماحم من قدر يقدر
وبلفظ : اتهمكم ، قال عامر المحاربى : (٤)

يفنى حصين بالحجاز بناته وأعبي عليه الفخر إلا نهكما
وقال حسان يحررض بنى أبي البراء على عامر بن الطفيل (٥)

(١) المسعودى : مروج الذهب ٢ / ٧١

(٢) المفضلية رقم ٨٣ ص ٦٠٧

(٣) اللسان ، وأساس البلاغة مادة سخر : وكذلك شرح ديوان زهير ص ٩٧

(٤) المفضلية ٩١ ص ٦٢٩

(٥) الطبرى ٢ : ٢٢١ - وادع سنة ٤ هـ

بنى أم البنين لم يرعكم وأنتم من ذوائب أهل نجد
تمكم عامر بابي براء ليخفره ، وما خطا كعمد

وذكر الزمخشري هذا الشاهد في أساس البلاغة : (١)

تمكم عمرو على جارنا وألقى عايه له كل كلا

وبلفظ. الهزء قال عبد الله بن سلمة الغامدي (٢)

على ما أنها هزئت وقالت هنون، أجن؟ منشأ ذا قريب

وبلفظ الضحك، قال عبد يغوث (٣)

وتضحك مني كهلة عبشمية كأن لم ترى قبلي أسيرا يمانيا

* * *

أما الأمثلة التي تدل على سخرية الجاهليين ، فهي قليلة عثرت منها على
هذه الآيات :

فن ناحية الاستخفاف ، قال امرؤ القيس - لما فرقت بنو نهران عليه
فرقا من معزى يحلبها أنشأ يقول تنديدا واستخفا : (٤)

إذا ما لم تكن إبل فعزى كأن قرون جلتها العصي

إذا ما قام حالها أرت كأن القوم صبحهم نعي

(١) أساس البلاغة ٢ - ٥٥٠ هـ - كم

(٢) الفضليات ١٠٣

(٣) النقائص ص ١٥٢ - ١٥٣

(٤) ديوان امرؤ القيس طبعة السندوني ص ١٨

وقال قريظ بن أنيف المزني يتم بقرمه : (١)

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق الخشيتهم : سواهم من جميع الناس إنسانا
وقال الجميع : (٢)

فدى لسلي ثوباي إذ دنس الـ قوم وإذ يدسمون ما دسموا
قال ابن الأنباري : وتقديته أهم استهزاء بها وبهم .

تشخذ بالدرع والخمار فلا تخرج من جوف بدنها الرحم
وقال زهير :

فتغلل لكم مالا تغل لأهلها قرى بالعراق من قفيز ودرهم
قال يعقوب : هذا تمكم وهزم . وقال الأصمعي : وهذا تمكم منه أي
استهزاء (٣)

ولا يمكن الاستدلال من هذه الأمثلة القليلة على الألوان أو أساليب
السخرية التي انتشرت في الأدب الجاهلي ، وكذلك لا يمكن القطع بأن السخرية
كانت لديهم قليلة أو ضعيفة ، ولكنها ضاعت مع هذا الشعر وهذا النثر الذي
ضاع ولم يصلنا منه إلا القليل ؛ كما قال عبد الصمد بن الفضل الرقاشي :
ما تكلمت به العرب من جيد المنشور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون :
فلم يحفظ من المنشور عشرة ، ولا ضاع من الموزون عشرة . (٤)

(١) الحاسة ص ٤ ، ٥

(٢) المفضليات ص ٤١

(٣) المعلقات العشر للتبريزي «معاقة زهير»

(٤) ديوان زهير (طبعة دار الكتب) ص ٤٦

(٥) البيان والتبيين ٢ / ١٥٩٨

٤ - السخرية في عصر النبوة :

أما في عصر الرسول : وفي أثناء المعركة الهائلة التي نشبت بين الإسلام والوثنيين المشركين ، فقد استخدمت السخرية غالبا من جانب المشركين لأنهم المنهزمون عقليا وروحيا ، فاستخدموا هذا السلاح مع ما استخدموا من أسلحة أخرى - ضد الرسول ، ولا شك أنه لو عني أحد بتدوينها لوصلنا منها الكثير .

فيروى ابن هشام صاحب السيرة: أن الإراشي لما طالب من بعض القرشيين أن يعينوه على رد إله ، أشاروا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وهم يهزأون به ، لما يعلمون بينه وبين أبي جهل من العداوة ، وقالوا : اذهب إليه فإنه يؤدبك عليه ^(١) ، وكان الرسول (ص) إذا جلس في المسجد فجلس إليه المستضعفون من أصحابه : خباب وعمار وأبو فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية ، وصهيب وأشباههم من المسلمين ، هزئت بهم قريش ، وقال بعضهم لبعض : هؤلاء أصحابه كما ترون ، أهؤلاء من الله عليهم من بيننا بالهدى والحق ؟؟ لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقنا هؤلاء إليه وما خصهم الله به دوننا ^(٢) .
ومر الرسول (ص) بالوليد بن المغيرة وأمّية بن خلف ، وأبي جهل بن هشام فهمزوه واستهزؤا به فغاضه ذلك فأنزل الله تعالى عايه في ذلك من أمرهم : ولقد استهزى برسلك من قبلك ، فحق بالذين سخرُوا منهم ما كانوا به يستهزئون ^(٣) . ولما تمادى المستهزئون في الشر ، وأكثروا بالرسول

(١) السيرة - لابن هشام ٢ / ٢٥

(٢) المرجع السابق ٢ / ٣٣

(٣) السيرة لابن هشام ٢ / ٣٦ والآية العاشرة من سورة الأنعام ١٠٢

الاستهزاء ، أنزل الله « فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين ، إنا كفيناك المستهزين ، الذين يجعلون مع الله إلهًا آخر فسوف يعلمون » (١) .

وكان المنافقون يحضرون المسجد فيسمعون أحاديث المسلمين ويسخرون ويستهزئون بدينهم (٢) وتروى قصة في كتب التفسير عن عبد الله بن أبي وأصحابه ، تدل على هذا الاستهزاء . أولها : خرجوا ذات يوم ، فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله (ص) فقال عبد الله بن أبي : انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم : فأخذ بيد أبي بكر فقال : مرحبا بالصدق سيد بني تيم وشيخ الإسلام وثاني رسول الله في المغار ، الباذل نفسه وماله لرسول الله ، ثم أخذ بيد عمر ثم علي وأخذ يمدحهم تماجنا وسخرية بهم كافعل مع أبي بكر ، ولذلك نزلت الآية : « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم ، قالوا : إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون » (٣) .

وكان أمية بن خلف قد أجمع التعود ، وكان شيخا جميلا جسيما ، ثقيلا ، فأتاه عقبة بن أبي معيط ، وهو جالس في المسجد بين ظهرا أبي قومه ، بمجرة يحملها ، فيها نار وبجمر ، حتى وضعها بين يديه ثم قال له : يا أبا علي ، استجمر فإنما أنت من النساء ، قال : قبحك الله وقبح ما جئت به . قال : ثم تجهز فخرج مع الناس (٤) .

وبينما كان المسلمون متوجهين ليدر ، لقوا رجلا من الأعراب ، فلما قيل

(١) المرجع السابق ٢ / ٥٠ والآية ٩٥ من سورة الحجر .

(٢) المرجع السابق ٢ / ٢٦٥ .

(٣) تفسير الكشاف ٢٨ / ١ سورة البقرة .

(٤) السيرة النبوية ٢ / ٢٨١ .

له : سلم على رسول الله ، قال للرسول : إن كنت رسول الله فأخبرني عما
في بطن ناقتي هذه !

فقال له سلمة بن سلامة بن وقش ، : لا تسأل رسول الله وأقبل علي فانا
أخبرك عن ذلك : نزوت عليها ، ففني بطنها منك سخلة . فقال له الرسول
(ص) ، مه أفحشت علي الرجل ^(١) .

* * *

من الأمثلة القليلة التي ذكرنا آنفا ، نستشف أنه كانت هناك سخرية ملقى
عصر النبوة ، وامكنها لم تصل إلينا ، وضاع معظمها ، قال زكي مبارك في
أثناء مناقشته فكرة وجود نشر في الجاهلية : « بل إنى لأذهب أبعد من
ذلك فأقرر أن الحركة الأدبية والسياسية والاجتماعية في عهد النبوة لم تصور
إلى الآن بصورتها الحقيقية ، فهذا رجل غير أمة كاملة في عشرين عاما ،
واقيت دعوته آلاف المصاعب . أفيمكن حقا الاقتناع بأنه لم يقل أكثر
من عشر خطب ، وأن أنصاره لم يقرلوا من الخطب والرسائل إلا ما نقله
عنهم الطبري وغيره من المؤرخين ؟ وأين إذن آثار المعارضة الشديدة التي
قامت في وجهه واضطرته إلى الهجرة ؟ وأين السنة اليهود والعرب والأشراف
من قريش ؟ أفيحقل أن تمر دعوة كهذه من دون أن تهب في وجه صاحبها السنة
الخطباء وأقلام الكتاب وشياطين الشعراء ؟ وهلا يعقل كذلك أن يصبر
رجال الوثنية والنصارى واليهود على التهم المختلفة يلقيها عليهم النبي وأصحابه
من دون أن يقابلوا الشر ^(٢) بالشر والعدوان بالعدوان فيطيلوا القول في
النفع عن دياناتهم ، وللقبح في الديانة الجديدة التي تهاجمهم في عقير ديارهم ،

(١) السيرة لابن هشام ٢ - ٢٦٥ .

(٢) زكي مبارك : النثر الفني ١ - ٥٠ .

وخصوصا أن القرآن وصفهم بأنهم أدل فصاحة وجدل وخصومة وعناد^(١) :

ولاشك أن أنورخين والنيورين ، قد تعدوا اطمس هذا الجدل والمناخفة والدفاع من جانب المشركين ، يدل على ذلك قصة عمر مع عينة الغزاري حين سأله عن عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة إذ كان حكما بينهما في المنافرة : أيهما أفضل ، فأبى تفضيل أحدهما على الآخر أمام عمر قائلا : لو فضلت أحدا على الآخر الآن لقامت الحرب جذعة .^(٢)

وكذلك بما يدل على ضياع تاريخ المشركين والمعادين للإسلام ، أن بعض الشخصيات المناوئة ، قد وصلت إلينا صورتها مشوهة بسبب الكفر ، أو عدم اعتناق الدين الجديد ، كعبد الله بن أبي الذي كنت أتخيله مرثيا ذا شخصية ضعيفة جبانا بعيدا عن العقل والحكمة ، ولما قرأت قول الجاحظ عنه :

« وكان عبد الله بن أبي - قبل نفاقه - نسيج وحده لجودة رأيه وبعد همته ، ونبيل شيمته ، واثقياذ العشيرة له بالسيادة والسعادة وإذعانهم له بالرياسة ، وما استرجب ذلك إلا بعدما استجمع له إبه ، وتبين لهم عقله ، وافتقدوا منه جملة ، ورأوه لذلك أهلا »^(٣) واقد خطب النبي (ص) بالمدينة ، فشكاه إلى الأنصار ، فقالوا : يا رسول الله : لآتله فقد كنا عقدنا له الخرز قبل قدومك لنتوجه ،^(٤) لما قرأت ذلك تغيرت نظرتي أو تصوري له وما كنت قد كونته عن شخصيته الحقيقية العامة قبل نفاقه .

ولاشك أن هؤلاء الذين حاولوا تقليد أسلوب القرآن قد سلكوا هذا

(١) زكي مبارك : النثر الفني ١ / ٥٠

(٢) الأماي ١ / ٥٤

(٣) مجموع رسائل الجاحظ (طبعة الساسي ١٩١٠) ص ١٥

(٤) م - ٥ - السخرية

المسلك أو فعل بعضهم ذلك على الأقل - وهم عارفون بقوته وجلاله -
تماجنا وسخرية من أسلوبه الجديد، وصرفا للناس عنه بمحاولتهم إضحاكهم منه.

إذن لا بد أنه كانت هناك سخرية في الجماعة الإسلامية والإسلام، ولكنها ضاعت
مع ماضع من الآثار الأدبية شعرا ونثرا لأسباب أهمها شيوع الأمية،
وقلة التدوين ومخالفة ذلك النثر للحياة الجديدة التي جاء بها الإسلام، ودونها
القرآن ومع ذلك فالغالب أن تلك السخرية لم تكن تسيطر على تعبيرهم الفني
أو تغفل فيه كثيرا السببين هامين :

أولهما أن الساخر - في العادة - غير صريح التعبير، يقول شيئا
ويقصد عكسه، وذلك - غالبا - خوفا من السخرة كما في أيام الكبت
السياس أو الاجتماعي، كخوف الصبي من هم أكبر منه كالمعلمين، فإذا أدار
له المعلم ظهره سخر منه، ولذلك فهو يعبر عن غضبه بأسلوب من التعبير غير
مباشر أو بطريقة ملتوية، والعرب لا يعرفون إلا الصراحة في التعبير، وعدم
الخوف، لدرجة أن أحدهم قد قال بكل جرأة للنعمان حينما طلب فرسه :

أبيت اللعن إن سكاب علق نفيس لا يعار ولا يباع

وكذلك فقد رفض النعمان تزويج بنته لكسرى مالك فارس حينما أرسل
إليه في ذلك ورد عليه بدون مواربة قائلا : أما في عين السواد ما يغني عن
بنات العرب ؟ أما المرأة فقد ردت على عمر حين أراد تحديد المهور على المنبر
وأختمته بآية قرآنية جعلته يتراجع ويقول : أصابت امرأة وأخطأ عمر .
وقد أراد عمر بن الخطاب منع حسان من إنشاد الشعر، فرد هذا عليه - مع
ما لعمر من هيبة معروفة مشهورة : اسكت فوالله لقد كنت أنشد هذا الشعر
من هو خير منك - يقصد رسول الله ﷺ - فما كان يعترض .

من هذا يتبين ميل العرب -- تلك الأمة الصحراوية التي لا يقيدتها قيد اجتماعي أو سياسي في الجاهلية -- بتبين ميلهم إلى الضراحة ، ولذلك كانوا أسرع الناس إلى الهجاء بالسب والقذف ، أو بتسديد سهامهم مباشرة من غير خوف أو وجل أو تريت ، وما فعله جساس بكليب وانتقامه منه قائلا لحالته البسوس : سأقتل جملا كبيرا ، ما فعله وما أوقده من حرب ضروس ليس بخاف علينا. ونرى مصداقا لذلك أن أغلب الشعر الجاهلي -- الذي وصلنا -- في حالة الغيظ والحق -- لا يعبر عن نفس المغيظ إلا بمثل أبيات عنزة ، التي يمكن أن تكون النمط الأغلب للشعر الجاهلي :

ناديت عبسا ، فاستجابوا باقنا وبكل أبيض صارم لم ينحل
حتى استباحوا آل عوف عنوة بالمشرفي وبالوشيج الذبل

ولذلك أطلق أبو تمام على مختاراته ديوان الحماسة ، إذ أنها الصفة الغالبة على الشعر الجاهلي .

والسبب الثاني الذي أرجع إليه عدم سيطرة السخرية على الهجاء وتغلغلها فيه هو تأثر العرب السريع ، ولا بد للساخر من أن يكون متحكما في انفعاله ولو إلى حين ، ولأمر ما حاول النبي (ص) انتزاع هذا الخلق فقال في ذلك عدة أحاديث منها : « ليس الشديد بالصرعة ، وإنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب » ، وقد قال برجسون مشيرا إلى ذلك « اللامبالاة هي وسط المضحك الطبيعي ، وأله أعدائه الانفعال » .

إذن كانت هناك سخرية في العصر الجاهلي والإسلامي ، ولم تكن هذه السخرية عميقة ، بل كانت خفيفة بسيطة بساطة نفسية الجاهليين ، سهلة تبعا لحياتهم غير المعقدة ، خفيفة الوقع ، لاتعدو السخرية الفطرية التي تؤثر عن أناس متأخرين يكتبون باللمحة والتعريض دون الإلحاح في السخرية والتنويع والتفنن في أساليبها الموجهة .

ونستطيع أن نذكر في ذلك قول الخطيئة لأبي بكر ساخرأ منه في حرب الردة:
أبورثها بكراً إذا مات بعده وتلك لعمر الله قاصمة الظهر
أو استهزاء العرب بأبي بكر ونعتهم إياه « بأبي الفصيل » ، ولذلك رد
حسان عليهم قائلاً :

ما البكر إلا كالفصيل وقد ترى أن الفصيل عليه ليس بعار
وقال حسان هازناً بجذام :

لعمر أبي سميعة ما أبالي أنب التيس أم نطقت جذام
إذا ما شاتهم ولدت تنادوا أجدي تحت شاتك أم غلام ١٩
وأخيراً أذكر تهكم الخطيئة بعتيبة بن النحاس العجلي الذي كان ييخل وقال له
إنه أشعر الشعراء فقال : ما أنا بأشعر العرب . (وذلك لكي يفاجئه بعد ذلك) .
فقال عتيبة : فن أشعر العرب ؟
قال : الذي يقول :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ، ومن لا يتق الشتم يشتم
فقال له عتيبة : أما إن هذه الكلمة من مقدمات أفاعيك (١) .

وبعد ، فلعل في تلك العجالة السابقة ما يمكن أن نرد به على المستشرق
مرجوليوت والأستاذ محمد خلف أحمد إلى الصواب : إذ زعم الأول أن
الأدب العربي يخلو من الفكاهة والسخرية ، وأيده الثاني بعض التأييد (٢) . قال :
د . زكي مبارك : « وليس بمعقول أن يكون لتلك الأمم نثر في قبل الميلاد بأكثر
من خمسة قرون ، ثم لا يكون للعرب نثر في بعد الميلاد بخمسة قرون ، كأن العرب
انفردوا في التاريخ القديم بالتحلف في ميادين العقل والمنطق والخيال ، (٣) .
وما أسلوب السخرية إلا أحد أساليب النثر الفني الذي تكلم عنه الدكتور زكي مبارك .

(١) ديوان الخطيئة ٣٢٩ .

(٢) دراسات في الأدب الإسلامي : لمحمد خلف الله أحمد (لجنة التأليف

سنة ١٩٤٧) ١٣٨ - ١٤٨ .

نشرها دار المعارف

(٣) النثر العربي : زكي مبارك ١ / ٥٠ .

• السخرية في القرآن الكريم :

إذا أردنا أن نبدأ حقاً بدراسة النثر العربي بعامة ، وما نحن بصددده
بخاصة ، فأقدم أثر فني يمكن أن ندرسه فيه هو القرآن الكريم ، وقد استدل
المرحوم الدكتور زكي مبارك بالكتاب الكريم على وجود نثر فني قبل
الإسلام ، « فكان لهم - أي للعرب - بذلك وجرد أدبي متين قبل أن
يتصلوا بالفرس واليونان » (١) .

* * *

وقد ظهرت أصداء تلك المعركة التي قامت بين النبي ﷺ والمشركين في
آيات الكتاب الكريم ، ونستطيع أن نلتمس طرفاً مما نحن بصددده - أعني
الكلام عن السخرية - فيما جاء به رداً على ما كان يفعله هؤلاء المشركون ،
ولكن في الحدود التي رسمها القرآن الكريم منهاجاً له والأغراض المحضنة
التي نزل من أجلها ، وبالأسلوب الذي يتناسب وعظمة الخالق جل وعلا ،
فهو ليس كتاباً فنياً محضاً نزل لغرض فني بحت ، بل غايته دينية أخلاقية ،
فاذا استعان بالألوان الفنية المختلفة من الأسلوب ، فهو استخدام يملأه الوقار
الإلهي الذي ينأى به كل النأي عما يقع فيه البشر من خفة وجهل .

* * *

وليس القرآن الكريم أول كتاب ديني وردت فيه معاني السخرية وألفاظها
بل نجد التوراة من قبل تستعمل ألفاظ الضحك والاستهزاء بمعنى السخرية
كما في الجملتين : « الساكن في السموات يضحك » ، « الرب يستهزئ بهم » .
وجميع الشواهد الواردة تنحى على المستهزئين باللائمة ، لأنهم يستكبرون
ولا يصدقون : (٢) .

(١) المرجع السابق ١ / ٤٣ .

(٢) عباس محمود العقاد : مقدمة جحا الضاحك المضحك ، الطبعة الأولى ص ١٠٠ .

وقد وردت « السخرية » في القرآن الكريم باللفاظ : « الهزء » ، والاستخفاف والضحك والسخرية : الأولى في أكثر من خمسة عشر موضعاً والاستخفاف في الآية (٤٤) من سورة الزخرف : والضحك بمعنى السخرية في أربعة مواضع ، وبلغظة « السخرية » في أربعة عشر موضعاً ، وكلها تدور حول استهزاء الكفار بالنبي ﷺ ، أو بالأنبياء السابقين ، وإنذارهم بأوخم العواقب وأسوأ العقاب بسبب ذلك : (قل أبا لله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ،) . (١)

وكان النبي ﷺ يضيق بفعل الكفار ، فيضرب الله الأمثال بمن سبقه من الأنبياء ومسللك الكفار إزاءهم كما يفعلون معه :

« ولقد استهزى برسلي من قبلك ، فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ، » (٢) « ذلك جزاؤهم بما كفروا ، واتخذوا آياتي ورسلي هزوا ، » (٣) « ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ، » . (٤) « فلما جاءهم بآياتنا ، إذا هم يضحكون ، » . (٥) « وينكر سخريتهم بالصلاة : « وإذا ناديتهم إلى الصلاة ، اتخذوها هزوا ولعباً ، » . (٦)

ولاشك أنهم كانوا يحاولون تقليد الصلاة بحركات مختلفة مسخرية بالمؤمنين ، وضحكانهم :

(١) التوبة آية ٦٥ .

(٢) الأنعام آية ١٠ .

(٣) الكهف آية ١٠٦ .

(٤) هود آية ٣٨ .

(٥) الزخرف آية ٤٧ .

(٦) المائدة آية ٥٨ .

« فيقولون من يعيدنا ؟ قل : الذى فطركم أول مرة ، فسينخضون إياك رؤوسهم ، ويقولون متى هو ؟ قل عسى أن يكون قريباً .^(١) »
 « وإذا ما أنزلت سورة : فمنهم من يقول : أياكم زادته هذه إيماناً ،^(٢) ولكن الله تعالى يؤكد لرسوله - لفرط شعوره بالضيق والغيبط - أنه تعالى أقوى منهم ، ولا بد أنه منتقم أشد انتقام : « إنا كفيناك المستهزين ،^(٣) ثم يذكر سبحانه وتعالى علاج سخريتهم بأخرى مثلها :
 « فيسخرون منهم ، سخر الله منهم ،^(٤) ولهم عذاب أليم ،^(٥) »
 « الله يستهزئ بهم ، ويمدهم فى طغيانهم يعمهون ،^(٦) »
 « قال : إن تسخروا منا ، فإنا نسخر منكم كما تسخرون ،^(٧) »
 ويصور حال الساخرين فى يوم القيامة ، وتحسرهم على فعلهم بالؤمنين وسخريتهم : « يا حشر قى على ما فرطت فى جنب الله ، وإن كنت لمن الساخرين ،^(٨) » ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا ، واتخذوا آياتى ورسلى هزواً ،^(٩) »
 ويذكر انقلاب فعلهم عليهم ؛ إذ أن المؤمنين سوف يشتفون منهم بمعاملتهم بالمثل ، وذلك لإراحة للؤمنين المحنقين بما فعل بهم فى الدنيا :

-
- (١) الإسراء آية ٥١ . قال البيضاوى فى تفسيره (طبعة صبيح سنة ١٩٢٦) :
 ينغضون: يعركونها نهوكة تمجيباً واستهزاء (ص ٤٠٤) .
 (٢) التوبة آية ١٢٤ : قال الزمخشري فى الكشاف ١ / ٤١٥ : فمنهم من يقول
 إلخ الآية إنكار واستهزاء بالؤمنين واعتقادهم زيادة الإيمان بزيادة العلم الحاصل
 بالوحي والعمل به .
 (٣) الحجر آية ٩٥ .
 (٤) الآية ٧٩ من سورة البقرة .
 (٥) الآية ١٥ من سورة البقرة .
 (٦) الآية ٣٨ من سورة هود ، والقول على لسان نوح عليه السلام .
 (٧) الآية ٥٦ من سورة الزمر .
 (٨) الآية ١٠٦ من سورة الكهف .

« إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون، ^(١) ، فالיום الذين آمنوا كانوا من الكفار يضحكون. » ^(٢)

. . .

وإذا عرفنا مقدار وقع السخرية على الأنفس ، وشدة فتسكها بالإنسان ، أدركنا السر الذي يكمن وراء تهديد الكفار بمثل السلاح الذي أذوا به المؤمنين ، ليكون ردعاً لهم ، ولذلك فليس بمستعكر - في رأينا - نسبة فعل السخرية إلى الله سبحانه وتعالى (حقيقة لا حجازاً) كما ظن بعض المفسرين. ومحاوتهم تأويل آية البقرة : « الله يستهزئهم ويمدحهم في طغيانيهم يعمهون » ^(٣) بأن المعنى عقاب ما ، ثم يحاولون تأويل هذا العقاب ، في حين أن الله سبحانه وتعالى قد هدد فعلاً بالسخرية بهم في الآخرة ^(٤) ، كما فعلوا هم في الدنيا ، وهذا أنكى عقاب .

والذي دفعهم إلى هذا شيطان : أولها تنزيه الله سبحانه وتعالى عن السخرية التي هي في نظرهم مرادفة للعبث واللعب ، وثانيهما آية الحجرات التي نهي الله تعالى فيها عن السخرية بقوله : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم » ^(٥)

(١) الآية ٢٩ من سورة المطففين .

(٢) الآية ٢٤ من سورة المطففين .

(٣) الآية ١٥ من سورة البقرة . وجاء في تفسير البيضاوي (طبعة صبيح

١٩٢٦ م) ص ١٣ . . وأما في الآخرة فبأن يفتتح لهم - وهم في النار - باباً إلى الجنة فيسرعون نحوه ، فإذا صاروا إليه سد عليهم الباب ، وذلك قوله تعالى : فالיום الذين آمنوا من الكفار يضحكون

(٤) الآية رقم ١١ من سورة الحجرات .

(٥) تفسير الطبري (تحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر) ١ / ٣٠٣ .

أما من ناحية التنزيه فقد رد أبو جعفر الطبري بقوله : «أما الذين زعموا أن قول الله تعالى ذكره : «الله يستهزئ بهم» ، إنما هي على وجه الجواب ، وأنه لم يكن من الله استهزاء ولا مكر ولا خديعة ، فنافرون عن الله عز وجل ما قد أثبتته عز وجل لنفسه ، وأوجبها لها ، وسواء قال قائل : لم يكن من الله جل ذكره استهزاء ولا مكر ولا خديعة ولا سخرية بمن أخبر أنه يستهزئ ، ويسخر ويمكر به ، أو قال : لم يخسف الله بمن أخبر أنه خسف به من الأمم ، ولم يفرق من أخبر أنه أغرقه منهم ، ويقال لقائل ذلك : أن الله جل ثناؤه أخبرنا أنه مكر بقوم قضوا قبلنا لم نرم ، وأخبر عن آخرين أنه خسف بهم ، وعن آخرين أنه أغرقهم ، فصدقنا الله تعالى ذكره فيما أخبرنا به من ذلك ، ولم نفرق من شيء منه ، فيما برهانك على تفريقك ما فرقت بينه ، بزعمك : أنه قد أغرق وخسف بمن أخبر أنه أغرقه وخسف به ولم يمكر بمن أخبر أنه قد مكر به ؟ ثم انعكس القول عليه في ذلك ، فلن يقول أحدهما شيئاً إلا ألزم في الآخر مثله ، ...

«ويجب أن يفرق بين معنى اللعب والعبث ، والهزاء والسخرية ، والمكر والخديعة . ومن الوجه الذي جاز قبل هذا ، ولم يحز قبل هذا ، افترق معنيهما : فعلم أن لكل واحد منهما معنى غير معنى الآخر ، .

وهكذا يرد الطبري على المتكبرين على الله الاستهزاء بمن سخر بالدين والنبي ، بعد إيراد عدة آراء لغيره في تأويل الاستهزاء والسخرية ، ولو أنه يفسر الاستهزاء بمعناه الأدبي الفني ، قائلًا : «والصواب في ذلك من القول والتأويل عندنا : أن معنى الاستهزاء في كلام العرب : إظهار المستهزئ للمستهزأ به من القول والفعل ما يرضيه ظاهراً وهو بذلك من قبله وفعله به مودته مساة باطناً ، وكذلك معنى الخداع والسخرية والمكر ، . وهذا رأي

ابن عباس : ، وبنحو ما قلنا فيه ، روى الخبر عن ابن عباس (١) ، قال ابن سيدة ردا على من يحاول تأويل الاستهزاء : وهو عندى خطأ ، إنما تهزأ من الهزء الذى هو السخرى ، (٢) .

* * *

وأقول : كان يمكن للمفسرين أن يوفروا على أنفسهم مشقة محاولة التأويل لو عرفوا دوران مادة سخر ، ورأوا أن لها معنى لا يمكن أن تفسر بغيره وهو الاحتقار اللين غير الظاهر الذى فيه إبهام ، وصفة المواربة والاحتقار والإبهام التى تسكن فى المادة هى التى تعطى للكلمة تلك القوة التى لا توجد فى لفظة ، احتقار ، أو فى طريقة الاحتقار الساخرة أو فى غيرها من الكلمات القرية الإيذاء .

فلا شك أن قول المشركين : : إنما نحن مستهزئون ، فيه إيلام (٣) للنبي صلى الله عليه وسلم - والمسلمين فكانوا جديرين لردهم عن بغيرهم بأن يجازوا بجزاء من نوع فعلهم حتى يعرفوا وقعه فيرتدعوا ، كما قال تعالى : ولكم فى القصص حياة ، يا أولى الألباب ، فالقاتل إذا عرف أنه لا بد مقتول فسيقدم رجلا ويؤخر أخرى خوفا من القصص الذى هو من جنس فعله ، كذلك المستهزء الذى سيسخره الآخر منه : سيفكر كثيرا وسيخشى هذه السخرية لأنه عليم بشدة وقعها على غيره ومدى فعلها بغيره ، وإلا لما استخدمها

(١) تفسير الطبرى ١ / ٣٥٥

(٢) وكلام ابن سيدة الذى أورده اللسان / هزأ عن هزأ فى بيت رواء أبو عمرو بن العلاء .

(٣) انظر السيرة لابن هشام ٢ / ٣٦ وما ورد فى فقرة السخرية فى عصر النبوة ، التى تقدمت فى هذا البحث .

سلاحا قاسيا ، فهو قين بالألا يستعملها هو الآخر كما قال تعالى : د ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ، وكذلك : وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فاقه - سبحانه وتعالى - مجازى بجزاء من جنس الفعل والعمل ، وهذا أشد ردعا للفاعل وأنكى .

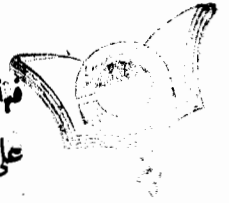
أما كيف يستهزئ الله بهم ، فهذا أشد وقعا عليهم ، لأنه فعل مبهم غامض ، والغامض محير للإنسان بل هو أشد قسوة عليه من الظاهر ، ألا ترى إلى التهديد دائما بأشياء واضحة وأشياء غامضة ، مثدا يقول الإنسان إذا فعلت هذا فسترى ما أفعله بك ، وكما قال جرير :

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم يوم الفراق فعلت ما لم أفعل

فكيف إذا كان التهديد بالاستهزاء من جانب الله سبحانه وتعالى ذى القوة الجبارة التى لا يمكن أن يتصورها بشر ؟ لا شك أن عقلم الباطن سوف تختلط به هذه الصور ، وسوف تلح عليه فى التهويل والمبالغة فى التصوير ، حتى تفرغه .

* * *

٢ - أما من ناحية خشية المفسرين من لمسة د فعل السخرية ، إلى الله سبحانه وتعالى وتنزيهه عنها ، بسبب آية الحجرات ، أو بسبب ما نوحى به الكلمة من جهالة ومجون ، فإن الرد عليهم فى هذا أن المقصود بالسخرية المحرمة هو السخرية بالنقص البشرى الطبيعى الذى لا يد فيه لإنسان أن يصلحه أو أن يردده : كالسخرية من عضو من أعضاء الجسم ، فهذا مما يؤلم ، ويحول مجرد المزاح إلى شجار لا تؤمن عقبا ، أما السخرية البانية : كالهزء بالأشياء أو الخائن أو لثام الطباع أو المتصنعين غير السالكين السلوك الطبيعى فى الحياة ، وأما السخرية من المتكبرين أو المتفطرسين أو الحكام المستبدين ،



تأليفه تكملة في التفسير
٩٣٧٤

فهذا - في ظني - مالا يشكره الدين . ونستطيع أن نذكر - مصداقا وبرهانا -
على ما نقول - بعض أمثلة سخر فيها الله سبحانه وتعالى بعض السخرية كنوع
من العقاب أو الزجر أو الإخافة .

فذكر التهديد بلفظ التبشير بقوله : « بشر المنافقين بأن لهم عذابا ^(١)
أليما » وذكر الإبعاد بلفظ الوعد بقوله تعالى « وعد الله المنافقين والمنافقات
والكفار نار جهنم ^(٢) » وقال تعالى : « الشيطان يعدكم الفقر » .

وهدد متهمكما بقوله : « وجعل الله أندادا ليضل عن سبيله ، قل : تمتع
بكفرك قليلا ، إنك من أصحاب النار » ^(٣) .

وقال تعالى : « ذق إنك أنت العزيز الكريم » ^(٤) .

وقال تعالى عن الكفار : « فما أصبرهم على النار » ^(٥) .

وذكر تعالى استهزاء إبراهيم واستخفافه بهم حيث يقول ^(٦) :

« فجعلهم جذا إذا لا كبيرا لهم لعلمهم إليه يرجعون . . . قالوا : من فعل هذا
بآلهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا : سمعنا فقي يذكركم يـقال له إبراهيم . .
قالوا . . . فأتوا به على أعين الناس لعلمهم يـشهدون . قالوا : أنت فعلت هذا »

(١) الآية ١٣٨ من سورة النساء .

(٢) الآية ٦٨ من سورة التوبة .

(٣) الآية ٨ من سورة الزمر .

(٤) الآية ٤٩ من سورة الدخان .

(٥) الآية ١٧٥ من سورة البقرة .

(٦) سورة الأنبياء .

بألهتنا يا إبراهيم ؟ قال : بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ،^(١)

قال الزمخشري : وهذا من معارض الكلام^(٢) ، وإطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعاني ، والقول فيه أن قصد إبراهيم ، لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم ، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها في أسلوب « تعريضى » ، يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيهم ،^(٣) وقد كنت - في صباى - أحدث نفسى متعجبا من إجابة إبراهيم ، وكنت أهجس فى نفسى أنها كذب ، ولم أدرك مرماها إلا حين وصلت إلى السن التى تسمح لى بفهم مثل هذه السخرية الخفية التى ربما تخفى على بعض من لا يعطى أو يمنح إحساسا دقيقاً أو فطنة ، وهذا النوع من السخرية هو من أرفع أنواعها : وحسب الإنسان - كما قلت سابقا متجددا عن أنواع السخرية - حسبه أن يتخذ مظهرا ما يغيب به صاحبه أعنف إغاظه مما يكون أقوى أثرا من الكلام أو وقع السياط ، وقصة بشار مع زوج خليلته الذى سخر منه تدل على ذلك إذ أخرج الزوج وسخر به سخرية أعنف من الضرب أو الإيذاء ، وهذا الضرر النفسى وهو السخرية أطول بقاء وأعنف أثرا^(٤) . ويؤيد ذلك تلك الحادثة التى ارتكبها بعض التلاميذ مع مدرسمهم ساخرين به بوضع فاكهة مستطيلة - مشتقا اسمها من اسم - فى صندوق الحىكك ، ولما اتجه إلى الصندوق لياتى بالحىكك ووجد هذا الشئ المبهم فى

(١) انظر ما قاله سيدنا إبراهيم فى حديث الشفاعة فى عمدة القارىء شرح صحيح البخارى ٢٦ / ١٩ وفى ٢٤٧ / ١٥ (طبعة المنيرية) .

(٢) المعارض جمع معراض من التعريض ، وهو التورية بالشئ عن الشئ . وفى المثل - وهو حديث مخرج - إن فى المعارض لمدحوعة عن الكذب (اللسان مادة عرض) .

(٣) تفسير الزمخشري : سورة الانبياء .

(٤) الاغانى (طبعة دار الكتب المصرية) - ٣ ص ٣٣٤ .

يده فجأة ، فهم السخرية ، وابتسم ابتسامة المغيظ المحنق وقد ذكرت قصة
رابعة مشابهة حين الكلام عن أنواع السخرية^(١) .

ونعود ثانية إلى استخدام سيدنا ابراهيم أسلوب السخرية مع قومه فنذكر آية
أخرى شبيهة بالأولى ، يهزأ فيها بالآلهة : « فنظر نظرة في النجوم . فقال :
إني سقيم . فتولوا عنه مدبرين ، فراغ إلى آلهتهم فقال : ألا تأكلون . ما لكم
لا تنطقون . فراغ عليهم ضرباً باليمين^(٢) » فها هو يسألهم بطريقة تجاهل العارف ،
ويستخدم ضمير المخاطبين مع الأصنام كنوع من السخرية ، ويخاطب الأصنام
كأنها عاقل : « ألا تأكلون . وزاد من تقوية الأسلوب الساخر قصر الجمل بما يجعل
الصوت سريعاً في انتقاله من جملة إلى أخرى ، وكذلك المحافظة على الفاصلة من
آية إلى أخرى . . . ، وأكثر من هذا بدوؤه نغمة السخرية بادعائه أو قوله : إني
سقيم ، كما كان يفعل سقراط تماماً في استخدامه أسلوب التجاهل أو كما أسميه :
التبالة . إنه يميل إلى أخيرا كأنه حول هذه الأصنام الحجرية إلى حيوانات
- قد نفخ فيها الروح - وقد أخذ يعبث بها ، ولم يكفه هذا بل جسد الصورة
تجسيدا وزعم أنه يحاول أن - يضربها لكي تنطق ، وقد ظن فعلا - كما قد

(١) وأعتقد أنه لا داعي للإطالة في التخرج من جانب المفسرين ، بل إن
هذه السخرية - بما تحتوى عليه من صورة لاذعة - أفسى عليهم ما لو كان قد حطم
الصنم الأكبر مع بقية الأصنام .

وهناك إضافة من المفسرين إلى تلك الصورة وهي زعمهم أنه علق الفأس في عنق
الصنم الأكبر ويرى بعض العلماء ومنهم المرحوم الدكتور محمد حسين الذمبي أنها
من الإسرائيليات وأهل مخيلة الإسرائيليين الساخرة من التي دفعتهم إلى تصور هذا
الفعل من جانب سيدنا ابراهيم ، وليس في هذا غشاضة من وجهة نظر السخرية .

(٢) الآية ٩١ من سورة الصافات قوله (بل فعله كبيرهم) .

ننجح في جعلنا نتخيل ذلك - أن هذه الأصنام التي أمامه من لحم ودم ، وأنه يجب ألا تعي بالجواب ، بل يجب عليها على الأقل أن تجيب مخرجا لها من حجرتها بل يجب عليها - أو على الذين عبدوها - أن تكون في منزلة وسطى بين الإنسان المفكر وبين الحجر الذي لا يحس ولا ينطق ولا يفكر ، أى تكون هذه الأصنام حيوانا فكأنه يقول لهؤلاء العابدين إئتى أهزأ بكم وأحقركم لو كان ما تعبدون حياء أنا من صنع الله ، فكيف أهزأ بكم وإلى أى حد أسخر منكم إذا عرفت وانتهيت أخيرا من تساؤلى بأن ما تعبدون ليس إلا حجرا ، من صنع أيديكم ؟

أى سخرية رائعة نحسها ونحن نتلوا هذه الآيات المينة المعبرة ؟

ويسوق - سبحانه وتعالى - قصة أصحاب الجنتين ^(١) ، فلا مملك ونحن نقرأها إلا أن نسخر بالبخلاء الذين ظنوا فى أنفسهم القدرة ودوام الغنى :
« إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصر منها مصبحين ، ولا يستننون .

فطاف عليها طائف من ربك . . . وهم نائمون . . .
فأصبحت كالصريم .

فتنادوا مصبحين : أن اغدوا على حرائكم إن كنتم صارمين .
فانطلقوا - وهم يتخافون . . . أن لا يدخلونها اليوم عليكم مسكين .
وغدوا على حرد قادرين !!
فلما رأوها ، قالوا : إنا اضالون

بل نحن محرومون

وهنا لا نملك أنفسنا من السخرية اللاذعة بؤلاء النفر الذين ورد ذكرهم
في قصة من تلك القصص التي حدثت قديما والتي يمكن أن يطلق عليها "سخرية
القدر".

وقد أضاف إليها القرآن الكريم من ألوان القوة وأصواتها المتباعدة
ما يجعلها فريدة رائعة :

فقد بدأها سبحانه وتعالى بإظهار أصحاب الجنة بمظهر الأقوياء الذين
يتكلمون بلهجة تأكيدية بالقسم ، ثم باستعمال لام القسم ونون التأكيد
والفعل بصرم وماله من دلالة قوية عنيفة على (القطع) ، وكذلك مما يدل
على زيادة الثقة بأنفسهم عزهم في صباح اليوم التالي مباشرة " مصبحين " ،
وكذلك عزهم على قطعها كلها بغير استثناء - ولا يستثنون - وكلما عرف
الإنسان أو القارىء نهايتهم التي سوف تكون في آخر القصة لا يملك نفسه
من أن يتسم ابتسامة السخرية ، تظهر على شفاهه ، أراد أم لم يرد .

ثم يظهر الجبار سبحانه وتعالى مقدار تفاهتهم بإرسال قوة بسيطة
من لدن العزيز القوى . طاف عليهم طائف من ربك ... وإذا قرأ القارىء
" وهم نائمون " سوف تقفز إلى تفه ابتسامة أخرى حينما يتصورهم في
جانب من الأرض الرحبة الطيبة ، يتصورهم نائمين : أى مطمئنين إلى قوتهم
وإلى أنهم سوف يصلون إلى مأربهم بعد ساعات معدودة حينما ينحدر الليل .

ثم يقول تعالى : " فأصبحت كالصريم " ، وهنا تكمن السخرية في مرعة
قطعها - مع أنهم لم يكونوا يظنون أنها يمكن أن تنتهى بهذه السرعة أو
هذه السهولة . . ، ولم يذكر تعالى كيف قطعت ليعطى ما يريد من التعبير
عن السرعة . ثم يعبر عن نهايتها بكلمة " الصريم " ، وهى من جنس
الفعل الذى استخدموه أولا : " دبصر منها " فكأنه يردد - هازئا - نفس النغمة

التي ذكروها ، كمن يريد أن يهزأ بشخص فيستعمل نفس ألفاظه أو طريقة كلامه مقلداً . ثم عبر عن فعل التحويل بكلمة أصبحت بدل صارت لسببين : أولهما لتسجيم صوتيا بحرف الصاد مع « أصبحت » وفي هذا ما فيه من القوة ، وثانيهما ما يعبر عن السرعة ، بتحديد الوقت (من المساء إلى الصباح) أما صار فلا يدل على تحديد الوقت ، وكذلك لكي يوصلنا بالقصة إلى الصباح حينما نراهم يهبون من نومهم كي يتغذوا وخطتهم ، فهو إيجاز في التعبير رائع .

ثم يستمر في سرد فعلهم الذي يبعث على السخرية بهم ، والعبث بهم لهم : فتنادوا مصبحين : أن اغدوا (مع أن الجفتين قد بارتا منذهنية) على حرائكم إن كنتم صارمين ، وهنا يبعث بهم للمرة الثالثة بتكراره كلمة (صارمين) من الصرم وهو القطع .

ثم يستمر في الهزء بهم : فانطلقوا - أي أسرعوا نشطين قد امتلأوا جذلا وانشراحا لا يقيد حركتهم قيد) وكل هذا نوحى به كلمة أو لفظة (انطلقوا) .

وكيف كان همسهم ؟ : أن لا يدخلها اليوم عليكم مسكين أو هنا السخرية أيضاً في وصفهم - ذاهلين - يستحقون أن نضحك منهم كالإنسان يلعب به القدر أو الفأر يلعب به القط : ويؤكد القرآن الكريم - على لسانهم - الفعل (يدخل) . . . ويزيد الأسلوب قوة باستعماله لفظة (مسكين) التي تدل على حقارتهم إذ أنهم يابون أن يمنحوا مسكيناً جزءاً بسيطاً من خيرهم العميم واستعمل لفظة (مسكين) مفردة ايتناهي في تصويرهم لنا بالميل إلى الشره والاكتئاب على الدنيا .

ويستمر في السخرية بهم : وغدوا - على حرد - قادرين ، وهنا استعمل الفعل - حرد - وفيه حدة تشع من حرف الدال ، ثم تتبع السخرية من (٦٢ - السخرية)

الحال : قاذرين ، وأخيراً تبلغ السخرية أوجها حينما تنتهى من الفصل الأخير من القصة وتنتهى نهايتهم وحسرتهم بعد هذا التصوير السريع المتدارك ، ثم نلاحظ ضعفهم بتغير الفاصلة من النصب في (قاذرين) إلى الرفع في (اضالون) وهذا يقوى تصريحهم بالضعف ومن ثم تبلغ نهاية السخرية بهم والتشفي منهم !

* * *

والقصة الثالثة التي سوف نذكرها من قصص القرآن الكريم هي قصة موسى حينما نقرأ فيها عن جبارين يلتقطون طفلاً لا حول له ولا قوة فينتصر عليهم بحول الله في النهاية . فالتقطه آل فرعون ... ليكون لهم عدوا وحزناً . وهنا مفارقة عابثة تنبع من إنقاذ من يكون السبب في هلاك المنقذ !!

* * *

وفي سورة المدثر :

إنه فكر وقدر . . . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . وبلغ حنف السخرية من كلبة (قتل) وهي قريبة من قولهم قتله الله ما أشجعهم وأخزاه الله ما أشعره ! فلفظة قتل تعجب الغرض منه الاستهزاء . وقد كررت مرتين لزيادة السخرية ، وذكر بعدها الاستفهام الذي هو من قبيل تجاهل المعارف . قال الزمخشري : ثناء عليه على طريقة الاستهزاء به ، أو هي حكاية لما كرروه من قولهم : قتل كيف قدره . ثم كما بهم وبإعجابهم بتقديره واستعظامهم لقوله .

* * *

وهكذا نرى تلك السخرية الهادفة التي عرضناها في الآيات السابقة ، السخرية من هؤلاء الذين يتجافون عن اتباع العقل ، والفترة السليمة ، والمسلك السوي ، فهي مخربة بناة ، وليست سنخرية هدامة ، سنخرية تصلح وتستل العيوب ، وتأخذ بيد الإنسان إلى الطريق المستقيم .

الباب الثاني

نحاول الآن أن نؤرخ للساخرين في الأدب العربي وقد شهد الكثيرون منهم ، غير أن بعضهم قد ضاع معظم أدبه الساخر ، ولم يبق منه إلا القليل .

السخرية في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي :

نستشف مما قلناه سابقاً أن السخرية قد مرت في حس العرب فاستخدموها كغيرهم من الأجناس الأخرى ، ولم يخرجوا عن ذلك الناموس الطبيعي الذي يلتقي فيه البشر جميعاً . فغير أن للعوامل الحضارية المختلفة تأثيراً كبيراً في تعبير الإنسان وتطويره ، وهذا ما يمكن قوله في السخرية ، ذلك اللون من الأسلوب الذي يتأثر بتطور الإنسان عقلياً وحضارياً تأثراً كبيراً وهو ما حدث لهذا اللون بعد بزوغ شمس الحضارة العربية الأموية الإسلامية العباسية ، تلك الحضارة التي غيرت الإنسان العربي تغييراً كبيراً فصار إنساناً آخر يختلف عن أبيه وجده اللذين عاشا فيما قبل هذا العصر ، ولذلك حق للمستشرق بروكلمان أن يطلق على أدب ما قبل العصر العباسي أدباً عربياً وما بعده أدباً إسلامياً .

وسوف ندرس هنا السخرية في العصر الأموي وقد كان فارسها المجلي الشاعر الكبير جرير ، الذي يعد بحق رائد السخرية في الأدب العربي ، وسنقدم له بمقدمة نتناول فيها حسان والخطبة شاعرين ساخرين ظهرا قبله .

- ١ -

حسان والخطبة :

ظهر في صدر الإسلام شاعران كبيران يعدان أستاذين لشاعرنا جرير إذ يكون معهما مدرسة هجائية ساخرة . وقد كنت أود أن يصلتنا من شعرهما

قدر كبير يصلح للدراسة وتبين مذهب كل منهما ، ولكن معظم هذا الشعر الساخر قد ضاع فيما ضاع من كنوز فنية .

أما أولهما وهو حسان بن ثابت فلم يرو الرواة عن حياته ما يجعله منبعها فياضا لطائفة كبيرة من شعر السخرية ، غير أننا نعثر له على شعر ساخر امتد أثره إلى غيلة جرير فتأثر به . فن ذلك ما قاله لقيلة جذام :

لعمرو أبى سمية ما أبالى أنب^(١) التيس أم نطقت جذام

إذا ما شاتمهم ولدت تنادوا أجدى تحت شاتك أم غلام

فهذه سخرية لاذعة ، وتصوير لحالهم حينما يولعون بالحيزان هذا الولوع إلى حد أنهم يفرحون كل الفرح لما تلده الشاة ، وكذلك تكمن السخرية في رميهم بإتيان الشاة وتمسكهم بهم : إذا قد يظنون أن الشاة قد علقت من أحدهم بغلام أو تنبع السخرية من الفعل « تنادوا » الذى يصور فرحتهم ودعاء بعضهم بعضا ، ثم من الاستفهام فى الشطر الثانى من البيت الثانى :

وقد كثرت هذا المذهب من التهمك والتصوير الضاحك فى شعر جرير ، كما سوف نرى حين الكلام عن جرير .

ويصور امرأة من مزية تصويرا مضحكا فيقول :

رب خالة لك بين قدس وآرة تسقى البشام^(٢) ور ففهمالم يغسل

تسعى وترقص حول أير حمارها حتى يكاد يمساها أو يفعل

ويهز أبهم قائلا :

(١) نب التيس : صاح عند الهياج .

(٢) رويت فى ديوانه ص ٢٩٦ « تحت البشام ، ولعل الصراب ما سجلناه

والرفع : ما حول الفرج ، وقد يطلق على الفرج .

قوم تواسوا بأكل الجار كلهم غيرهم وجلا والتيس مثلان
لو ينطق التيس ذو الحصىين وسطهم لكان ذا شرف فيهم وذا شان (١)
وقال فيهم من مقطوعة :

فما منك أعجب يابن استها ولكننى من أولى أعجب
إذا سمعوا الفى آدوا له تيوس تنب إذا تضرب (٢)
ترى التيس عندهم كالجواد بل التيس وسطهم أنجب
فلا تدعهم لقراع الكماه وناد إلى سوءة يركبوا
أما معاصره الخطيئة فقد طار صيته في الهجاء الساخر ، وشهر بيته
اللاذع الذى يخاطب به الزبرقان :

دع المسكارم ! لا ترحل لبغيتها واقعد ! فإنك أنت الطاعم الكاسى
وقد كان أطول باعا من حسان فى السخرية التى لم تتكد تفارقه فى
أغلب هجائه :

ولعل دارس شعره وحياته دراسة دقيقة يفتن إلى عوامل ثلاثة طبعت
شخصيته بطابع الساخر : أولها عدم اهتمامه إلى حقيقة أيه أو كونه ولد زنا ،
كما كانوا يعبرون ، وقد لازمته تلك العقدة طوال حياته ، وجعلته يحقد على
المجتمع الذى عاش فيه ، سواء أكان مجتمع أسرته وأقاربه الأدين ، أم
المجتمع الأكبر ، وأعنى به قبيلته التى انتسب إليها ، أو المجتمع العربى كله ،
ولذا سلط سوط هجائه على هذا المجتمع برمته . أما العامل الثانى فهو
حرمانه ميراثه ، وإحساسه بالظلم والفقر يشب فيه مخالبه حين كان
إخوته الآخرون يستمتعون بالمال الموروث ، وأما العامل الثالث فهو قبح

(١) الديوان طبعة البقوى ٤١٦

(٢) آدوا : قوا . ديوان حسان طبعة الدار القومية سنة ١٩٧٤ ص ٣٧١

منظاره الذى شهد به المؤرخون الذين أرخوا لحياته ؛ وماققه قبح المنظر
أو تشوه الجسد عاملا خطيرا من العوامل التى تطبع الشخص بطابع ما
ومحاولة تغطية هذا القبح بالتعالى على المجتمع بالسخرية ، وقد ذكرت عدة
أمثلة تبين ذلك فى مقدمة ديوانه الذى حقهته .

كل هذا إذن قد أذكى فى نفسه تلك المنحة السماوية التى عوضه الله بها عما فقد ،
وعنى بها المقدرة البيانية ، فأخذ يستعين بها على مهاجمة المجتمع ، وكان المجتمع
لا يفتأ يضحك منه ومن مفارقاته ، وحاد عن سبيل كثيرين من الشعراء
السابقين له ، وأخذ سلاحا آخر هو «السخرية» . فجعل كثيرين ممن كرههم هدفا
لسخريته ، ولعل زوج أمه هو أول من سدد إليه سهامه .

فلما قاه فيه ولم يضع عبر الزمن :

فنعيم الشيخ أنت لدى المخازى وبس الشيخ أنت لدى المعالى

ونلاحظ أنه هنا فطن إلى «المقابلة» ، وأزها فى السخرية وقد أولع بها
جهير فيما بعد كثيرا ، وكذلك فى التهمك باستخدام ألفاظ المدح فى موضع
«الذم» وعكسها .

ويلجأ إلى الأسلوب الهادى فى السخرية بالتساؤل أو ما يطلق عليه
«تجاهل العارف» كقوله لفداة العبدى :

فخرتم ، ولم تعلم بمحادث مجدكم	فها ، هلم بعدها للتفاخر !
ومن أتم ١٢ لانا نسينا من أتم	وربحكم من أى ربح الأعاصر
متى جئتم ؟ إنا رأينا شخوصكم	ضئلا ، فما إن بيننا من تفاكر
وأتم أولى جئتم مع البقل والدبا	فطار ، وهذا شخصكم خير طائر !

ويظهر هابشا بالوليد بن حقة في حادث شربه الخمر أيام عثمان بن عفان
فيورد القصة بحذا فيرها كأنه مجرد واصف يصف ما أمامه، ثم يترك في
أثناءها ما يشتم منه روح السخرية .

يقدم لقصته بهذا البيت :

شهد الخطيئة يوم يلتقي ربه أن الوليد أحق بالمذر
فيوحى بأنه سوف يقف إلى جانب الوالى، وينفى التهمة عنه ؛ ولكنه
يفاجئنا بقوله :

نادى - وقد قضوا صلاتهم أزيدكم ؟ ثملا ! وما يدرى !
ليزيدهم خيرا ولو قبلوا لقرنت بين الشفع والوتر !
فاتوا أبا وهب ولو فعلوا وصلت صلاتهم إلى العشر !

فنحس السخرية تكمن في عبارة « ليزيدهم خيرا » . وفي الشطر الثانى
من البيت الثالث . وهو لا يكتفى بهذا ، بل يعلق هازئا بتصويره جوادا
مندفعا ، ولولا كبحه لاستمر في عدوه :

خلعوا عنانك إذ جريت ولو خلوا عنانك لم تزل تجرى

وسخر الخطيئة بعقوبة بن النحاس العجلى زعيم بكر في الكوفة حينما سأله
عن أشعر الشعراء ، فإذا به يفاجئه ليشفى نفسه وينتقم من بخله قائلا :
أشعر الشعراء الذى يقول :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ، ومن لا يتق الفتم يشتم !

فقال له عتبية - وقد فطن إلى اذع الخطيئة - : « أما إن هذه الكلمة من
مقدمات أفاعيك ! » (١) .

(١) وهذا هو ما سماه العقاد وغيره من الباحثين عن أسباب الضحك ، بالدغدغة

ولعل روحه الساخرة من كل ما حولها قد ظهرت بوضوح في وصيته التي زعم للرواة أنها حدثت ، وبالغوا فيها ، وقد سيطرت عليه روحه المناجزة^(١) في أيامه الأخيرة كما سيطرت عليه طوال حياته : طلبوا منه أن يوصي بشيء للمساكين ، فسخر أو تماجن قائلا : أوصيهم بالمسألة ما عاشوا فإنها تجارة لا تبور ! وحينما سأله أن يعشق عبده قال : متماجنا : اشهدوا أنه عبد ما بقى !

جرير :

هذا الشاعر اليربوعي النيمى قد ولد بين سنين ٣٠ ، ٣٣ هـ وعمر حتى سنة ١١٤ هـ وقضى الجزء الأكبر من حياته في مراحيم وتميم وبخاصة قرية أنيفية ، إحدى قرى الوشم باليمامة وزار البصرة والكوفة ودمشق عدة مرات وكان نصيب الأولى من زياراته وإقامته أوفر من غيرها .

وقد عملت الوراثة والبيئة عملها في طبع هذا الشاعر بالسخرية^(٢) : ولد

= الفكرية ، في قوله : « وكما أن الدغدغة الجسدية تحدث في المواضع التي لا تعرض كثيرا للمس ، ولا يكون موضع الدغدغة معروفا قبلها ، كذلك تحدث الدغدغة الفكرية من خاطر غير معهود ولا معروف قبل ذلك ، ويبدو أن عنصر الطرود أو المنافاة الذي يجري في سياق التفكيك هو العنصر القوي في تكوين المضحكات ، انظر كتاب جمادى الضاحك المضحك للعقاد ص ٦٣

(١) انظر كتاب الظراف والمتماجنين لابن الجوزي حيث يعرف المجنون بأنه صرف اللفظ عن حقيقة إلى معنى آخر .

(٢) انظر كتابا عن جرير : حياته وشعره ، ص ١١٩ وما بعدها ، ص ١٧٧ وما بعدها ، ص ٣١٧ ، ص ٣٨٤

لسبعة أشهر فكان لهذا أثره في طبعه بالحساسية (١)، وولد لأبوين يجتمعان في جد واحد فزاد هذا من وراثته ما في الأبوين من عيوب خلقية وخُلُقِية، تلك العيوب التي يومية إليها من بعيد أوقية بحق خاله معرض، وشح أبيه وقصره واشتهاره بأنه كان مضعوفاً، وفججه - أى التواء قدميه - كل ذلك قد أصاب جريراً ولا شك بالشعور بالنقص، ذلك الذي زاده ضعة قبيلته الدنيا دكايب، التي نعتها مليكة ابنة الخطيئة بأنها - لفقرها ودنامتها - بعر الكباش ! ولقد زاد من تلك الحساسية وقوف جرير - الذي كان قصيرا دميماً ذا غنة - وقوفه بطاول ويفاخر الفرزدق أكبر شاعر تميمي بل أكبر الشعراء في زمنه، والذي طالما باهى وفاخر بحسبه وقوة محدته : كل تلك العوال قد تضافرت وامتزجت بكيانه حتى صيرته الشاعر الذي يأتي أن يمتدح بنفسه سواء ذلك الذي يرين على نفسه أويبدو واضحاً جلياً في خلقه، بل يتملكه الروح الساخر الذي يفتن إلى متناقضات الحياة حوله، فيتحول من الضعف والاستكانة إلى فارس يمسك بيديه سلاحاً فتاكاً هو سلاح الصخرية !!

وقد ظهر شعوره بالنقص من خلال قوله له في معرض الموازنة بينه وبين الفرزدق بعد أن روى نادرة تدل على حقارة أبيه عطية : د فكيف برجل يريد أن يسامى بنى دارم بهذا ؟، وقد ظهر هذا الشعور أيضاً حينما نأى عن الفخر بكليب قبيلته الدنيا إلى الفخر ببني رياح قائلاً :

أترعدنى وراء بنى رياح كذبت لثقتصرن يدك دونى !
فقال له بنو كليب - وقد شعروا بذلك - ما هجانا أحد قط بأشد مما هجرتنا به ، حين استوى لك أن تقول : وراء بنى كليب فرغبت عن آبائك إلى أعمامك !

إذن شعر جرير بالنقص أمام خصمه المتمتع بالفرزدق ، ذلك الذي

(١) هناك عوامل أخرى فصلتها في كتاب د جرير ،

احترمه ونظر إليه دائماً راعياً حقيراً لا يملك إلا بل، بل النقاد كغيره من الفقراء :

فيا عجباً ! حتى كليب تسبى وكانت كليب مدرجاً للبشائم

فحق جرير على هذا المجتمع المتعالى والأرستقراطى، الذى يمثل الفرزدق وكان صاحبنا يمثل الديمقراطية الشعبية المتواضعة التى أخذت تحاول إيجاد مكان لها فى مجتمع تسيطر عليه طبقة المجتمع المتعالية بحسبها ومحتدها، وهى التى توورت عن الجاهلية، وحاول الإسلام إلزائها بمثل قول النبى (ص) : لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى . . . سنخر جرير من هذا المجتمع المتعالى فى شخص الفرزدق الذى التحم معه فى معركة هجائية حامية الوطيس لم يشهد لها الأدب العربى مثيلاً، تلك المعركة التى استمرت نصف قرن تقريباً (٦٥ - ١١٤ هـ) .

لعل جرير لم يكن متفلساً بهذا المعنى الكبير، ولكنه كان البؤرة التى تتجمع فيها لإحساسات الشعب أو المجتمع، فيعطى القدرة على الكلام أو التعبير فيتكلم، ويترجم عما أحسه مجتمعه، وما ينوء به من آلام وعلل، ولا يبعد عن الصواب إذا قلنا إن شاعرنا قد ورث الإحساس بالظلم الاجتماعى عن أجداده منذ القدم : هؤلاء الذين تسلسل فيهم هذا الشعور بالظلم الاجتماعى، فأخذ يثقل من أب إلى ابن إلى حفيد، حتى تركز فى مثل هذا الشاعر الذى منحه الله جهازاً عصبياً حساساً شحناً بالآلام منذ قديم الزمان، ثم انعكست عليه آلام مجتمعه البدوى ثم الحضرى الذى عاش فيه، فكانت أخيراً عود الثقب الذى أشعله بالسخرية، يحاول بها تكبير عيوب هذه الطبقة التى تزعم لنفسها الكمال والعظمة والمجد وتدوس بأقدامها بقية مجتمعهما الضعيف المهضوم، معتمدة على أن ما تمتلئ به من عيوب قد غطاء ستار المجد الزائف الكشيف.

ولست العيوب التى سدد إليها جرير سهامه عيوباً شخصية فى الفرزدق أو الأحظال أو غيرهما، بل هى عيوب اجتماعية تتمثل وتظهر فى المجتمع

الخاص أو الأمرة التي ينتمون إليها ، وهناك عناصر مشتركة في هجائه الأشخاص المختلفين : كالعنصر النسائي الذي استند إليه استنادا كبيرا بحق وبغير حق ، وهناك عناصر غير مشتركة كالنصرانية التي تميز بها الأخطل ، والفسوق والفجور اللذين اشتهر بهما الفرزدق ، ودقة الأصل ولؤمه وهما ما عرف بهما بنو التميم ، والعور الذي عير به الأعور النهماني .

وأما الفرزدق : فقد مى جده قفيرة بالزنا وقفيرة هذه أم لجد صمصعة ، وكان لصمصعة عبيد قيون منهم جبير ووقبان وديسم ، فلذلك جعلت مجاشع قيونا واتخذ جرير من هذا مادة لسخريته ، كما في قوله ذاكرا غالبا أباه :

وجدنا جبيرا أبا غالب بعيد القرابة من معبد

ويتحدث عن بنى مجاشع دائما بالقيون ، كأنه قد أصبح اسمهم حقا ، وأنه لا ينكره منكر . ولما وصف غالب أبا الفرزدق بأنه مثل « حوق الحمار » وأنه كان يقبب كالبعير كلما تكلم ، التقط هذه التسمية ، ونعت الفرزدق بها ، ضاربا صفحا عن اسمه الحقيقي ، فكأنه لا يعرف إلا بحوق الحمار :

وإذا فخرت بأهات مجاشع فأفخره بقبب ، واذكر النخوارا

* * *

وكان جرير كثيرا ما يستعمل الألفاظ التي تدل على الاستخفاف ، لإيهامها ، ولموسيقاها مثل جوخي^(١) ، وخجنج^(٢) ، والنخوار^(٣) ،

(١) اسم للإمام .

(٢) الخجنجة : سرعة الإفاضة والجماع ، ولها معان أخرى .

(٣) أى الجبان

والجيثلوط (١) ، وخضاف أو خيضاف (٢) ، وقدام (٣) ، ووقبان (٤) ، وضوطر (٥) ، ورغوان وشعرة ، وزبد استها ، والجلوبق (٦) ، وهذه أمثلة لما قلت ، ونلاحظ ما تشعه الألفاظ بموسيقاها ورينها من إحساس بالهزة :

لقد كان يا أولاد خججج فيكم محول رحل للزير ومانع
فإن مجاشعا - فتيينهم - بنو جوجي وخججج والقدام
ولعل إيهاء الألفاظ السابقة لا يكون بالقوة التي كان بها في عصر جرير ، ولكننا إذا تصفحنا المعاجم استطعنا أن نستشعر إيهاءها ، بالإضافة إلى موسيقاها ، فعلى الرغم من أنها تشتمل على الحروف التي تنفر منها الأذن ولا تحبها كثيرا كالحاء وبخاصة إذا اجتمعت مع الجيم في مثل جوجي وخججج ، أو إذا ما تكررت في كلمة واحدة ، وكذلك حرف الثاء والطاء في جيثلوط ، والضاد والطاء في ضوطر ، والجيم والقاف في هذه اللفظة المستطيلة جلوبق :

رجوتم يا بني وقبان موني وأرجو أن تطول لكم حياتي
إذا لاقى بنو وقبان غما شددت على أنوفهم العصا
وقوله :

تلقى بنات أبي الجلوبق نزعا نحو القيون ، وماهن نفا
وهكذا يتخذ جرير من غرابة الألفاظ ووقعها مادة للهزة حتى يبالغ في ذلك فيستعمل ألفاظا ربما لم يعرف معناها كلفظة الجيثلوط ، التي تشع

(١) شتم اخترعه للذناء وكان معناه : السكذابة السلاحة ، مركب من جلط ، جشط ، ثلط (القاموس)

(٢) الخضاف : الضراط

(٣) هي التي تلتطخ الجعر

(٤) من الوقب وهو دخول الأبر

(٥) الضخم اللثيم العظيم الاسن

(٦) الرجل ذو الجلبة والضجة .

إشعاعا غريبا كأنها توميء حقا - في البيت - إلى أن الذي يتحدث عنه مجهول النسب أو المكاة أو كليهما ، لأن معنى اللفظة ورينها المرسى منفر بطولها من جهة ، ويانهاها بحرف الطاء ، أو بالمقطع الأخير (لوط) من جهة أخرى ، وربما كان ساخرا في ذلك كالمعري حينما أطلق على « الجنى » الذي زعم أنه التقى به في الجنة اسما يكاد يكون مضحكا بتركيبه وإيهامه : « الخيتور أحد بنى الشصبان » ، ويبالغ في السخرية بكنية ساخرة طويلة في حروفها ، غريبة في وقعها على الأذن ، أبو هدرش ، كما نعت مجاشعا « بأبى الجلوبق » ، وإنما هذا يحدث في كل زمن ، وربما في كل لغة ، فقد سمعت أحد العامة يلقب الآخر ضاحكا ساخرا : لا يقصد السباب بل السخرية « يا ابن مكه زغل » ، وليس بالطبع لهذه التسمية أو اللفظة معنى يفهمه الناعت أو المنعوت بها ، ولكن إيهام معناها هو الذي ينبع منه السخرية بطوله أو بشكله أو بهيئته .

وإذا تصفحنا المعاجم ، وجدنا كثيرا من هذه الألفاظ التي تطن في الأذن طينا خاصا ربما عرف الإنسان مدلولها من وقعها في أذنه مثل « العفنجج » (وهو الضخم الاحق) والعشوزن (وهو العسر الملتوى من كل شيء ، والشديد الخلق) وربما اخترعت هذه الألفاظ في عصور اللغة الأولى حيث لم تشتق من مواد كانت واضحة المدلول في أذهانهم ، ونحتوا منها ألفاظا مقاربة لما في أذهانهم في المعنى ، بل مثل هذه الألفاظ الطويلة المقاطع من اشتقاق شخص من الأشخاص هدته إلى ذلك حاسته السمعية التي تدرك بالفطرة الحروف وصفاتها ومخارجها ومدى دلالتها .

وقد لاحظ الدكتور محمد محمد حسين هذه الخاصية وهي مهارته في استعمال بعض الألفاظ ذات الرنين الساخر فقال : ومن الهجائين من يرزق إلى جانب هذه الموهبة عبقرية في الحس اللفظي تلتئم فيها الألفاظ - من حيث هي حروف تتوالى - بالصور التثام عجيبا ، ولا نكاد نعرف هجاء عربيا يعدل جريرا في هذه الناحية : فهجاؤه يستفز القاري للضحك ، قبل أن يروى في معناه ويحققه ^(١) .

ولم يسخر جرير بالفرزدق وآله عن طريق الالفاظ ذات الرنين الساخر
فحسب ، بل سخر أيضا عن طريق الصور المركبة أيضا : فقد عبر الفرزدق
بأدوات القيون التي يستعملونها ، فذكره بها كثيرا - ونسبها إليه ونسبه إليها -
كما ينسب الابن إلى أبيه ، في تركيب ضاحك ساخر : يستعمل أسلوب الأمر
التمكيمي مرة ، وأسلوب النفخيم التكميمي مرة أخرى ، والمقابلة
مرة ثالثة :

ألا إنما مجد فرزدق : كبيره وذخر له في الجنتين قعاقع
كبرك بأخبت قين عرقا ١
هلا حميت الكبير أن يخرقا ١٩

وهكذا يذكر دائما - ويلح في هذا إلحاحا - أنه قد ورث عن أبيه
وأجداده أدوات القين ، كما تبايشت أنهم حقا أولاد العبيد القيون - جبير
وديسم - الذين ادعى أنهم نزوا على جدته قفيرة :

وأورثك القين العلاء ومرجلا
وإصلاح أخرات^(١) الفؤوس الكرازم
إذا عدت مكارمها تميم فخرت بمرجل وبعقر ناب
وسيف أبي الفرزدق - قد علمتم قدوم غير ثابتة النصاب
ويخاطب قوم حدراء - بنى زيق من شيبان - ساخرا بالفرزدق :
فأمثل مافي صهركم أن صهركم مجيد لكم لي الكتيشف وشاعب
أيفخر بالمحمم قين ليلى وبالكبر المرقع والعلاء

(١) أخرات جمع خرت وهو الثقب في الفأس ، الكرازم : فأس مفلولة الحد
والعلاء : السندان .

وفاز الفرزدق بالكبتين وعدل من الحمم الأسود
فرقع لجمدك أكباره وأصلح متاعك لا يفسد
وأذن العلاء وأذن القدوم ووسع لكبرك في المقعد
وأوصى جبير إلى غالب وصية ذى الرحم المجهد
فقال أرفقن بلى الكتيّف وحك المشاعب والمهرد

وكثيرا ما يذكر هازنا الرفق بالكبير وغيره :

ترفتت بالكبيرين قين مجاشع وأنت بهز المشرفية أعنف
وهكذا نجد جريرا يسخر في صورة حية ، كأنها حدثت في الواقع ،
حينما يتخيل حوارا كأنه وقع حقا بين غالب - أبى الفرزدق - وبين جبير
الذى يذهب إليه ، فينصحه ، بماذا ؟ بأعز شيء عنده ! وكأنها الوصية التى
يريد أن يهمس بها فى أذنه قبل الوداع الأخير .. هذه الوصاة هى : أن يرفق
بلى الكتيّف !

ويضحك جرير ضحكا عاليا حينما يزعم أن جدم القين قد دفن ، ومعه
أعز شيء يملكه ، ألا وهو أدوانه التى يعزّ بها ... ومن يبكى صداها ؟ إنسان ؟
كلا ! بل هو شيء حى ، وما زال حيا فى نفس الميت . ألا وهو الرجل ،
الذى كان ذا صوت مدو فى الدنيا :

وجد الكتيّف ذخيرة فى قبره والكبتان جعمن والميشار

ولعل السخرية نابعة من لفظة « ذخيرة » ، حالة كونها « ذخيرة » له وذخرا
فى قبره .

يبكى صداها - إذا تهزم - مرّجل أو إن تتلم برمة أعشار^(١)
لأنه قد شخص المرّجل - لأنه عزيز عليه - فجعله شخصا مخلصا ييبكى

(١) البرمة : قدر من حجارة .

منبده حين لم يجد مخلصاً من بنى قرابته يبكى صداه ، وبأخذ بشاره كاء قاد
الجاهليين ، حتى تقول الهامة اسقوني ، ثم يتصور اكان يحدث فى الحياة
من اهتزاز الأرض لكثرة طرق الحديد فيتصور هازئاً ، المقر ، الذى دفن
فيه غالب أبو الفرزدق والذى افتخر به الفرزدق كثيراً ، يتصوره
كأنه رجف :

رجف (المقر) وصاح فى شقيقه . قين عليه دواخن وشرار !

ويصور جرير الفرزدق قينا حقاً ، فيسبغ عليه من سمات القيين ما جعل
حدراء ، خطيبته تبين فيه هذه الصفة ، فتذكره أياً إنكار ، وتأتى أن يكون
لها قريناً ، ثم يدبر حواراً - كأنه حدث حقيقة - وذلك لكي يزيد من واقعية
الصورة ، فيجعل الحوار بين حدراء والفرزدق - مع أنها لم يلتقيا - كأنه
قد تزوجها حقاً :

حدراء أنكرت القيون ويريمهم	والحر يمنع ضيمه الإنكار
لما رأت صدا الحديد بجاده	فاللون أورق والبنان قصار
قال الفرزدق رعى أكيارنا	قالت وكيف ترقع الأكيار ؟
رقع متاعك إن جدى خالده	والقين جدك لم يلدك نزار !

وأعلنا نلاحظ هنا مهارته فى تصوير سلاطة لسان الزوجة فى بعض الأحيان
حينما تخاطب زوجها ، فتعيره بأبيه وجده ، إذ تفخر هى بحسبها ونسبها ،
ثم تزيد فى سلاطتها وحدثها ، حتى تنفيه عن العرب !

ثم زاد جرير فى التهمك ، فتخيل أنها دعت ربها ، المصور ، الذى صور
الفرزدق بهذه الصورة ، دعتة مستغيثة ضارعة :

دعت المصور دعوة مسموعة	ومع الدعاء تضرع وجوار !
عادت بربك أن يكون قرينها	قهنأ أحجم لفسوه إعصارا

إن البيتين مشحونان بالسخرية في كل لفظة ، فهي مع دعائها قد تضرعت ووقفت منه - تعالى - موقف الضراعة لأمر عظيم ، وخطاب جسيم نزل بها - أو كاد - وتريد جاهدة أن تخلص منه . ثم يهزأ به بأن يفهمه بكلمة «أحم» ، وفيها من الاستهغار والجزء ما لا سبيل لوصفه أو تصويره ، بل تحسه الأذن فيبتسم الشجر ، ثم يكبر صورة فسائه فيجعله إصصا ١١ أرايت إلى أي حد يهزأ به ويقسو عليه ؟ ثم ينتهي بالحوار الساخر فتقول له حذراء :

ليست لقومي بالكثيف تجارة لكن قومي بالطعان تجارا

وبذلك ترد عليه رداً غريبا مضحا يجعله ينقمر ، ولا يحاول أن يلج في طلب يدها . وإذا أضفنا مدى ما يشمر به الرجل من إهانة وخيبة أمل إذا ما تقدم إلى امرأة خاطبا ، فيرد عنها خائبا ، فيزيد جرير من هذه الخيبة بأن يشيع هذا بين الناس ويذيعه بهذا التهكم المرير ، وبهذه الواقعية التي يظنها السامع أنها حدثت حقيقة ، إذا عرفنا هذا أدركنا وقع هذا على الفرزدق ومقدار جبنه وخوفه من جرير ، وهناك قصة يروها أبو الفرج الأصفهاني : وهي أن ماجنا كان يسبح مع الفرزدق وغيره في بركة ماء ، وجعل هذا الماجن ينفلت إلى الفرزدق ويقول : دعوني أنسكه حتى لا يهجوننا أبدا ١٢ لجعل الفرزدق يستغيت ويقول : ويلكم ، لا يمس جلده جلدي فيبلغ ذلك جريرا فيوجب على أنه قد كان منه الذي يقول ^{١٣} وتدل هذه القصة على مدى خوف الفرزدق من تشنيع جرير بحق وبغير حق .

ولا يكتفي جرير بوصف خصمه بلونه الأورق وبنائه القصير ، بل يصف الشرار المتطايير حوله ، والدخان المتصاعد من النار : «قن عليه دواخن وشرار» ، فيقول :

أقبن يا تميم يعيب قيساً يطير على لهازمه الشرار ١٩
فيجسد الصورة تجسيدا : فهذه لهازمه ، وهذا هو الشرار المتطاير حوله
كانها مائلة أمام أعيننا الآن بحركتها الواقعية .

ثم يكفى عن القين الذى اتهمت به أمه وجدته بالكبتين والكير ، لأنها
من أخص لوازمه ، وبذلك رمى أمه وجدته بالزنا فى صورة مظلة متوارية
مضحكة :

ولقد نيتك أن تسب مخرقا وفراش أمك كبتان وكير
وبما سلكه فى السخرية طريقة « المقابلة » ، فيقابل كثيرا صورة صنع
الفرزدق - الذى هو أحد القيون - السيوف بينما جرير وقومه يستخدمونها
بعد ذلك فى ميدان الشرف والفخار :

كان العنان على أيك محرما والكير كان عليه غير حرام
إذا صقلوا سيفا ضربنا بنصله وعاد إلينا جفنه وحمائله
فأورثك العلاء وأورثونا رباط الخيل أفنية القباب
تصف السيوف وغيركم يعصى بها
يا بن القيون ، وذلك فعل الصيقل
وتنكر هز المشرفي يمينه
ويعرف كفيه الإناء المكثف

وهنا يمزج بين حادثة « نيو السيف » فى أيام سليمان بن عبد الملك ،
حينما أعطاه بنو عبس سيفا كايلا ، فلم يستطع أن يضرب به رقبة الأسير ،
بينما نجح جرير فى ذلك ، ومن ثم عبره كثيرا بهذه الحادثة ، فهو يقابل
ويجمع بين هذه الحادثة التى خذى بها وضحك منه سليمان والحاضرون ، وبين
كونهم « قيونا » أو رميهم بذلك :

وسيف أبي الفرزدق - قد علمتم - قدوم غير ثابتة النصاب !
وأخيرا فهو يضع هذه الأدوات بالقرب من أعضاء خفية من جسمه
فيجعلها داخل إطار ساخر :

هو القين يدنى الكبير من صدأ استه

ويعرف من الكلبين أنامله !

أتجعل يا بن القين أوسا وحائما كذى مرجل عند استه وقدوم
إذا مالوى بالكلبتين كثيفة رآين وراء الكبير أيرا محما !
ويقابل مقابلة لطيفة هازنا مصورا حبهم للكبير وترفقهم به ، لأنه عزيز
عليهم !

ترفقت بالكبيرين قين مجاشع وأنت بهز المشرفية أعنف !

التعبير بالحبوة ، ومقتل الزبير وأكل الخزير (١) :

لما قال الفرزدق مفتخرا : « بيتا زرارة محتب بفنائيه ، سخر جرير سخرية
لاذعة من صورة المحتبي التي كانت تعد في أيامهم علامة الشرف والعزة والمنعة
وقرن هذه الصورة « الصامته ، التي تمنع صاحبها من التحرك ، قرنها بعدم
تحركهم لإفقاذ الزبير بن العوام ، الذي قتل بعد أن استجار بهم ولم يجبروه !
وارتسمت كذلك في مخيلته - بمناسبة الحبوة ومقتل الزبير - تلك الصورة
التي نقلتها الأسطورة ، وهي أكلهم الخزير سراعا ، متلهفين لما دعوا إلى ذلك ،
فكرر هذا المعنى كثيرا - وهو أنهم قوم لا يستطيعون إلا عقد الحبى ، والقهود
عن إجارة المستجير وأكل الخزير بنهم :

ودعا الزبير - فما تحركت الحبى ! لو سمتهم جحف (٢) الخزير لثاروا
والمقابلة بين دعوة الزبير ، وعدم تحرك الحبى هى منبع السخرية هنا ،

(١) الخزيرة : شبه عسيدة بلحم وبلا لحم عسيدة أو مرقعة من بلالة النخالة.

(٢) الجحفة : اليسير من الشريد فى الإناء لا يملؤه والغرفة من الطعام أو ملء اليد.

وكذلك استعماله جمع د حبة ، : حبي ، ثم يكمل البيت بأنهم : لو ساءهم أحد
والخزير ، لتحركوا ، بل : لثاروا ، فيجعل غضبهم بمن يطلب الخزير ثورة ،
أما إذا دعاهم أحد واستجار بهم ، فهم هامدون محتبون !

أنفخر بالحبي وخزيت فيها وقبل اليوم ما فضحت حباكا
قل الزير وأنت عاقد حبة قبعا لحبوتك التي لم تحلل !
وتم يشبههم تشبيها مضحكا ، فكانهم ضباع تبكى ، لا على القتلى ، بل
دكرها ، !

مثل الضباع تغنيهن نائمة تبكى على كمر القتلى بصفين !
وقد كان في يوم الحوارى جاركم أحاديث صمت من ثاها المسامع
وبتم تعشون الخزير كأنكم مطلقة حيناً وحيناً تراجع
إذا طرب الحمام - حمام نجد - نعى جار الأقارع والحتات
إذا ما الليل هاج صدى حزينا بكى جزعا عليه إلى المات !

والسخرية تابعة من إضافة د جار ، إلى الأقارع والحتات ، ليزيد في
تفخيمهم ، ثم يضيف إليه ذلك العار :

ولا نحتي عند عقد الجوار بغير النجاد ولا نرتدى
شدد تم حباكم على غدره بحبشان والسيف لم يغمد

وكثيرا ما يشبه مجاشعا - ساخرا - بالضباع ، التي يقال عنها إنها تقترب
من القتلى ، وقد انتفخت بطونهم ، ونعظت أيورهم ، تبغى من وراء ذلك
غرضا من ميت لا يفيد :

تراغيتم يوم الزير كأنكم ضباع بذى قارتمنى الأمانيا

والسخرية تابعة من هنا من كلمة « الأمانى » فجعل الأمية الواحدة -
أمانى كثيرة - فهو قد صور حب الضباع لما تتميناه بأنها كثيرة . فهو لم يكتف

بسخرته منها بتسميتها أمنية ، حتى عدها أمانى . والمعروف أن الأمنية شيء بعيد التحقيق تمنى المرء حصوله ، فكذلك هى تمنى الضراب (الجماع) الحقيقى وهو شيء بعيد الحصول من ميت .

ويصفهم جرير .. بعد قتل الزبير .. كأنهم تعشوا الخزير ، وامتلات به بطونهم فثقلت لذلك أجفانهم ، فناموا من البشم ، ولم يستطيعوا إجارته :

باتوا .. وقد قتل الزبير .. كأنهم خور صوادى عن نجيل قراقر
ودعا الزبير مجاشعا فترمزت للغدر اللم آنف وسبال^(١)

وهو هنا يعبر تعبيراً قوياً عن غدرهم بلفظة (ترمزت) وفيها من القوة والدلالة الصوتية ما يبدل على أنه وصل إلى غرضه بتعبيره عن غدرهم وتهميمهم له وتهميمهم شديداً قبل القيام به ، وهو هذا يرسم صورة كاريكاتورية لهذه الأنوف التى اضطربت ، وهذه السبال التى تحركت ، علامة على الغدر .

ثم يقابل بين الخزير - كطعام .. وارتضاع الفيشل فى حادثة أبى سواج فقال :

ما كان ينكر فى ندى مجاشع أكل الخزير ولا ارتفاع الفيشل

فهو منتهز فرصة هذا التقرير أو الإقرار الذى ينسبه إليهم : وهو أكل الخزير .. فيمزج به فى الخفاء وفى دهاء .. شيئاً آخر قبيحاً أشد القبح ، ليولد السخرية بهم ويزيد التهمك والهمز بهم فيقول : ارتضاع الفيشل كشراب ، نتيجة منطقية بعد الطعام !

شهد الممهل أن جيش مجاشع رضعوا الأبور على الخزير فخاروا

(١) واستعمل جرير (الترمز) فى عدة مواضع أخرى ، فها قال :

إذا سار فى الركب البعيت عرقم ترمز حمراء العجان على الرحل
أضحى يرمز حاجبيه كأنه ذبح له بقصيرتين وجار

ويضا حاكمهم ساخرا فيقول :

لا تغلبن على ارتضاع أيوركم أوصى بذلك أبوكم المهبار
ويربط كذلك بين نخمة بطونهم التي أصيبوا بها من أكل الخزير - وبين
انتفاخ خصاهم الذي يمكن أن يكون قد نتج عن انتفاخ البطون :

تقرقر يا فرزدق إذ فرعتم خزير آبات في أدر ثقال
ومثله ما قال للأخطل (واستخدم لفظ قرقر بما فيها من دلالة صوتية)

مسخ العباء وريح نسوة تغلب عدس يقرقر في البطون وفول
وفي القرقرة دلالة على الترجيع وإخراج الصوت ، فكان لهضم الطعام
(الخزير) في بطونهم صوت يشبه القرقرة ، ولعل مثله قوله :

يغدون .. قد نفخ الخزير بطونهم رغدا ، وضيف بنى عقال بخضع
مباشم عن غب الخزير كأنما تصرت في أعفاجهن الضفادع

* * *

التعبير بعقر الناب بصورة ، وحادثة نبو السيف

وغير جرير الفرزدق وسخر منهم .. أى من مجاشع .. بشيئين : أحدهما
نظر الفرزدق بعقر الناب بصورة ، وهى المعاقرة التى حدثت بين أبيه غالب
وسحيم بن وثيل الرياحى فى أيام عثمان بن عفان .

وكذلك سخر منهم ثانيا بشيء آخر ، وهو (نبو السيف) لما أراد أن
يضرب به عنق الأسير أمام سليمان ، وكذلك سخر منهم كثيرا برميهم بارتضاع
الفيدثل فى مقابل سخرية الفرزدق - كليب حينما غيرهم بمحادث (صرد
الربوعى) الذى شرب منى عبد أبى سواج ، كما فصل ذلك أبو عبيدة فى
النقيضة رقم ٢٩ ص ٢٠٦ من النقاوض .

وكان جرير - يمزج كل هذه العيوب بعضها ببعض ، فيركب من عقر

الناب والكير صورة ساخرة ضاحكة : فيقول - مقابلا بين إيراد يربوع الخيل للحرب وإيراد مجاشع الإبل حاملة الكير :

فنورد يوم الروع خيلا مغيرة وتورد نابا تحمل الكير صورا
سبقت بأيام الفعّال فلم تجد لقومك إلا عقر نابك مفخرا
لقيت القروم المخاطر فلم يكن بكيرك إلا أن تكش وتيعرا

وقال أيضا في عقر الناب :

لقد سرتني ألا تعد مجاشع من الفخر إلا عقر ناب بصور
ويمزج بين نبو السيف عن رقبة الأسير أيام سليمان ، وعدم نبوه حين عقر الناب :

ضربت به عرقوب ناب بصور ولا تضربون البيض تحت الغمام
دعوا المجدل لأن تسوقوا كزومكم وقينا عراقيبا وقينا يمانيا
ويسخر عارثا بارد تضاع الأير :
تلك المكارم لم تجد أيامها لمجاشع ، فقفوا ثعالة فارضعوا
لا تظلمأون وفي نهيج عمكم مروى ، وعند بنى سويد مشبع
رضعتم ، ثم سال على الحاكم ثعالة حين لم تجدوا شرابا

نسوة مجاشع :

وقد قلت قبلا أنه يمزج عناصر السخرية بعضها ببعض ، كما سماه برجسون «تداخل السلاسل» فهو لا ينسى الخنزير في هجائه نسوة مجاشع ، والسخرية بهم ، فيقول :

إذا طرقت بنخوبة من مجاشع أقدون رأس «السايباء» خزيها
وأكثر هجاء نسوة مجاشع يدور حول أعضائهن التناسلية ورمهن

بالفاحشة في تصوير ما جن يميل إلى السخرية أحيانا ، وأكثر من تعرض
لهجائه الموجه ، جعثن ، أخت الفرزدق . فقد انتهاز فرصة تعرض همران بن مرة
المنقري ، لها في الطريق - انتقاما من الفرزدق - فادعى ادعاء بارتكابها
الفاحشة ورماها بها في جل قصائده الهجائية ونقائضه :

وجعثن حين أسهل ناطقهاها عفرتم نيم جعثن في التراب
فشدى من صلاك على الردافي ولا تدعى فإنك إن تجسأني
ف- او كلوم جعثن إن- سعدا ذوو عادية ولهى رغب ا
ويربط بين جعثن ، والحبى ، كما تعود دائما أن يربط ويمزج بين
السوءات أو النقائص مقابلا بينها :

نسيتم عقر جعثن واحتبيتم ألا تبأ لغفرك بالحبات ا
وقد همت مواقع ركبتيها من التبرك ليس من الصلاة ا
تبيت الليل تسلق اسكتهاها كدأب الترك تلعب بالكرات
وحط المنقري بها فقرت على أم القفا ، والليل عات ا
فهذا تصوير مجسم للخافذة المزعومة حتى يخيل للناس أنها وقعت حقا ،
ويزيه من واقعيتها إجراء الكلام على لسانها مستغنية فيقول :

تفاوى غالبا وبني عقبال لقد أخزيت قومك في النداء
تدلى بآبن مرة - قد علمش تدلى ، وهو ينهز باللهالة ا
فهو يبالغ في نكاحها حتى يجعل ركبتيها تدمى ، وتسلق اسكتهاها فيشبهها
تشبها ساخرا بكرة يتلفها الترك - وهم الذين يكرههم العرب ويسخرون
بهم دائما - ويلعبون بها ، وهذا زيادة في احتقارها ، وهنا يزيد في المبالغة
فيصور الحركة بكلمة د حط ، وتبلغ السخرية مقتهها بإضافة العتو ، ليل ،
كأنه حمل شدة المنقري بها على الليل أيضا ، فهو من قبيل تماوج الأضواء

والألوان وتأثير أحدها في الآخر ، فأراد جعله بهيما شديد السواد ففعله بالعتو : ومن الغريب أنه لا يذكر الفاعل بعد (تساق) فيستعمل للمبنى المجهول كأنه لا يعرف من الذى فعل بها الفاحشة ، فكأنهم كثر لا يستطيع إحصاء عددهم ، فبنى الفعل (تساق) للمجهول ، وهذا زيادة في مجرته بهجائها ، وكذلك فقد صرر حركة رفعها والانخفاض بها تصويرا واقعيا لا بكلمة (حط) فحسب ، بل بالفعل (ينهز) من (نهز الدلو) ، فهو دائما أبدا مدلى أنا مصعد به أنا آخر في حركة دائبة .

وكذلك يسخر سخرية لاذعة حينما يشبه (جس ابن مرة فرجها) بجس الطيب ، فهو يترفق بها كأنما يعالجها ، مع اختلاف العلاج في كلا الحالين ، فالأولى يعالج فيها من داء خارجى ماضى ، والآخرى من داء داخلى ألا وهو الشهوة .

غمز ابن مرة يافرزق كينها غمز الطيب نغانغ المعذور
ولعل في استعماله للفعل (غمز) خبثا ودهاء يدلان على براعة في استعمال الألفاظ ، وكذلك نداؤه الفرزدق في وسط العبارة فيه تنبيه وغمز وسخرية عنيفة ، وهذه أمثلة أخرى لا تحفى فيها السخرية من الكلمات (حط) و (تنشاب) :

وجعثن حط بها المنقرى كرجع يد الفالج الأحره
تنشاب من طول ما أبركت تناوب ذى الرقية الأدره

ويسخر منه لما تغزل ، فيلومه أن لم يثار بينت العظماء : (بنت القيون) :

فبلا ثارت بينت القيون وتترك شوقا إلى (مهدد)
وهلا ثارت بحل النطاق ودق الخلاخل والمعضد ١٩

ويضحك ساخراً حينما يشبه الزكاح ، بالطعن ، ثم يبالغ ، فيزعم أنها
جرحت ودعا لها الطبيب ، ولكن بعد فوات الوقت :

طعنت بأير مقاعسى مخلص فأصيب عرق عجانها النعار
باتت .. تكلف ما علمت . ولم تمكن عون تكلفه ولا أبكار

دعى الطبيب - طبيب جعثن - بعدما

عصت للعروق وأدبر المسبار

شبهت شعرتها إذا ما أبركت أذنى أزب يفره السمسار !

أما السخرية العنيفة في تشبيهه شعرتها في البيت الأخير يحسبها بعناية كما
يفعل السمسار الذى يدقق النظر واللس ، ويطيل ويبالغ في الفحص ،
فهى في غنى عن التعليق .

ويطعن الفرزدق طعنة نجلاء حين يتباله ، فيتنخيل ويزعم أن ثمة حوارا
دار بينه وبين أخته يسألها - إمعانا في الواقعية - من الذى أصابها ؟ أبن مرة
أم صحار ؟ ثم يرد هو قائلاً : ليس لها أن تتكلم ، لأن عجانها ناطق وشاهد
بأن كليهما في الحقيقة هما اللذان تداولاها :

قال الفرزدق هل أصابك فى السرى

عمرو بن مرة أو لقيت صحارا

وسألت جعثن من أصابك منهم وعجان جعثن يخبر الأخبارا

ثم يتهم بغالب ، ويزعم أن الحسرة أخذت منه كل مأخذ :

رأى غالب آثار فيشل منقر فما زال منها غالب بعد مهترا

بكى غالب || لما رأى نطفها من الذل إذ ألقى على النار أبصرا

ولما استغاثت جعثن - ولم نجد مغيثا - دافعتهم ... باستها !

وهذا أنكى وأمر !

نبئت جعثن دافعتهم باستها إذ لم تجد لجاشع من يدفع
قال الفرزدق - وابن مرة جامح -

كيف الحياة ؟ وفيك هذا أجمع ؟

والسخرية تنبع من كلمة « وفيك هذا أجمع » كما قال :

لم تلق جعثن حاميا يحمى استها وبخلجم زبد المشافر تنقى
وقال :

وجدوا الجعثن - حين قبقت استها - مثل الوجار أوى إليه الأضلع
هدموا وجارك بعد ما خبرتهم ألا تكاد تجوز فيه الإصبع
يبكى الفرزدق - والدماء على استها - قبحا لملك غروب عين تدمع
وينطقها أيضا فتقول :

وتقول جعثن - وابن مرة جامح - خليجا ، رويدا ، قد نزع طحالى
وقد كرر « جامح » كثيرا وهذه اللفظة دلالتها العنيفة المضحكة .
وأخيرا ... يتهم بالفرزدق جامعا بين عنفقتة واسكتيها :

ترى برصا بأسفل اسكتيها كعنفة الفرزدق حين شابا
ويتهم عابثا « بسكينة » عمة الفرزدق :

ودت سكينه أن مسجد قومها كانت سواريه أيور بغال
ويجمع بين « سبال » الفرزدق ، وشرار القين ، ولوع أمه بالقين :
يظل القين - بعد نكاح ليلى - يطير على سبالكم الشرارا
ليلى التي زفرت وقالت حبذا عرق الفياضة من خبير يتبع
قفيرة أم القين يثمر بظرها مرارا ، إذا ما رفج الصيف أثمرا
تسوف صنان القين - من ربه به - ليجعل في ثقب المحالة محورا

هجماء جرير الفرزدق نفسه وسخريته به :

نراه كثيرا ما يستخدم المقابلة الغريبة :

وجد الفرزدق في مساعي دارم قصرا - إذا افتخروا - وطول أيور
ويطعنه في أخلاقه ، فيصور قلة دينه وفجوره حتى يقول هازئا :
فإنك لو تعطى الفرزق درهما على دين نصرانية لتنصرا
منحت الجار أيرك - وهو أعمى - وبئس منيحة الزمن المحيل
تدليت تزي من ثمانين قامة وقصرت عن باع العلى والمسكرام
وكما قلنا - من قبل - إنه يربط بين المخازى أو السوءات التى يعيرها بها ،
فهو هنا أيضا يربط حادثة ، نبو السيف ، ولوجه الماخور ، عادلا عن خطته
الأولى من تقييد نفسه لحفظ القرآن الكريم في مطلع شبابه :
لحى الله من يذبر الحسام بكفه ومن يلج الماخور في الحجل يرسف
وقائلة ما للفرزدق لا يرى على السن يستغنى ولا يتعفف
وما أطفه حينما يشكم به ، فيجمع بين ربطه نفسه بالحجل وعدم ربطه
(حذراء) بالأغلال ، ففرت بذلك منه :
وقد بات مغترا بمذراء قينكم ونام ، ولم يجعل على قيدها قفلا
ومن ناحية هجائه الخلقى ، فإن الفرزدق - لكونه قصيرا قبيح الوجه -
فقد شبهه كثيرا بالقرد :
وهل كان الفرزدق غير قرد أصابته الصواعق فاستدارا ؟
وبما يتصل بهذا الهجاء الخلقى الذى يصور الشخص تصويرا كاريكاتوريا
مضحكا سخرية جرير - بالحمة طان - وكان أسود ، وقد رآه جرير يوم عيد
في قبض أبيض :

كما أنه - لما بدا للناس -
أير حمار لف في قرطاس^(١)

وكذلك هجا جرير الأخطل ساخرا ، وأكثر ما استغله في سخريته
 « نصرانيته ، ذات السمات الغريبة عن الدين الإسلامي ، فزجها ببعضها ببعض
 بالناحية النسائية التي يغيظ خصمه ذكرها ، والتي يبرع في تناولها البراعة كلها .
 وأول عنصر نلاحظه في سخريته : « التصغير ، في مخاطبه دائما بالأخيهطل
 ويتحدث عن نسوته « نسمة تغلب ، والعنصر الثاني هو سمات الدين النصراني
 التي منها إباحة الخنزير لهم فيقول مثلا :
 الضاحكين إلى الخنزير شهوته يا قبيحت تلك أفواها إذا اكنثروا
 ويقول :

أتزعم ذا المناخر كان سبطا يهوديا ، ونزعمه أبابكا ؟
 ويقرن « الصليب ، بأعضاء نسايم في سخرية أليمة مجسمة ، فيقول :
 قاتغلبية - والصليب على استها - رجس موقعة العجان ذلول
 ويربط بين نسايم وبين « القس ، والخنزير والصلب في عبث مضحك
 فيقول :

إذا ما القس نادمن يوما على الخنزير ، وإن كشف القدم (١)
 بدأن شواءن بخصيته وهن إلى جحافله قرام !
 ويقابل - كعادته - بين شيء داخلي يقبح ذكره ، وبين شيء خارجي ،
 فيقول :

والتغلبية في ثني عبايتها بظر طويل ، وفي باع ابنها قصر
 كما قال للفرزدق من قبل :
 وجد الفرزدق في مساعي دارم قصر إذا افتخروا ، وطول أيور
 وللأعور النبهاني :

أست لنبهانية طال بظرها وباع ابنها عند الفخار قصير
 وأعور من نهبان أما نهاره فأعمى ، وأما ليله فبصير !

(١) القدم : شيء - تشده المعجم والمجوس على أفواها عند السقي ، والمصفاة
 فوق الإبريق .

ويجمع جرير بين القس ، والدير ، والخنزير ، والصليب ، والعباءة ، في
سخرية وعبت لاذعين :

قل الأخيطل لم تبلغ موازنتي فاجعل لأملك أير القس ميزانا
يا خزر تغلب ما بال نسوتكم لا يستحقن إلى الديرين تحنانا
ويصفهن ضاحكا وقد سكرن :
لما روين على الخنزير من سكر نادين : يا أعظم القسين جردانا
هل تتركن إلى القسين حجتكم ومسحكم صلبهم رحمان قربانا ؟
ويستخدم التشبيه أيضا في سخرية صارخة فجأة :
تلقى بنى تغلب زبا مناخرهم كأن أنافهم بالموصل السكر
وقال :

هم جردوا للتغليبين نسوة كأن معراهن أفواه أكاب
ويصور الغم :
تفتر عن قرد المنابت لطلط^(١) مثل العجان ، وضرسها كالحافر
ويقول :

شبهت أرآد لحبيها إذا سكرت خصي حمار مذك عند بيطار
وأخيرا نذكر له قوله :
تسوف التغلبية وهي سكرى قفا الخنزير نحسبه غزالا
وقوله :

إذا شربت بالليل قسطين أصبحت شبيها بمجردان الحمار وريدها
وهكذا نرى جريرا قد شق لنفسه طريقا معلميا في عالم الهجاء الساخر ، ذلك
الأسلوب الرفيع الذي يشفي المتفنن أو الفنان مما به من غيظ مكبوت بلذع
أشبه بالسم القاتل الذي يسرى في جسم الفريسة من غير ماضجة ولا ضوضاء
وقد ساعده على التفوق في السخرية خيال خصب ، استطاع أن يكونه من
(١) القرد : السكثير القردان ، جمع قرد : وهي دويبة . والطلط : الغليظ
الأسنان .

أربعة عيوب - تلك التي فطن إليها ابن الأثير في المثل السائر - استطاع بعد مزجها بعضها ببعض أن يكون منها الصور العديدة المضحكة ، وبهذا فطن إلى إحدى صور السخرية ذات الأثر الرائع وهي التي أسماها برجسون «تداخل السلاسل ، وما زلت أقف أمام خيال جرير متعجباً من اقتناص شوارده ، ذلك الخيال الذي يمل عليه مثل هذا البيت :

ودت سكينه أن مسجد قومها كانت سواريه أيور بغال ١

أو تشبيهه «الحقنطان ، هذا التشبيه المضحك :

كانه لما بدا للناس

أير حمار لف في قرطاس

ولقد فطن جرير إلى مقدرته على السخرية ، فيروى أنه كان يقول :
إذا هجوت فاضحك^(١) . ولقد طارت شهرته حتى قال أبو الشبل في قبنة هددته
بالهجاء تسمى خنساء :

خنساء ، قد أفرطت علينا وليس منها لنا مجير

تأهت بأشعارها علينا كأنما ... جرير^(٢)

وأخيراً فإن سخرية جرير قد شابها أحياناً العنف الصارخ والانتجاع إلى الصور الجنسية مما يقف حائلاً أمام أدبه إذا أردنا عرضه وتحليله لاستمتاع الناس به ، وما زلت أقول صادقاً إن جريراً من أكبر الساخرين في الأدب العربي بل في الآداب العالمية ، ولولا ما شابهه سخريته من صور وألفاظ جنسية لترجمت إلى كثير من لغات العالم .

(١) العقد للفريد (طبعة ١٩١٣ م) ٣ / ٣٩٨ .

(٢) نهاية الأرب ٤ / ٨١ .

السخرية في العصر العباسي:

كان للحضارة الأجنبية من فارسية وهندية وسريانية وغيرها تأثير كبير في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في هذا العصر ، وكان للأدب - مرآة الحياة في شتى وجوها - نصيب كبير من التطور : فسرى فيه تيار جديد شمل الأسلوب والموضوعات ، وكان لرق العقلية العربية وازدياد نموها الثقافي واحتكاكها الاجتماعي أثر في تطور السخرية وشموعها ، وبخاصة في ذلك المجتمع الذي انتشر فيه الترف ورغد العيش وشاعت فيه الفكاهة والظرف ، فلا غرابة أن يظهر العديد من الشعراء والكتاب الذين يتسم أدبهم بالسخرية : كبشار بن برد ، وأبي نواس ، وحماد عجرد ، وعبد الصمد بن المعذل ، ومنصور الأصفهاني ، والعتبي ، والحدوني وابن الرومي وابن سكرة وغيرهم كثيرون .

أما الكتاب فكان منهم الجاحظ وأبو العيناء وبديع الزمان الهمداني وأبو العلاء المعري وغيرهم . وكان هناك أيضا الشعراء المجان الذين خاطوا سخريتهم بالمجون إذ كان غالبا عليهم ومنهم أبو العبر ، وأبو غلاله المخزومي الذي اشتهر برثاء حمارة طياب ، وأبو حكيمة الذي اشتهر برثاء متاعه ، ووهب الذي شهر بضرطته .

وقد مالت السخرية في هذا العصر إلى الأسلوب البعيد عن الجزالة والرصانة ، أسلوب قريب مما يلجج به الناس في أحاديثهم ، ولذلك يمكن أن نطلق عليه «الأسلوب الشعبي البسيط» ، سواء في المعاني أو الالفاظ أو الصياغة ، كقول دعبيل يسخر من إبراهيم بن المهدي حينما يبيع بالخلافة أيام الفتنة بين الأمين والمأمون :

يامعشر الأعراب لا تقنطروا خذوا عطاياكم ولا تسخطوا
فسوف يعطيكم حنينية يلتذها الأمرد والأشبط

والمعبديات اقوادكم لا تدخل الكيس ولا تربط
وهكذا يرزق أصحابه خائفة مصحفه البربط
وشملت سخرية الشعراء التنفيد والهزم بمن تدور حوله الشكوك في
أصله العربي كقول بشار في أبي عمرو بن العلاء :
أرفق بعمرو إذا حركت نسبته فإنه عربي من قوارير
وقول أبي نواس في الهيثم بن عدي :
الحمد لله هذا أعجب العجيب الهيثم بن عدي صار في العرب
كأنني بك فوق الجسر منتصباً على جواد قريب منك في الحسب
وتشمل السخرية أيضاً ملامح الوجه وغيرها من أعضاء الجسم ، كقول
منصور الأصفهاني :

وجه المغيرة كاه أنف موف عليه كأنه سقف (١)
رجل كوجه البغل تبهره من أجل ذاك أمامه خلف
حصن له من كل ناحية وهي بنيه بعده وقف
وقال بشار في ثقيف :

ربما يثقل المجلس وإن كان ن خفيفاً في كفة الميزان
كيف لا تحمل الأمانة أرض حلت فوقها أبا سفيان
ويتهكم حماد عجرد بعمرى بشار ، فيقول في أسلوب قصصى ساخر (٢) :
إن ابن برد رأى رؤيا فأولها بلا مشورة إنسان ولا أثر
رأى العمى نعمة لله سابقة عليه إذ كان مكفوفاً عن النظر

(١) طبقات الشعراء لابن المميز ص ٣٤٩ .

(٢) الحيران للجاحظ ٢٤١/١

وقال : لو لم أكن أعمى لكنت كما قد كان «برد» أبى فى الضيق والعسر
أكد نفسى بالتطمين مجتهدا إما أجيرا وإما غير مؤتمرا
أو كنت إن أنا لم أقنع بفعل أبى قصاب شاء شقى الجد أو بقر
كإخوتى دائبا أشقى شقاءهم فى الحر والبرد والإدلاج والبكر
فقد كفانى العمى عن كل مكسبة والرزق يأتى بأسباب من القدر

وشملت السخرية الظواهر الاجتماعية ومنها «التطفيل» فن أصداء ذلك
قصيدة عبد الصمد بن المعذل فى رثاء طفيلي مات وقد غص بلقمة ساخنة
من فالودج^(١) :

أحزان نفسى عليه غير منصرمه وأدمعى من جفرتى الدهر منسجمه
على صديق ومولى لى فجعت به ما إن له فى جميع الصالحين لمه
كم كفنة مثل جوف الحوض مترعة كوما جاد بها طبائخها رذمه
قد كالتها^٢ شحوم من قليتها ومن سنام جزور عبطة سنمه
غيبت عنها فلم تعرف لها خيرا لهنى عليك وويلى يا أباسله
ولو تكون لها حياء لما بعدت يوما عليك ولو فى جاحم طعمه
قد كنت أعلم أن الآكل يقتله لكننى كنت أخشى ذاك من نخمه

وسوف أتناول بالدراسة بعض السآخرين الذين اكتملت شخصيتهم
الساخرة ، ووصلنا من أدبهم ما نستطيع أن نلقى به ضوءا على تراثهم السآخر،
وقد وددت أن أضيف إلى عقد دراستى ساخرا من أكبر السآخرين ، ألا وهو
ابن الرومى ، ولكن ديوانه لما يكتمل تحقيقه بعد ، ولذلك أرجأت الاقتفاء
من دراسته إلى طبعة أخرى إن شاء الله.

٣ - ابن المقفع :

وهما هي شخصية من الشخصيات المتارة الساخرة : تطالعنا في أوائل العصر العباسي، وكان للبيئة من جهة، ولما امتازت به من خصال شخصية مميزة فذة من جهة أخرى، أكبر الأثر في طبعها بطابع فريد نستطيع أن ندلحه بوضوح في قلماتها .

إنها شخصية ابن المقفع الذي كان يسمى - كما يقول ابن النديم^(١) - روزبه ومعناه المبارك ولم تعرف السنة التي ولد فيها ، ولم يتفق المؤرخون على السنة التي قتل فيها ، إذ يحصرونها بين سنتي ١٤٢ ، ١٤٥ هـ ، ويحدد الدكتور عبد اللطيف حمزة مولده بين سنتي ١٠٦ ، ١٠٧ هـ وقد عاش بفارس ، حيث لادته بيتها التي كان يميل إليها بطبعه وجرهه كل الميل ، وتشيع بالروح الفارسي والثقافة الفارسية . لذلك فن الطبعي أن ينتحل نخلة المجوس .

ولم يعرف المؤرخون الكثير عن حياته الأولى ، بل معظمها غامض ، غير أنهم يقولون إنه انتقل إلى البصرة التي كانت في ذلك الوقت إحدى العواصم الكبرى التي كان يهفو إليها من تسمو أنفسهم إلى العالي ، وهناك عاش مولى لآل الأهم ، فأخذ عنهم الفصاحة ، واستطاع عن طريقهم أن يتصل بأمراء العرب والأعراب ، وكان كثيرا ما يستمع إليهم ، ويأخذ عنهم العربية الصحيحة .

ولم يلبث قليلا حتى عرف ذكاؤه وقوة قلبه ، وحسن كتابته ، فاتجه إليه الولاة والأمراء يطالبون إليه أن يكتب لهم في دواوينهم ، ويتقلد عندهم بعض الوظائف التي كان يشغلها أمثاله من الموالي في ذلك الوقت ، وقد ذكر د. حمزة أن يزيد بن عمر بن هبيرة (١٢٧ - ١٢٢ هـ) ربما كان من الأمراء الذين كتب لهم ابن المقفع ، وبذلك يمكن أن يكون هذا الوالي وصلة لابن المقفع لأن يطلع على كثير من أمرار الدولة الأموية الرائلة التي كان نجمها إذ ذاك آخذا في الانقراض .

وبعد موت يزيد ، قيل : إن ابن المقفع كان يكتب لأخيه داود بن عمر ابن هبيرة . وقال الجهشيارى إنه كتب أيضاً للمسيح الخويزدى وإلى سابور قبل سفيان بن معاوية ، وقد يكون المسيح الخويزدى هو الذى سلب ابن المقفع على سفيان بن معاوية ، حتى استطاع المسيح فى نهاية الأمر أن يهزم سفيان بعد أن أوغر صدره من ابن المقفع^(١).

انضمامه إلى العباسيين وإسلامه :

ولما انقضت الدولة الأموية ، وجاءت على أثرها الدولة العباسية ، أخذ يبتغى للوسيلة للاتصال برؤوسها ، حتى تمكن أخيراً من الكتابة لأعمام المنصور : فكتب إبيسى بن على وإلى الإهواز ، ولزم بعض بنى أخيه إسماعيل ، يؤدبهم ويشتغل بتعليمهم وتهذيبهم ، ثم اشتغل كاتباً لأخيهما سليمان . ولما سمع صبياً يقرأ القرآن ، أخذته روعته ، فذهب إلى عيسى بن على ليسلم فأسلم .

موقفه السياسى :

كان الموالى من الفرس يقصدون بدعوتهم العلويين ، فلما لم ينجحوا فى إيصال الخلافة إليهم ، وكانت من نصيب العباسيين ، أحبوا أن يصلحوا خطابهم ، ويظهروا الميل إلى العباسيين ، ولكن هؤلاء لم يخف عليهم أمر الموالى ولا أمر زعيمهم أبى سلة الخلال بنوع خاص ، وفكروا لذلك فى القضاء عليه وعلى الرجل الآخر وهو أبو مسلم الخراسانى ، فأغروا كلا من الرجلين بالآخر حتى قُضيا . ولذلك لم يكن الموالى من الفرس يميلون إلى العباسيين ، ولم يكن ابن المقفع عباسى الهوى أو كان عربى الميل ، ولكنه كان علوى السياسة فارسى النزعة ، فهو على الأقل كان لا يحب العباسيين ، ولا يشعر قلبه مودة خالصة لهم ولا لخلفائهم .

إذن كان ابن المقفع من أعداء الدولة العباسية ، ومن المتظاهرين فى

(١) الجهشيارى : الوزراء والمكتتاب ص ٥٥ .

الوقت نفسه بصدقتها ، وربما أنه اكتسب الخلق السيئ الأخير من دراسته
لتاريخ الفرس^(١) . ويظهر أن الخليفة المنصور كان يفهم ذلك عنه ، فلم
يستخدمه للكتابة له ، بل كان له يد طولى في قتله كما كانت له في قتل غيره من
علاء الفرس كآبى سلة الخلال وآبى مسلم الخراساني أو الزعماء المناوئين له
مصرعه : ~~مصرعه العلويين .~~

يذكر المؤرخون في مصرعه عدة أسباب ، بعضهم مباشر ، فما يذكرون في ذلك : حقد المنصور عليه ، لأنه هو الذي كتب
الآمان ، الذي كلفه بكتابته أعوام الخليفة المنصور لأخيهما الشائر عليه
عبد الله بن علي ، ويقال إن ابن المقفع كتب الآمان وبالغ في احتراسه من
كل تأويل يقع عليه فيه ، بل أمرف في تركيد الآمان ، فلم يتهماً لآبى جعفر إيقاع
حيلة فيه لقرط احتياط ابن المقفع ، فامتلاً قلب الخليفة غيظاً وخفيظة على
كاتب الآمان فقال : فإحد يكفنيه ؟

أما السبب الآخر المباشر في قتل ابن المقفع فهو شدة نقمة سفيان المهلبى
عليه لأشياء كثيرة : منها قصة المسيح الخويلدى الذى قيل إن ابن المقفع كان
يكتب له قبل مجىء سفيان بن معاوية ، وهو الذى أوغر صدره على ابن المقفع
حين أخذ هذا جانب المسيح ضده ، ومن أسباب غضب هذا الوالى أيضاً :
احتقار ابن المقفع له ، ذلك الاحتقار الذى يظهر في سخريته به بسخرية قاتلة ،
أرثت العداوة في قلبه حتى جعلته يودى به . وقد قتل ابن المقفع غيلة وغدراً ،
وتذكر في ذلك روايات أشبه بالأساطير ، والغلبة عظيم في رواية مقتل
عبد الله بن علي حين أقدمه أخواه - بعد أن أمته الخليفة - وبين الرواية التى
تروى في مصرع ابن المقفع ، ومن الأسباب التى تعزى في مقتل ابن المقفع

(١) ابن المقفع لعبد الطيف حمزة ص ٦٤ .

وميه بالزندقة، وشهرته بهذه الصفة، ويمكن أن تكون السبب الأقوى الذي
تذرع به الخليفة في قتله كما قتل غيره بها في عهد العباسيين وبخاصة المهدي
وأل من أسباب قتله أيضا : أنه رجل فارسى ، يعمد - لحنقه وغيظه - إلى
السخرية من العرب ، وهو في الوقت نفسه لا ينسى أن يذيع في الناس شيئا
من أخبار أجداده الفرس ودياتهم ، وهو لهذه الأسباب كان رجلا
كثير الأعداء ، ولا بد لهؤلاء جميعا أن يكون سبب الذي قتل الرجل :
التي يلصق بها به من جهة ثورة ، من جهة إلى المنصور ، وهى
الصحابة ، وفيها تشريع جديد من عمل الكتاب يقترحه على الخليفة
ليعمل به في أمور شتى ، كان أهمها أمر القضاء الذى كثرت فيه الأقوال ،
وأصبحت بسببه الدماء مباحة مرة وكان من حقها أن تعقن ومحرمه أخرى
وقد كان من حقها أن تهدر ... إلى غير ذلك من المقترحات المطيرة التى تتصل
بحاشية المنصور وعماله المقرين إليه الذين طعن فيهم من طريق غير مباشر ،
فكانت تلك المقترحات بمثابة ثورة عظيمة قام بها الكتاب ضد النظم القائمة ،
ووجه فيها الكلام إلى هذا الخليفة الطاغية .

وأخيراً ، يضيف الدكتور حمزة - إلى كل ماسبق من أسباب في قتله -
 ترجمته كريمة ودمته ، وما أخفى في ثنياه من تعريض بالمنصور ، وبما اشتهر
 عنه من جور ووجه سفك الدماء .

ابن المقفع المفكر :

كان ابن المقفع صاحب عقاية كيرة ، أبت إلا التفكير المستمر ، وتبسيط
أضواء الفكر على كل ما حوله من نظم سياسية واجتماعية وغيرها ، فوجدها
أمام منظاره المكبر مليئة بالأخطاء ، فحاول نقدها ، ورسم الطريق الصحيح
الذي يجب أن يسير فيه المصلحون أو من يدعون أنهم يحبون الإصلاح

كالخليفة والولاء ، ولم يفتأ يذيع آراءه مجاهرة مرة ، وبينه وبين من يظن فيهم الولاء له مرة أخرى ، وتليها مرة ثالثة ، وتعريضا مرة أخرى وهكذا... ، وليس من السهل أن تقبل الطبيعة البشرية النقد بسهولة أو بصدور رجب ، فإياك بالخليفة ، ذلك العربي القح الذي تعود السيطرة وعدم الإذعان لمن هو أقل منه ، وبخاصة إذا كان هذا الناقد يشتهر بقلة الدين أو الزندقة ، وأنه فارسي ينتمى إلى العنصر الذي ناول العرب منذ القدم ، والذي يحاول أن يحول دفة الحكم من العباسيين إلى العلويين ، أو بالأحرى من العرب إلى الفرس . كل هذا وذلك كان السبب في عظمة الكاتب من جهة ، وكان السبب في مصرعه من جهة أخرى .

أخلاقه :

إذا كانت الشخصية الإنسانية تتأثر كل التأثر بما على البيئة والوراثة فقد تأثر ابن المقفع بتلك الصفات الخاصة المميزة للشعب الفارسي من ناحية الجنس ، أما من ناحية الآباء والاجداد ، فلم يذكر المؤرخون عنهم شيئا حتى نستطيع أن نقرن بين أخلاقه وما أثر عنهم ، ونمزج بين هذه وتلك ، فستمكن من استنباط شيء من صفاته يميزه بعض التميز أو كل التميز في ناحية أو أكثر من نواحي حياته أو شخصيته .

أما من ناحية عصره ، فقد كان عصر انتقال من الدولة الأموية العربية إلى الدولة العباسية الفارسية ، وتمتاز عصور الانتقال عادة بأنها عصور التمرد والمجاعة والشك ، وبأنها عصور النشاط والحركة وحرية الفكر وتناول كل شيء بالنقد^(١) ولذلك طبع ابن المقفع بطابع عصره ، من ميل إلى الإنقاذ فكره في كل ماحوله ، وحرية تجعله يبدي رأيه في كل ماتفع عليه عيناه ،

(١) ابن المقفع للدكتور حمزة ١١٢ .

إلى عين نافذة لا تكاد ترى عيباً إلا تنبهت له ، ومن ثم أرادت أن تنجز به
وتتلقه . وبما ساعد ابن المقفع على ذلك طبيعة عقله التي تنزع أبداً إلى
المثل الأعلى وأصدق مثال على ذلك كتابه « الأدب الكبير » ، وطبعه عصره
بطلب الحذر والأخذ بالثقة ، لكثرة ما سفك في أيامه من دماء على يد
أبن مسلم من جهة ، والخليفة العاقب من جهة أخرى .

وأدى به عقله الشاك وعصره المضطرب إلى الحيرة التي كانت تقسو عليه
في كثير من الأحيان ، حتى اضطرب بين عدة ديانات هي المزدكية والإسلام
والمناوية . وقد انتشرت في الأقاليم التي تسفل بينها وذاعت في العصر الذي عاش
فيه ، وكان كثير الشكوك الدينية ، وقد ظهر أثر ذلك فيما كان يفلسف من
حديث كان يدور بينه وبين أصدقائه ونظرائه عن كان يختلف إليهم بالبصرة
ويختلفون إليه بها : كطبيع بن إلياس ، ووالبة بن الحباب ، وحمام عجرد ،
وبشار بن برد ، وأبان اللاحقي وغيرهم ، وما يدل على شكه فاختم به
باب « بعثة برزويه » الذي كتبه في أول كاية ودمته ، إذ قال : « فصار أمري
إلى الرضا بحالي وإصلاح ما استطعت من عملي لمعادي ، لعل أصادف فيما
أمامي زماناً فيه دليل على هداي ، وسلطان على نفسي ، وأعوان على أمري »

وقد ظهرت تلك الحيرة وذلك الشك في ذلك الباب الذي صدر به كاية
ودمته ، وحاول به إخفاء شكوكه الدينية بعبارات إسلامية يرضى بها
الرأي العام ، إذ قال على لسان برزويه : « فلما ذهبت ألتمس العذر لنفسي في
لزوم دين الآباء والأجداد ، لم أجد لها على الثبوت على دين الآباء طاقة ،
بل وجدتني تريد أن تتفرغ للبحث عن الأديان والمسألة عنها ، والنظر فيها »
ثم أخذ الكاتب بعد ذلك يسوق الأمثلة الكثيرة لكل حالة من حالات
العقل عندما يكون واقفاً تحت تأثير هذه الشكوك الدينية المجردة ، وما يؤدي
هذه الشكوك نفسها ذلك الكتاب الذي نسب إليه ، ورد عليه . فيما بعد -

القاسم بن إبراهيم بكتاب غوائه ، الرد على الزنديق اللعين ابن الملقع عليه
لعنة الله آمين ، وذكر في أوله : « حكم فيه لنفسه بكل زور وبهتان ، فقال
من عيب المرسلين ، واقرى الكذب على رب العالمين » .
ويقول بعض الكتاب إنه كان إلى جاب ذلك ينسب بشيء من الظرف
والمجانة يجعله يجلس ويصادق بعضا من طرفاء عصره ، في مجلس الشراب ،
وكان سرىبا سخيا يطعم الطعام ويتشبع على كل من احتاج إليه ، وكان يميل
- بطبيعته الفارسية - إلى المجون واللغو إذ ذكره أبو الفرج الاصفهاني ضمن
جماعة يجتمعون على الشراب وقول الشعر ، ولا يكادون يفترون ، ويهجو
بعضهم بعضا هزلا وعمدا وكلهم متهم في دينه ^(١) .

(١) غ ١٣ / ١٣٢ : ولقي لأعجب من صاحب هذه الشخصية الى تبدو في
ما أثر عنها من مؤلفات حكيمة بمنعة في الحكمة ، مثناة تكاد تكون قاسية في
انهاؤها ، ثم بروى عنه أنه كان يجلس في بعض الاحيان مجالس لا يجلسها إلا
الجان الذين تختلف أحاديثهم ومجالسهم عن الحكماء الفلاسفة أمثال ابن المقفع :
وقد يرد على ذلك بأنه لا غضاضة في أن يروح الفيلسوف عن نفسه بعض
الترويح بالجلوس إلى أهل الظرف والمجانة ، فإن لم يظرق معهم جميع الأبواب
التي يظرقونها ، فلا أقل من أن ينعم بالانس إلى جانبهم وبخاصة أنهم كانوا
يشتركون معه في ناحية عقلية واحدة هي الشك في الإسلام أو الأخذ بمذاهب
الزنادقة وغيرهم ممن كانوا على أديان الفرس المترارثة . ولكن مهما يكن من أمره
فإن شخصية ابن المقفع في مهتزة مخيلتي لدرجة أنني لا أستطيع - بمؤلفاتنا وبما فروا
عنده - أن أحيط بصورته إحاطة تامة كما ينبغي ، أو أن أرسم له صورة أطمئن إليها
كل اللابطة ثنان ، ولعل مبرر ذلك إلى عدم اجترأ أهل عصره - سياسيا أو دينيا
أو كليهما - على الكتابة عنه بشيء من الحرية اللازمة ، أو عدم وصول أخبار
كاملة عنه نستطيع بها أن نكون ما نريد من إظهار قوى واضح .
ويصل جعل المؤرخين به وعدم اجترأهم على الكلام عنه إلى حد أن كتابا
واحدًا من كتب التاريخ التي اهتمت بتدوين الحوادث على حسب الشئخ لم تذكر
حتى سنة وطاقه ، مع ماله من جليل القدر والمهولة في الكتابة وذلك بمرأته بمن هم
أقل منه شأنا والذين ذكرت سنة وفاتهم .

وكان يميزه شيء من خفة الروح . وإيل إلى المرح والدعابة ، ولكن المؤرخين لم يرووا الكثير عن هذا الجانب من حياته : إما لأنه كان يترفع عن التبذل أمام الناس ، وإما لأنه لم يعش طويلا ، ولم يجرؤ أحد من عصره على كتابة أخباره لما ذاع عنه من زندقته .

على أن أظهر خصلة بلورت أخلاقه كلها وطباعه هي روح السخرية التي سبها إحساسه وشعوره بالكراهية للعرب الذين أدالوا دولة الفرس وسيطروا على بلاده تمام السيطرة ، ومعاملتهم إياهم موالى فلا يفتأون يشعرون بالذلة والانهانة وبخاصة في الدولة الأموية . وقد روى ابن عبد ربه . والبرد كثير من الأخبار التي تدل على عظيم احتقار العرب للفرس ، هذا إلى جانب شعوره بالميزات العقلية والفنية التي وهبها الله لإياها ، وإلى أنه لم ينل ما كانت تصبو إليه نفسه ويطمح إليه من مناصب عالية في الدولة الجديدة التي انتزعت عن كانوا أحق بها في نظره ألا وهم العلويين هؤلاء الذين كان من المحتمل أن يرفعوه إلى المقام الذي كان يأمل أن يصل إليه لو نجح الثائرون الذين كتب لهم من قبل - وهم أعمام المنصور - في إدالة دولة العباسيين والظفر بالحكم .

كل هذا - ولا شك - ولد السخرية في نفسه ، تلك السخرية التي كانت تختفي أحيانا في أعماقه ، وتطل برأسها في كتابته ، وكانت أحيانا أخرى تظهر على لسانه حينما كان يعيب بعض الناس . ولعل أكبر هدف مدد إليه سهامه اثنان : أحد الحكام في عصره وهو سفيان بن معاوية ، والهدف الثاني الذي استهدف لسخريته تلك الأمة التي كان يتعالى عليها ويحتقرها في قرارة نفسه ، وبخاصة كلما قارن بين ماضيها وماضي أمته .

أما سفيان بن معاوية بن يزيد المهلبى : فلم يورد المؤرخون عنه الكثير ، وكل ما نستطيع أن نورد هنا : هو أنه قد حقد على ابن المقفع ، لانهصاله بعده وسلفه المسيح الخويلدى الذي كتب له ابن المقفع قبل أن يخلفه معاوية على ولاية سابور ، فانضم ابن المقفع إلى المسيح . وكان هذا الذي أوفر

صدره على ابن المقفع ، وبما أغضبه أيضا سخرية الكاتب به . فإذا أجاب ، قال له :
ابن المقفع كان يسأل سفيان عن يومنا لسفيان : ما تقول في شخص مات
أخطأت بمؤزوجة ؟ أراد بذلك أن يسخر منه على مسمع من الناس
ومرأى . وقال سفيان يوما : ما ندمت على سكوت قط - وكان ابن المقفع
جالسا - فقال : الحرس زين لك ، فكيف نندم عليه ؟

وبما أوجع سفيان سخرية ابن المقفع بأفقه - وكان كبيرا - فيروى أنه
كان إذا دخل عليه قال : السلام عليكما ! يعني بذلك سفيان وأفقه . وإن هذه
السخرية من عضو مادی طبيعي باق بقاء صاحبه ، لموجة مؤلمة ، لأن أثرها
لا يفتأ يعتمل في النفس البشرية ما دامت على قيد الحياة ، إذ أنه ليس
عيباً يمكن استئصاله فيمنع بذلك الساخر من اتخاذ هدفه لسخريته ،

وقد سخر ابن المقفع أيضا من العرب ، كما سخر بهم الموالى جميعا شعراء
وكتابا كيثار وأبى نواس وغيرهما ، وكان ذلك رد فعل لمعاملتهم كموالى
وتحوصا في العصر الأموى . ويذكرون في معرض التذليل على ذلك أنه
التقى ببعض أصحابه في المربد ، فسألهم : أى الأمم أعقل ؟ فأخذوا يسردون
عليه أسماء الأمم الواحدة تلو الأخرى ، فبدأوا بفارس ، فقال : إنهم ملكوا
كثيرا من الأرض ووجدوا عظماء من الملك ... فما استنبطوا شيئا يعقو لهم ،
ولا ابتدعوا باقى حكم في نفوسهم !

قالوا : الروم أقال : أصحاب صنعة !

وهكذا أخذوا يعددون أمامه الأمم كلها : الروم ، والصين ،
والهند ، والسودان ، والترك ، والخزر .. ثم قالوا له ، فقل . قال : العرب (١)

(١) وهو في ذلك يشبه سقراط في ادعائه الجهل وسؤاله الحاضرين وهو

عندئذ... ثم تفوقهم أخيراً على سائر الأمم فأخذ يمدح العرب ، ويذكر أصلهم وجملهم وهو فيها يتغلق العرب من حيث يحقد عليهم ويحسد لهم حيث يسخر بهم ، جلساؤه أولاً حين قال : إن العرب أعقل الأمم ، ومن أجل ذلك ألح هو في مدحهم ؛ ليخفى ما يمتثل في نفسه ولا يكتن لاشك أن جلساءه كانوا يفتنون إلى ما بأعماقه جيداً ، وكانوا يدركون أنه يريد أن يقول لهم : إن العرب قوم لاحظ لهم من الحضارة أو الرقي ، وهم جياح لا يجدون ما يأكلون ، ومع ذلك فقد فتحوا الفتوح ، وملكوا الأمصار وهم لا يستحقون من هذا كله شيئاً .

مؤلفات ابن المقفع (١) :

يذكر لابن المقفع كثير من المؤلفات ، وصل إلينا بعضها ، وضاع بعضها الآخر ، وما وصل إلينا ينقسم قسمين :

أحدهما يبحث في الأخلاق والاجتماع : كالأدب الكبير والأدب الصغير ، ورسالة الصحابة : أما الأولان فكان فيهما نافلاً أكثر منه مبتكراً ، وكان حريصاً على أن يكثر فيهما من إيراد حكم الفرس وأمثالهم ، حتى يملأ أذهان الناس بهذه الحكم والأمثال . وأما رسالة الصحابة ، فكان فيها مؤلفاً ، وأفادنا نفعاً فيها على الصحابة - وهم رجال البلاط أو بطانة الخليفة - لجورهم وظلمهم ، ومن ذكرهم ابن المقفع أيضاً : القضاة والجدو عمال الخراج . وأما ما لم يصل إلينا ، فيذكر منها : كتاب تفسير ، والفخذ أيتامه ، والأيمن ناله ، وهي كتب تاريخية .

أما ما به من كتب من كتبه جميعاً ، إذ هو الذي يختص به بحثنا ، فهو كتاب : « كلية ودمنة » .

كائلة ودمنة :

والكلام كشر حول هذا الكتاب ، تكلم عنه الأقدمون ، وأفاض في الكلام عنه المحدثون ، شكوا في هذا الكتاب : أترجمه ابن المقفع كما زعم في مقدمته ، أم ألفه ؟ قال ابن خلدكان : « ويقال إن ابن المقفع هو الذي وضع كتاب كائلة ودمنة ، وقيل : إنه لم يضعه وإنما كان بالفارسية فنقله إلى العربية ، وإن الكلام الذي في أول هذا الكتاب من كلامه .. وذكر الدينوري في الأخبار الطوال نصا يدل على أن الكتاب قديم قبل ابن المقفع ... أن كسرى بن هرمز سأل إلى بهرام ... وانصرف إلى كسرى ، فكان مما أخبر به : أن بهرام إذا نزل المنزل دعا بكتاب كائلة ودمنة ، فلا يزال منكبا عليه طول نهاره ، » (١) .

ومما يؤيد الرأي الأخير أن هرتل Hertel عثر على بعض الأصول الهندية المسماة « البانشتانترا » (٢) ، ومعناها « المقالات الخمس » ، ومن ثم لم يعد أحد يشك في أن بعض هذه القصص هندی الاصل ، ولو أن ذلك لا يمنع من أن تكون هذه القصص نفسها تطورت بعد .

وبهذا يدور بأذهان الباحثين سؤال آخر ، وهو : إذا كان الكتاب قديما ، فهل هو هندي حقا أم فارسي لم ينسب إلى الهند إلا لزيادة قيمته أم هو هندي أضاف إليه الفرس أبرابا ، ثم نسبوه كله إلى الهند ؟ وأخذ الباحثون يبحثون في الكتاب وقصصه من الناحية الموضوعية . فوجدوا أن هذا الكتاب يخلو من أثر اللجوسية وبه بعض الآثار الهندية ، كالكلام عن الدراويش

(١) الأخبار الطوال ص ٨٩ .

(٢) ترجمه الأستاذ الدكتور عبد الحميد بونس عن الإجليزية وطبع في الكويت
منذ ثلاث سنوات .

والرهبان والنار المطهرة والحيوان المقدس في قصة «الناسك وابن عرس» ،
وفكرة تحريم البوذية أكل اللحم في قصة «اللبوة الممتنعة عن أكل اللحم» ،
وكذلك اشتقاق الكلمات : «كائلة» ، و«دمنة» ، و«شترية» ، من أصل هندي حرفت
عن «دمنكا» ، «كاراتاكا» ، «شرباكا» .

وانتهى «باحثون من بحثم» إلى : إثبات بعض أبواب جزموا بأنها
فارسية : كتاب «بعثة برزويه إلى بلاد الهند» ، و«باب «ملك الجرذان» ، الذي
يرى نولده أنه لا بد أن يكون من إضافة الفرس .

وعلى كل ، فلا شك أن الكتاب مر بأدوار كثيرة وبطبقات وأجناس
مختلفة من الناس ، وتداولته الأيدي والعقول جهلاً بعد جيل منذ أن بدأ
المؤلف الهندي - كائناً ما كان عقله - يجمع قصصه ثم يتلقفه المؤلف
الفارسي - كائناً ما كان شعوره وعقله وتفكيره - يترجمه إلى لغته من جهة ،
ويضيف إليه من عبارات وقصص ، ويصبغه بالصبغة الفارسية والروح
الفارسي من جهة أخرى ، ويستقل من مترجم فارسي له أهواؤه ونزعاته إلى
فارسي آخر يختلف عن صنوه نزعات وأهواء ، حتى يصل بعد عدة قرون
من تأليفه ، أو إن شئت الصدق في التعبير ، بعد عدة قرون من تحريفه أو
جمعه جمعاً ما ، حتى يصل إلى ابن المقفع ، الذي لا شك قد قرأه مرة ومرتين
وأكثر ، ثم أمعن فيه فكره المرة بعد المرة حتى تمثله في أعماقه ، فصادف
منه هوى لأن يترجمه ، إعجاباً به من جهة ، ولا تحاذه وسيلة من وسائل التعبير
عما في نفسه من جهة أخرى . وربما كان الغرض الأخير هو الغرض الأهم
الذي دفع الفيلسوف الفارسي إلى ترجمة هذا الكتاب ، إذ أن كل كائن حي
لا يستطيع إلا أن يعبر عما يشعر به من فرح أو ترح ، وأن يخرج شعوره
إلى خارج نفسه أو بعبارة أرسطو - «أن يظهر عواطفه» - كما قال في كتابه
الشعر Poetica ولا بد أن يسلك ابن المقفع مسلك الإنسان المثقف المنحضر ،
الذي يقاوم هذا الجبروت الذي سله المنصور على أبناء عصره . لذلك كله اتخذ من

الحيوان الأصم في دكيلة ودمته ، لسانا ناطقا لأن يعبر عن حقه وكرهه
آما ، واستخفافه واحتقاره أنا آخر لهذا الجبار الذي خشي الناس في عهده
التعبير عما يحسونه من ظلم ، لدرجة أنهم يقصرون قصصا أشبه بالأساطير
في ذلك ، منها أن سهما عاثرا سقط بين يدي المنصور وفيه :

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت
ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي ، فاعترت بها
وعند صفو الليالي يحدث الكدر

وانضح أن رجلا من همدان سجنه الوالي ليسلب ضيعته هو الذي فعل
هذا ، وقد ذكر المسعودي قصصا كثيرة في تعذيب العلويين حتى بلغت القسوة
بالمنصور أن قتل أحدهم ، ثم أرسل برأسه إلى أخيه في السجن المظلم ،
ووضعت في حجره ! ... وإذا به يلتفت إلى الربيع ويقول - وفي قلبه
مرارة الأسى وفي عينيه ظلمة السجن وعلى لسانه هذه الفاني : دقل اصاحبك
قد مضى من يومنا أيام ، والملتقى القيامة ! ، ويقال إن المنصور قبل أن يموت
بأيام ، قرأ بيتين على جدار :

أبا جعفر ، حانت وفاتك وانقضت
سنوك ، وأمر الله لا بد نازل
أبا جعفر ، هل كاهن أو منجم
يرد قضاء الله ، أم أنت جاهل

ويقال إنه لم يكن أحد يمرؤ على مجاهدة المنصور بأفعاله ورفض عطاياه

(١) المسعودي : مروج الذهب ٢ / ٢٢٢ وقد اعترف المنصور بأنه جبار
في قصة أ. رد ما المسعودي في المرجع السابق ٢ / ٢٢٢

بشعم وإباء وتمنع غير عمرو بن عبيد الذي كان يعظ المنصور حينما يطلبه.
وهكذا نرى إلى أى حد ساد الناس الظلم والعسف والتعذيب أيام المنصور
وقتل من يتصدى للمعارضة ، ولذلك كان على ابن المقفع أن ينقد هذا
الأسلوب الوحشى الدامى فى الحكم ، فاستطاع - ولا شك - أن يصل إلى
مأربه من خلال قصص كلية ودمنة وعباراتها بالتزبد فى هذه العبارات ،
بل وصنع أسلوبها بأسلوبه ، حتى يمكن أن نقول : إنها هيكل عظمى
اكتسى بأسلوب ابن المقفع ، وغذاها بأرائه وأفكاره التى أوجعها فى عبارات
كليلة ودمنة : قال البارون دوساسى : وربما كان من العسير علينا أن
نقول : إلى أى حد استطاع ابن المقفع أن يتحلى من النسخة
الجهلوية أو يبعد عنها ؟ ، وقال د . عبد اللطيف حمزة رحمه الله : أثبت
ابن المقفع فى ترجمته العربية أنه كان لا يتقيد كثيرا بالنسخة الجهلوية
التي اتصل بها ، كما أثبت أيضا أنه كان يرى من وراء كتابه إلى
أغراض كثيرة رمز إلى بعضها : منها أنه أراد أن يخاطب فيه غربا سذجا
يظهرهم على آثار أسلافه من الفرس ، ومنها أنه أراد أن يرجع الكلام فيه
إلى خليفة داهية كان - لبطشه وطغياء - لا يستطيع أحد أن يلفته إلى
أخطائه ومعائبه ، ومنها أنه أراد أن يشكك المسلمين فى دينهم الذى كان
وحده مدعاة إلى فخرهم على غيرهم من الأمم : فكيف كان يتسنى لابن
المقفع إذن إدراك هذه الأغراض جميعها ، إن هو قيد نفسه بالنسخة الجهلوية
التي اتصل بها ؟

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنه كان يبلغ به التصرف إلى أنه يحذف
الجملة أو الفقرة بتمامها من النص الجهلوى ، وذهبوا إلى أنه كان

يضيف الفصل الكامل إذا احتاج الأمر ، والأمر قد احتاج فعلا إلى أن يضيف الباب الأول وهو مقدمة الكتاب لعلي بن الشاه الفارسي ، والباب الثالث في عرض الكتاب ترجمة عبد الله بن المقفع والباب السادس وهو باب الفحص عن أمر دمنة ، والباب السادس عشر وهو باب الناسك والضيف ، والباب العشرون وهو باب البطة ومالك الحزين ، والحادي والعشرون وهو باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين ، ويميل الدكتور حمزة إلى إضافة باب « برزويه المتطبيب » إلى ما وضعه ابن المقفع .

ومما يدل على أن ابن المقفع قد أخضع الكتاب كله إلى أسلوبه ، وتصرف فيه بما يميله عليه مزاجه وشعوره ، أننا لا نجد اختلافا بين الأبواب التي ثبتت بدليل قاطع أنها هندية ، والأبواب التي ثبتت بدليل قاطع أنها كتبت بأسلوبه ولم يترجمها عن غيره .

ويدل على تصرف ابن المقفع بما يميله عليه هواه تلك الإضافات التي نجدها في نسخته ما ، ولا نجدها في نسخة أخرى من النسخ القديمة التي وجد أصلها ، وأعني بها النسخة القديمة التي نشرها الأب لوبس اليسوعي سنة ١٩٢٢ ونسخة الأخرى التي نشرها عزام ، وقد قرأتهما قراءة فاحصة ثم قارنت بينهما في عدة مواضع أهمها قصة « إبلاد وإبلاد وإيراخت » فوجدت القصة مختلفة في نسخة منها عن الأخرى .

وأخيراً يقول تولدك : « يجب أن نلاحظ أن ابن المقفع لم يكن مترجما دقيقا في جميع الأحوال ، وإنما كان محرراً لحسب » وقد اعترف البيروني أن « كيلة ودمنة » تردد بين الفارسية والهندية ، ثم العربية والفارسية وعلى السنة قوم لا يؤمن تغييرهم إياه كعبد الله بن المقفع في زيادته باب « برزويه » فيه ، فاعسدا تشكيك ضعيفي العقائد في الدين ، وكسرهم (م ٩ - السخرية)

للدعوة إلى مذهب المانوية ، وإذا كان متهما فيما زاد ، لم يخل من مثله فيما نقل (١) .

من هذا كله نعرف إلى أى حد كان ابن المقفع واسع التصرف في النسخة البهلوية لكتاب كليله ودمنة . وأستطيع أن أقارن هنا بين ابن المقفع الفارسي ، وبين رابليه الكاتب الفرنسي Rebelaïs مؤلف Pantagruel ذلك الكتاب المليء بالسخرية من طبقات كثيرة ، والذي أثار نقاشا حادا وبجسا مستفيضاً حول ما يقصده المؤلف من هذا الكتاب: وهو يخلط في شخصياته خطأ عجباً متعمداً أن يربك من بعده من الناقدين ، فتارة يذكر أشخاصاً حقيقين بأسمائهم الصحيحة ، وتارة يستر أشخاص كتابه بقناع خفيف ، يشف عما تحته من أشخاص حقيقيين ، وطوراً ثالثاً يستخدم شخصيات خلقها بخياله ، فاختلف النقد لذلك في تفسير الغرض من هذا الكتاب : فقليل إنه هجاء سياسي شخصي ، وقيل بل هو نقد للكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وقيل إنه دفاع عن الفلسفة المادية الأبيقورية التي تنادى بالبحث عن حياة لذيذة ممتعة ، وأخيراً ذهب بعض النقاد إلى أنه مخادعة ماكرة من مؤلف ماهر أراد بها أن يضال قراءه ، فيوهمهم أن شيئاً مقصوداً يكن وراء هذه الألفاظ ، وعليهم أن يتعقبوه ليكشفوا عنه ، وكل ما قاله . النقد عن رابليه ، بل كل ما قصده رابليه ، نرجح أنه الذي قصده ابن المقفع من غير أن يفصح به في كتابه أو حديثه مع أهل عصره ، ولكن - كما كل ساخر متحفظ محتاط - أحاط كتابه بمسحة أجنبية : فارسية هندية من حيث موضوع المقدمة ، وأسماء الأشخاص ، ونسبه المقدمة إلى بهنود بن سحوان الذي يشك بعض الباحثين في نسبتها إلى هذا الشخص الخيالي الذي لم يسمع به في التاريخ ، كل ذلك ليبعد القراء عن الغرض الحقيقي من ترجمه أو تأليف

(١) تحقيق ما للهند من مقولة للبيروني ص ٧٦ .

هذا الكتاب ، وليتخذ من تساؤل القراء عن الغرض من تأليف هذا الكتاب ستاراً يخفى - على الأقل - شخصية المؤلف الحقيقية أو الباعث الحقيقي لتأليف هذا الكتاب إخفاء أبدأً أو على الأقل مدة حياة ابن المقفع الذي كان يخشى كل الخشية أن يصاب بأذى إن هو كشف أمره ، وليست صورة مصرع صديقه عبد الحميد الكاتب بعيدة عن ذهنه أو ذاكرته .

وايس أدل على هذا من ذكره في المقدمة التي لا يشك باحث في أنه كتبها بقله ، تلك العبارة بعد أن عدد الأغراض الثلاثة من ترجمة هذا الكتاب :

« والغرض الرابع وهو الأقصى - وذلك مخصوص بالفيلسوف خاصة^(١) . (والعجيب أن عنوان الباب في جلّ المراجع يذكر هكذا : «باب عرض الكتاب لا غرض الكتاب») . وبما نلاحظ أنه أوماً إلى غرضه في إصلاح الملوك تصريحاً ، حينما ذكرهم في الغرضين الثاني والثالث فقال : « والثاني : إظهار خيالات الحيوان بصنوف الأصباغ والألوان : ليكون أنسا لقلوب الملوك ، ويكون حرصهم عليه أشد للزهوة في تلك الصور . والثالث : أن يكون على هذه الصفة ، فيتخذ الملوك والسوقة ، فيكثر بذلك اتساخه ، ولا يبطل ، فيخاق على مرور الأيام ، ولينتفع بذلك الصور والناسخ أبدأً . فنلاحظ أنه لا يلح - بعد ذكره الملوك - في النصح لهم ، والإبانة عن غرضه إبانة ظاهرة مباشرة ، بل يعقب على ذلك بذكر : « السوق » وانتفاع الصور والناسخ به أبدأً .

إذن لا يمكن أن يكون كائلة ودمنة قد ترجم ترجمة حرفية لم تتدخل فيها

(١) والعبارة في نسخة بيروت ص ٥٩ (والغرض الرابع وهو الأقصى ؛ وذلك يخص الفيلسوف خاصة ، أعني الوقوف على أسرار معاني الكتاب الباطنة)

روح ابن المقفع وأغراضه ، ولا يمكن أن يكون إلا معبرا عن نقد ابن المقفع الملوك ، والدليل على ذلك شيخان : أولهما أن الأديب الساخر الذي يخشى بطش الملوك يستحيل عليه أن ينقد نقدا صريحا ، بل لابد له أن يعتمد إلى المواربة والأسلوب غير المباشر في النقد كما فعل صامويل بتلر القصصى الإنجليزى وغيره . وإلا لو أظهر نفسه على حقيقتها لتمرص لما يخشى مغيبته كما فعل الشافعى حينما سأله المأمون عن خلق القرآن ففسخر به قائلا - بعد تعداد القرآن وغيره على أصابعه : كل هؤلاء مخلوقون (يشير إلى أصابعه ، لا إلى القرآن الذى أراد المأمون على الاعتراف بخلقه) ، وبذلك نجا من هلاك محقق ، ومثله حجر المدرى الذى أمره محمد بن يوسف أن يلعن عليا ، فقال - زاعما أنه ينفذ أمره - إن الأمير محمد بن يوسف أمرنى أن ألعن عليا ، فالعنوه - لعنه الله - فعماهما على أهل المسجد ، فما فطن لها إلا رجل واحد (١) .

ثانيهما : أن ابن المقفع قد حث على معرفة ظاهر الكتاب وباطنه ، فقال : « وكذلك من يقرأ هذا الكتاب ، ولم يعلم غرضه ظاهرا وباطنا ، لم ينتفع بما بدا له من خطه ونقشه ، كما لو قدموا الرجل جوزا صحيحا لم ينتفع به إلا أن يكسره وينتفع بما فيه . يريد من قارئه الذى تفهمه وفطن لما فيه أن يعمل بما به ، قال : « ثم إن العاقل - إذا فهم هذا الكتاب وتفهمه وبلغ نهايته وعلم ما فيه ، ينبغي له أن يعمل بما عليه منه ، لينتفع به ، ويجعله مثلا لا يحيد عنه ، فإذا لم يفعل ذلك كان مثله مثل الرجل . . . إلخ (٢) . »

ونراه يلح في ذلك حتى يقول في آخر الباب : « فمن قرأ هذا الكتاب فليعرف السبب الذى وضع عليه كتاب كلىة ودعنة ، وحول من أرض الهند إلى أرض فارس . . . » وهكذا يلح في قراءته ، وكذلك في معرفة سبب تأليفه وكذا في نسبة الكتاب إلى الهند وفارس .

(١) أخبار الطراف والمتاجنين لابن الجوزى ص ٢٣

(٢) ص ٥٣ طبعة بيروت لكليلة ودعنة .

ثالثا : أن ابن المقفع كثيرا ما يذكر القصص التي يقدمها أمثلة وبرهانا على صدق نصيحته ودعواه ، يذكرها وفيها طابع السخرية ، كمثل الرجل الذي علم العلم ، ولم يعمل به : كالذي أعطى صحيفة صفراء ، وجعل عالما يكتب له فيها علم العربية ، فكتب له في الصحيفة ما أراد ، فانطلق الرجل إلى منزله ، وجعل يقرأها ولا يدرى ما معناها ... وظن أنه قد أحكم ما في الصحيفة ... وأنه تكلم في بعض المجالس - وفيه جماعة من أهل الأدب والفصاحة - فقال له بعضهم : لخت ! فقال - وهنا موضع السخرية - ألحن ، والصحيفة الصفراء في منزلي ؟!

وكذلك قصة السارق الذي خدعه صاحب البيت بأنه ظفر بمناعه من طريق السرقة بواسطة ارتقاء شعاع ضوء القمر الذي ينفذ من كوة في حجرة من الحجرات ، وذلك بواسطة عدة كلمات يقولها اللص في أثناء نزوله على الشعاع . شولم . شولم ،^(١) وكذلك هناك قصة بائع السمسم^(٢) وقصة الغادر ، وسارق البير^(٣) .

رابعا : هناك عدة مواضع في الكتاب يذم فيها الملوك وحكمهم بالهوى ونجبرهم ، إذ نقرأ حواراً رائعاً بين كيلة ودمنة في ذم صحة السلطان ينتهي بقول كيلة : أمور ثلاثة لا يجترى عليها إلا الأهوج ، ولا يسلم منها القليل : صحة السلطان ، واتيان النساء على الأسرار ، وشرب السم للتجربة ،^(٤) .

وقد أكترت كتب الحكمة القديمة والأدب من ذكر فصول في ذم صحة

(١) كيلة دمنة طبعة دار المعارف ص ٢٢٢

(٢) كيلة ودمنة (دار المعارف) ص ٨

(٣) المرجع السابق ص ١٠ ، ٩

(٤) المرجع السابق ص ٥٠

السلطان ، فالأرجح أن الدافع إلى ترجمة الكتاب أنه صادف هوى في نفس ابن المقفع فترجمه تعريضا بالسلطان ، وصاغ العبارات ، وأضاف إليها لتوافق هواء في ذم السلطان والتعريض به ، وإشعار نفسه بأنه لم يفقد كثيرا حينما لم يتخذ للخليفة كاتباً له وهو ماهر عليه من حذق في الكتابة وبراعة فيها كعبد الحميد صديقه ، وتصديقا لذلك قال : أمران لا ينبغي لأحد — وإن كان ماسكا — أن يجعل شيئا منهما في غير مكانه وأن يزله غير منزله : الرجال والحلية^(١) . وفي أول باب كيلة ودمنة ، يذكر عادة ذميمة من عادات الملوك : « وقد قيل في أمور شتى : من كانت فيه لم يستقم أمره له ... ومنها : التصديق لسكلى خبىر ، ورب رجل يخبر بالشئ لا يقبله ، ولا يعرف استقامته ، فيصدق به ، لما يرى من تصديق غيره ، فيتمادى به ذلك حتى يكون كئانه عرفه ، ورجل يصدق به لهواه في الأمر الذى يخبر به ، فالعاقل لا يزال للهوى منهما ... فنقرأ هذا الكتاب ، فليقتد بما فى هذا الباب ، فإنى أرجو أن يزيد بصرا ومعرفة . فإذا عرفه اكتفى واستغنى عن غيره ، وإن لم يعرفه ، لم ينتفع به ، فيكون مثله كمثل الذىرمى بحجر فى ظلمة الليل . فلا بدري أين يقع الحجر ، ولا ماذا صنع ا

ومن نحامله على الملوك ، أو تصويره إياهم بمظهر المصدق للوشايات الغادر بالصدق ماضر به مثلاً لذلك بقصة الأسد والثور ، وهى أطول قصة فى الكتاب ، ولعله قد زاد فيها من الزيادات ما يشفى به غليله ، وإنى لأعدها أكبر قصة صورت ما يحدث بين الملك وأقرب المقرين إليه ، وحينما أقرأ شخصية الأسد فى هذه القصة أمثل شخصية أبى جعفر المنصور بعنفه وقسوته حينما قتل الثور فى النهاية ؛ وليس هناك من فرق فى ذلك بين مصرع الثور

ومصرع من أسسوا دولته كأبي سلة الخلال وأبي مسلم الخراساني وغيرهما
من صرعهم . ويكاد ابن المقفع ينطق بلسانه مخاطباً أبا جعفر في قصة الملك
والطائر فزّة ، قال : « ترحاً للملوك الذين لا عهد لهم ولا وفاء أو بل لمن
ابتلى بصحبة الملوك الذين لا حيم لهم ، ولا رحيم ، ولا يحبون أحداً ، ولا
يكرّم عليهم إلا من يطعمون عنده في غناء ، أو يحتاجون إليه ، فيقربونه
عند ذلك ، ويكرمونه فإذا قضوا منه حاجتهم ، فلا ود ولا إخاء أو لا البلاء
الحسن مجازى عندهم ، ولا الذنب مغفور ، وليس أمرهم إلا الفخر والرياء
والسمعة وكان عظيمًا من الذنوب يركبونه ، هو عندهم صغير ، وعليهم
هين ^(١) ... »

ولا شك أننا نلاحظ أسلوباً عنيفاً في هذه العبارة ، ما كان لابن المقفع
أن يستخدمه لو لم يكن واجداً - في نفسه - على من قصد به هذا الكتاب ،
ونلاحظ استطراداً وإطناباً في العبارات ، مما يجعله يشعر براحة كلما زاد في
العبارات والمترادفات وأظن فيها معدداً مساوياً للملوك الذين هم في ضمير
ابن المقفع : أبو جعفر المنصور ، وليس أحد غيره .

وقال أيضاً : « قال فزّة : إن الأحقاد مخوفة حينما كانت ، وأخوفها
وأشدّها : ما كان في أنفس الملوك ، وإن الملوك ، يدينون بالانتقام ويرون
الطلب بالوتر مكرومة ونجراً . ^(٢) ثم ينصح الملك بنحو ما نصحه به في
رسالة الصحابة : من الاهتمام باختيار الأعوان : ... ثم على الملك - بعد ذلك -
ألا يترك تعاهد عماله ، والتفقد لهم والأمور ، حتى لا يخفى عليه إحسان
محسن ، ولا إساءة مسيء . ثم عليهم - بعد ذلك - ألا يتركوا محسناً بغير جزاء ،
ولا يقرّوا مسيئاً ولا عاجزاً على العجز والإساءة ، فإنهم إن صنعوا ذلك ،

(١) كتيبة ودمنة (طبعة دار المعارف ص ٢٣٨) وطبعة شيخو ص ٢٤٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٥١ (طبعة دار المعارف) .

ثم اوان المحسن ، واجترأ المسىء ، ففسد الأمر ، وضاع العمل ... (١) ، ومن يدرى لعله قصد نفسه بتذكير الملك أو الخليفة بالإحسان إلى المحسن ، حتى لا يتهاون المحسن ! ولعمري إن هذه الفقرة السابقة من الفقرات التي جث الملك على قراءتها وتفهمها ثم العمل بها كما نصح في أول الكتاب : « وكذلك من يقرأ هذا الكتاب ولم يعلم غرضه ظاهراً وباطناً ، لم ينتفع بما بدا له من خطه ونقشه ، وهو لاشك يقصد الخليفة ومن حوله لالسوقه ، لأن السوقه ليس في يدهم شيء من زمام الملك أو تصريف أمور الناس ولا يتحكمون في صغير أو كبير من أرزاق الناس وما يصلح لمعاشهم ، أما الحكام فهم الذين عليهم المعول ، وبالتالي هم الذين يوجه إليهم ابن المقفع أمثال هذا الكتاب للعمل بما فيه ، فينفعونه وينفعون أنفسهم .

وأعتقد أنه ليس من المستبعد أن يكون قد مر بذهنه في قصة « الأسد والأرنب التي تخلصت منه ، و « الذئب والغراب وابن آوى يهلكون الجمال ، أنهما مثلاً لا انتصار الضعيف على القوى - مهما أوتى من قوة - وسخريته بهذا القوى الذي يشقى غليله منه .

وبذلك تكون السخرية من النوع الذي يطلق عليه الأوربيون « سخريه الحوادث Lony fo events أو ما يسمى سخريه القدر التي تجعل الإنسان يبتسم من مغارقات القدر حينما يتجبر شخص ما وإذا به يغلب برامطة شيء ضعيف ما كان الإنسان يظن أنه سيغلبه ، وحينذاك يبتسم المرء ابتسامه السخرية ، وهذا شائع في حياتنا الدنيا . وما يستوقفني في نهاية باب الفحص عن أمر دمثة ، تلك العبارة : « ثم قال الفيلسوف للملك : « فلينظر أهل الفكر في الأمور هذا وأشباهه ، وليعلموا أنه من يلتمس منفعة نفسه بهلاك غيره ظالمه بخديعة أو مكر ، أو خلافة ، فإنه غير ناج من وبال ذلك عليه وعاقبته

ومغبته، وإنه مكافأ به، ويجزى بما عمل، عاجلا وآجلا، وصائرا إلى البوار على كل حال، (١).

وهناك حديث طويل لنقد الأشحاء اللثام وذمهم يمكن أن يكون تعريضا بالمنصور، لفرط ما عرف عنه من شح شهر به (٢). ولا شك أن ابن الممتنع قد اتبع في أسلوبه، ما جاء في عبارات الكتاب عن التعريض حتى ربما أغضبه بعينه - وهو لا يغضبه - إنما يضرب له الأمثال ويحدثه عن عيب غيره، فيعرف به عيبه، ولا يجد للغضب عليه سبيلا. (٣). وقد عرض ابن الممتنع بمرعة غضب الملك على لسان إبلاد - لما طلب منه الملك أن يذكر حاجته بعد إصلاح شأنه - ليست بي حاجة فيما قبلك إلا الثاني عند الغضب، والروية عند الفسك، (٤).

وقد عرض ابن الممتنع بنهاية الظالم في قوله: « فلم يزل هذا البلاد بأهل البلد، فوثب من بقي منهم ومن به رمق، وتجمعوا إلى باب الملك، فقتلوه ووزيره وأهله، ولم يبق منهم أحد. » (٥)

* * *

وقد تجلست سخرية ابن الممتنع الحقبة التي هي أقرب إلى التصريح منها إلى

(١) كليله ودمنة ص ٢٤.

(٢) جاء في مروج الذهب للهمودي ٣ / ٢٣٢ وكان مع هذا يضن بماله، وينظر فيما لا ينظر فيه العوام، وواقع صاحب مطبخه على أن له الرؤوس والأكاريع والخلود، وعليه الحطب والترايل. ، ، وانظر كليله ودمنة (طبعة دار المعارف) ص ١٣٨.

(٣) كليله ودمنة ص ٣١٤.

(٤) المرجع السابق ص ١٣٤.

(٥) المرجع السابق ص ٢٢٤، ٢٢٥.

الإبهام ، في ذلك الحوار الرائع الذى عقده في نهاية قصة إبلاد وإيراخت وشادرم ، وتتلخص هذه القصة في أن ملكا من الملوك يدعى « شادرم » غضب على زوجته ، لأنها هفت معه هفوة صغيرة ، رأى أنها تستحق العقاب فقسا عليها إلى حد أنه أمر وزيره « إبلاد » بقتلها . فأخذها الوزير بعيدا عن القصر ، وكل بها من يعنى بأمرها ، ثم رجع إبلاد إلى الملك . وقد غضب سيفه بالدم - زاعما أنه قد قتلها ، منفذا بذلك أمر الملك .

أما الملك فحينما سكن غضبه على « إيراخت » الملكة ، وتذكر « جمالها » ورأيها وعظم عنايتها ، وجسم منفعتها اشتد حزنه ، وجعل يقوى نفسه ويتجلد ، وفطن إبلاد إلى ذلك ، فأخذ يعزى الملك ، ويضرب له الأمثال ، ويقص عليه القصص فى السلوى والعزاء ، وأن لديه النساء الكثيرات ، وأن لاداعى للحزن على إيراخت ، فلما سمع الملك ذلك ، خشى أن تكون إيراخت قد هلكت .

فقال لإبلاد : أفى سقطة واحدة كانت منى فعلت ما أمرتك به من ساعتك وتعلقت بكلمة واحدة ، ولم تثبت فى الأمر ؟

قال إبلاد : إن الذى قوله واحد ، لا يختلف كلامه عندى ، واحد .

قال الملك : ومن ذلك ؟

قال الله عز وجل : الذى لا يبدل كلامه ولا يختلف قوله !

وهكذا يبدأ حوار رائع بين إبلاد الوزير والملك شادرم ، يأخذ الوزير فيه بالعبث بالك ساخرًا منه تسرعه فى الحكم ، وأول شيء يبصره به هو أنه ضعيف بجانب الملك الأكبر خالق كل شيء . وطريقة الوزير فى هذه السخرية : هى محاولة الإجابة عن عبارة الملك أو تساؤله (خبرا كان أو استفهاما) بواسطة التفريع أو وضع حالة الملك - التى نسبها لنفسه

أو نسب نفسه إليها - بين عدة حالات ، ثم يثبت له أن حالته هذه التي نسبها لنفسه ليست من بين هذه الحالات التي تنكاد تكون الحالات الصحيحة الحقيقية التي اتفق عليها الفلاسفة - بكون إبلاذ فيلسوفا مثلهم - ويمكن أن يطلق على طريقته طريقة « التصامم » ، أو ادعاء الصمم ، أو التخالب أو التباله ، فهي أشبه بطريقة سقراط التي كان يدعى فيها عدم العلم أو الجهل ، فهو أيضا يدعى أنه لم يفهم أو أنه فهم ولكن قول الملك لا يعول عليه لأنه ليس صحيحا كما يظن ، ولأنه ليس واحدا من هؤلاء الذين يذكرهم له : فأجاباته فيها تعزية مزوجة بالخرية . ونستطيع أن نذكر هذا المثل تبياناً لذلك . يقول الملك : اشتد حزني لقتل إيراخت .

يرد عليه إبلاذ ساخرا ، متصنعا الجذد - وهو جد الفلاسفة - اثنان ينبغي لهما أن يشتد حزنها :

الذي يعمل الإثم
والذي لم يعمل برا قط
لأن فرحهما في الدنيا قليل !

فهو كأنه يقول له : إنك إما أن تكون واحداً من هذين اللذين ذكرت أنفا ، فحينذاك تكون من يعمل الإثم أو من لم يعمل برا قط ، وإلا ، فلا يحق لك الحزن ، وهذا شيء كبير بالنسبة للملك ، لأنه لا يحتمل أن ينسب إلى أحد هذين الأمرين اللذين ذكرهما الوزير ؛ ولا يحتمل أيضا أن لا يحزن لهذه الفجعة الكبرى - فجعة أمره بقتل إيراخت ، ولا يحتمل ثالثاً أن يخرج الوزير من هذا الأمر الذي هو ظاهر للعيان أنه يستحق الحزن ، إلى أمرين بعيدين كل البعد عن ذهن الملك - في حالة الحزن الذي يسد المنافذ على الشخص ، فلا يجعله يفكر أو يتأثر بشيء غير الذي هو فيه !

وهكذا يستمر في العبث بالملك بطريقة السخرية أو الهجاء غير المباشر حتى إنه لما قال الملك : ما أنا بناظر إلى إراخت سوى ما نظرت ا يرد عليه إبلاذ - الفيلسوف - قائلاً : اثنان لا ينظران أبداً :

الاعمى ؛ والذي لا عقل له ؛ فإنه كما أن الأعمى لا يبصر السماء ولا النجوم ولا الأرض ، ولا يبصر القريب ولا البعيد ولا أمامه ولا خلفه وكذلك الذي لا عقل له ، لا يبصر منفعته من مضرته ، ولا يعرف العاقل من الجاهل ، ولا الحسن من القبيح ولا المحسن من المسيء .

وهو بهذا يقول له - بطريق غير مباشر - إنك : إما أعمى وإما لا عقل لك : فيسب الملك ، وبذلك يزيد حزننا - من غير أن يمنحه الفرصة لأن يغضب ولأن ينتقم منه هو الآخر، وهكذا يتشقى بالملك أعظم تشف حتى يظن الملك إلى هذا بعد أن يضيق به ذرعاً فيقول له :

إني لحقير في عينك يا إبلاذ ا فإرد عليه إبلاذ هازناً - كأنه لا يعنيه من أمر الملك شيء بل يعنيه مجرد السخرية به أو أن يظل سادراً في غي حكيمته و ثلاثة يحقرون أنفسهم : الذي يهذى بالكلام ، ويتحدث بما لا يسأل عنه... والمملوك الغنى وسيد فقير فلا يعطى سيده شيئاً من ماله ، ولا يعتد به ، والعبد الذي يغلظ عليه سيده في القول ويستعيل عليه أو نلاحظ أنه حتى اعتراف الملك بأنه حقير في عيني إبلاذ ، لا يريد إبلاذ أن يوافق الملك عليه أى على هذا الاعتراف - أو الاعتراف به ، ولذلك يظن الملك إلى ذلك فيقول - وقد لاحظ عليه سمات الانكسار التي تدعو إلى الإشفاق عليه والارتقاء لحاله : إنك لتسخر بي يا إبلاذ ا ، أى إنني قد هنت عليك إلى حد أنك لم تكثف بتركي وحزني ، بل أخذت في السخرية بي (ونلاحظ أن عبارة الملك هي العبارة الثامنة عشر من هذا الحوار ، أى قبلت تلك العبارة بعد سبع عشرة عبارة سالفة - ويستمر الفيلسوف في لدعه فيرد على عبارته السابقة بقوله :

ثلاثة يذبح أن يسخر منهم ... ، وهكذا يحير الملك هذه الحيرة العنيفة فيأبى حتى مجرد الاعتراف بأنه يسخر منه !

وهكذا نرى لإبلاد (أو ابن المقفع) يسخر سخرية لاذعة تمتد حتى تصل إلى حوالى أربع وأربعين عبارة في عدة صفحات ، وإلى لأحدها بل اعتبرها أكرم مكان أو مناسبة سمحت لابن المقفع بأن يشفى غليله من الملك أخف شفاء .

وقد أظهر ابن المقفع في هذه القصة ضعف الملوك وهم يتصنعون القوة ، أمام حوادث تافهة نسبياً : كفقد زوجة من الزوجات ، وأظهرهم أيضاً بمظهر الحق والضبط الذى هم عليه ، والنقص كغيرهم من البشر بتسرعهم فى إصدار الأحكام ، ثم محاولة الندم على ذلك حيث لا ينفع الندم ! وإن هذه الحالة ائذ ذكر بعقدة ألف ليلة وليلة حيث تحاول شهرزاد إنقاذ بنات جنسها من ملك طاغية يريد أن يقتل بسبب وبغير سبب ، ولا يبغي من وراء ذلك إلا إظهار قوته المجنونة أو ضعفه أمام نزواته وشهواته !

ويحاول ابن المقفع أن يطنب أو يتوسع فى إظهار ضعف الملك بإظهاره بمظهر الحزين ، العميق الحزن ، فى مواضع كثيرة حتى إنه يأخذ فى تكرار ذلك على لسان الملك بعبارات مختلفة تدور حول معنى واحد هو الندم على خطأ لا يمكن إصلاحه ، مثل : اشتد حزنى لقتل إراخت (٢) لأن رأيت إراخت حية لا أحزن أبداً (٣) ما أنا بناظر إلى إراخت سوى ما نظرت () - لأن رأيت إراخت ليشتد فرحى () ما شبت من رؤية إراخت قط () صرت من إراخت صفراً () لقد ازددت حزناً بتعزيتك يا إبلاد - هلكت إراخت ضيعة فى غير شيء ! () ليتنى قد رأيت إراخت يا إبلاد ! () لقد أوجعت قلبى يا إراخت ! () أنا الذى شققت على نفسى ! () لن تطيب نفسى بقتل إراخت يا إبلاد ! أفست على العيش يا إبلاد ! ()

ثم يظهر الكاتب الملك بمظهر الضعيف حتى إنه يبدأ في تعنيف إبلاد ،
ثم يبدأ في تهديده وسبه : إنه لينبغي لنا أن نتباعد عنك يا إبلاد فإنك بذلك
جدير (٧) إنك لاهل أن تعذب أشد العذاب (٢) إنه اينبغي لك أن تسفه
يا إبلاد (٢) كان ينبغي لك أن تسكت حتى يهدأ غضبي يا إبلاد (١٤) قد تصدم
ما بيني وبينك يا إبلاد (٢١) ما ينبغي لي أن أكلمك يا إبلاد ! والغريب أن
الفيلسوف - برغم هذه التهديدات - لا يتورع عن الرد على الملك بتفريع
الإجابة كما تعود بطريقته الخاصة .

ويبلغ ابن المقفع منتهى السخرية بالملك حتى إنه ينطقه بهذه العبارات
أمام وزيره إبلاد : إني لحقير في عينك يا إبلاد : (١٧) إنك لتسخر بي يا إبلاد
(١٨) إنك لتجبر يا إبلاد ! (١٩) إني لحائف منك يا إبلاد ! (٢٧) أمالك رحمة
فترحمي يا إبلاد ؟!

ثم يظهر الملك بمنتهى الضعف الذي يستحق الاستهزاء والرائاء حينما ينطقه
بمثل قوله : لم يصبنى قط وجع أشد على مما وصل إلى من لإراخت لحلمها
وعقلها () لا أرى لإراخت في النساء شبيها () ليس يأنيني النوم على
حزني لإيزاخت () حسبك يا إبلاد فقد تركتني في شك من رأى
(١٤) !

وهكذا يعبت إبلاد بالملك أشد العبت ، حتى إذا مارآه قد هوى وأصبح
في شدة القنوط (كما تدل عليه العبارة الأخيرة) فاجأه بإظهار لإراخت مرة
ثانية ، وإنها لعمري خاتمة ساخرة بالملك حتى لو أنه كان قد قتلها حقاً ،
لكان أهون على مركز الملك وأحفظ لكرامته من أن يعنفه بكل هذه الأجوبة
الطويلة السامة - إن سمح لي التعبير بذلك - ثم ينتهي أخيراً إلى إظهارها مرة
ثانية : كأنه الطفل الغرير الذي عبت به بإخفاء أمه - مصدر حياته - ثم

عاد فأظهرها ، وكأنه يقول له مر بنا على كشفه لاتبك ، هاهى أمك قد عادت
إليك أيها الطفل الصغير !

* * *

وقد اختلف عدد عبارات الملك ووزيره في هذا الحوار باختلاف النسخ،
فبلغت في كتاب « نتائج الفطنة في نظم كائلة ودمنة ، ثلاثين عبارة للملك
ومثلها للوزير في الرد عليه . أما في نسخة دى ماس والنسخ المصرية (التي
طبعها وزارة المعارف ومكتبة الهلال) فهي مختصرة جدا لا تزيد على ثمانى
عبارات الملك ومثلها للوزير ، أما أطولها فهي ما ذكر في النسخة السريانية
الحديثة^(١) ونسخة شيخو إذ بلغت سبعا وثلاثين عبارة ونسخة عزام فتبلغ
ستا وأربعين عبارة ، وبذلك فهي أكثر النسخ إطنايا في هذا الحوار . وإني
لأحار في سبب الاختلاف في عدد العبارات بين النسخ إلى هذا الحد ، وقد
يكون لسقوط بعض العبارات في النسخ الناقصة اضياع بعض الأوراق منها
أو الزاما للاختصار كما يملك بعض الناسخين الذين لا يراعون الأمانة والدقة
في النقل ، أو بسبب تزيد بعض الكتاب المتأخرين والنسج على منوال
ابن المقفع في هذا الصدد حبا في هذا النوع من الإنشاء وفي هذا النوع من
الحوار في هذا الموقف بين الملك ووزيره الذى ربما قد استهواهم وحل من
تقوسهم محلا جعلهم يقلدون ويتزيدون ، ومهما يكن من أمر ، فإن النسخ
المطولة : وهى نسخة ابن الهبارية وشيخو وعزام تحتوى على عبارات تتفق
عليها النسخ كل الاتفاق أو في كثير من الألفاظ : والنسخ تتفق كلها في كيفية
بده الحوار ولا تختلف إلا في بعض الألفاظ التي لا تنير من المعنى في شيء :
ففي نسخة وزارة المعارف المصرية يبدأ الحوار هكذا :

(١) مقدمة كائلة ودمنة (طبعة دار المعارف سنة ١٩٤٢) بقلم عبد الوهاب

- لم لا تأنيث وتثب ، بل أمرت عند سماع كلمة واحدة ، فتعلقت بها .
وفعلت ما أمرتك به من ساعتك !

فقال إبلاد : إن الذى قوله واحد ، لا يختلف : هو الله الذى لا تبدل
لكلماته ولا اختلاف أقوله .

أما ابن الهبارية ، فيذكرها هكذا :

فقال يا بهلار هل من كلمة ؟ قتلها ، لقد جنيت ، مؤلمه
هلا تثبت ولم تستعجل فالخير فى الرفق وفى القهـل
قال له : إن الذى لا يختلف منه الكلام واحد إذ تعترف
فقال : من ذاك ؟ فقال الله لغيره الأضداد والأشياء

أما فى نسخة شيخو فقد بدأها كما ذكرنا فى أول هذا الفصل (منذ بضع
صفحات) وكانت نسختا عزام وشيخو أكثر النسخ اتفاقا ، حتى كأنهما
من مصدر واحد ، ولا يختلفان إلا فى بعض الكلمات ، ونمثل لذلك بمقارنة
الفقرة رقم ٣٦ لدى شيخو بالفقرة رقم ٤٢ عند عزام :

قال الملك : لقد غبنتنى وغبنت نفسك يا إبلاد .

فتذكر فى نسخة الدكتور عزام محرفة هكذا :

قد غنيت نفسك يا إبلاد وإياى معك (خرفت غبن إلى غنى) .

ثم يقول فى نسخة شيخو : ثمانية يغبنون أنفسهم وغيرهم .

فتذكر فى نسخة عزام : تسعة نفر يغبنون أنفسهم وغيرهم .

وفى نسخة شيخو : د والبذى الفجور الأشر العادى طوره المستغنى برأيه
عن مشاورة الأخلاء .

فتذكر فى نسخة عزام مختصة هكذا د والبذى الفاجر العادى طوره ،

وفي نسخة شيخو : « ومطالب العلم الذي يخاصم فيه من هو أعلم به منه ، ولا يقبل منه ما عليه . »

وتذكر في نسخة عزام : « وطالب العلم بخصوصه من هو أنبل منه . »

وهكذا نرى الاختلاف بين النسختين في بعض الأحيان هيئنا لا يتعدى الاختلاف في ترتيب العبارات ، وفي بعض الأحيان كبيراً إلى حد حذف بعض العبارات الموجودة في نسخة دون غيرها أو وجود عبارات جديدة ذات معنى مختلف عن مثيلاتها في النسخة الأخيرة ، أو حذف بعض فقر برمتها كما العبارة رقم ٢٩ في نسخة شيخو وهي غير موجودة في نسخة عزام وهي :
« قال الملك : إن ذوى الكرم من الناس لا ينبغي لهم أن يضاحكوا ولا يلاعبوا ، أى لا يجوز المزاح معهم . »

قال إيلاذ : « أربعة لا ينبغي لهم أن يضاحكوا ولا يلاعبوا ، ^(١) . »

وكذلك الفقرة التالية لها برقم ٣١ ، رقم ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٢ فإذا اتخذنا نسخة عزام أساساً في عدد الفقر وجدنا أن نسخة شيخو تحتوى على هذه الفقر من نسخة عزام : ١ - ٢٦ ، ٢٠ - ٢٢ ، ٣١ ، ٣٥ - ٢٧ .

أما ترتيب ابن الهبارية في منظومته وعدد فقراته فهو كالآتي ^(٢) :

١ - ٢١ ، ١١ ، ١٥ ، ١٦ ، فقرة مزيده ، ٢٢ ، ٣٥ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٧ ،
١٨ ، ١٢ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٣ ، ٤ - ، فقرتان مزيديتان ، ٤٣ .

(١) كليله ودمنة (طبعة بيروت التي نشرها شيخو) ص ٢٢٦ .

(٢) ص ٢٠٤ - ٢١٤ من طبعة نتائج الفطنة في نظم كليله ودمنة للوزير الشريف أنى يعلى بن أحمد بن الحسين المعروف بابن الهبارية . هذبه الخورى
نعمة الله الأسمر الماروني اللبناني ، وطبع في المطبعة اللبنانية سنة ١٩٠٠ .

(١٠٢ - الصخرية)

أما ترتيب طبعة مكتبته الهلال (وهي الطبعة المصرية المتداولة) فهي كالآتي : ١ - ٩ فقط (١) .

ونلاحظ أن جميع النسخ تتفق في البدء بالفقر التسع الأولى ثم تختلف بعد ذلك ، ولهذا أرى أن تحقق نسخة شيخو وابن الهبارية (التي أعترف ناشرها اللبثاني بأنها مذبذبة) وذلك بالاستعانة بباقي المخطوطات وفي مقدمتها نسخة عزام - التي عني بها عناية كبيرة وحققها تحقيقاً أميناً - وبذلك نستطيع أن نخرج للعالم العربي نسخة أقرب إلى الدقة ، وإلى الأصل الذي أخرج عليه ابن المقفع نسخته الأولى إلى العالم العربي ، ويمكن الاستعانة بالمجهود القيم الذي بذله المرحوم الدكتور عزام في تحقيق أسماء الكتاب لما لحذفه اللغة الفارسية .

* * *

أما تفريع لإبلاد لعبارة الملك فهي في المتوسط أربع حالات ، ولكنها قد تصل إلى عشر حالات كما ذكر في الفقرة الأخيرة من الحوار رقم ٤٤ . أما أجوبة لإبلاد في هذا التفريع فهي أجوبة فلسفية حكيمة ، فيها شيء من الغموض أحياناً . وفي بعض عبارات ابن المقفع تعريض كقوله : «والفجرة الذين يسفكون الدماء - بغير حق - ويرجون أن تكون أرواحهم مع الشهداء الأتقياء ، فلا شك أن هذا تعريض بأبي جعفر المنصور» (٣) وتبلغ سخريته بالملك إلى حد أن شادرم الملك حينما يوجهه بقوله : إن ذوى الكرم من الناس لا ينبغي لهم أن يضاحكوا ، (٣) أي لا ينبغي أن يمزح معهم حاول الكاتب - كما دته - الهزء به بطريقة الخاصة . وحينما قال له الملك : كما أنك

(١) كلية ودمنة طبعة مصر سنة ١٩٢٤ ص ٣١٧ - ٣١٩ .

(٢) كلية ودمنة (طبعة عزام) ص ٢٠٦ .

تريد أن تعلم الناس حتى يمهرُوا ، وتعلمنى أيضا حتى أكون ماهرا ، ينفلت منه الفيلسوف أيضا ولا يقر بذلك - مع أن قول الملك هو الحقيقة - ويحاول أن يذكر له أمثلة أخرى غير ما ذكر الملك وما اعتقد .

ونلاحظ على العناصر التى احتوت عليها أجوبة الفيلسوف أن بعضها مكرر ، وبعضها عناصر من الطبيعة كقوله : أربعة الحقد فيهم ثابت : الذئب والحروف ، والسنور والجرذ ، والبوم والغربان ، والبازى والذراج^(١) . أو « أربعة يخافون بما لا ينبغي : الطائر الصغير ... والكركى ... والدودة ... والخفاش ... » ، وبعضها يتخذ عناصر مما يتكون منه المجتمع الإنسانى ؛ غير أنه أكثر من المرأة وصفاتها وأخلاقيها وبخاصة ضرب المثل بالمرأة الفاجرة « رقم ٢٧ . صفات المرأة التى هى حقيق أن يحزن عليها ، رقم ٢٥ ، رقم ٢٨ ، رقم ٢٦ ، رقم ١٨ والمرأة التى تذكر أنها عذراء وليست بعفيفة ولا حصان . ومن أفراد المجتمع أيضا بطانة الملك ، والملك - وبخاصة السريع الغضب كما فى رقم ٤٢ « سبعة لا يزالون فى سخط : الملك السريع الغضب الضيق الصدر غير المتشد ، . وفى رقم ٤٤ « ... والملك فى الغضب كيف يكون حله وعله ، وفى رقم ١٣ « ... الملك الحقود الهذر فى القول ، وفى رقم ٣٥ « ... والملك الذى يأتى المعروف إلى كل غامط كفور منكر لكل ما يصنع ، وفى رقم ٣٢ « ... والملك بكرم العبد ، وفى رقم ٢٥ « ... والملك الذى يهتم بالأمر العظيم ويرتكبه . وتمتلى أجوبة إبلاد أيضا بحكم رائعة صادقة كما فى رقم ٢٧ ، ٣٠ ، ٣١ مثلما ذكر فى رقم ٣٠ « أربعة لا يخالط بعضهم بعضا : النهار والليل ، والبر والفاجر ، والظلمة والنور ، والخير والشر ، ١ .

وأخيرا فإن عبارة من عبارات الفيلسوف فى هذا الحوار لا تكاد تخلو من الكلام فى الأخلاق وكيف تكون .

(١) المرجع السابق (طبعة عزام) رقم ٣١ .

وإن طريقة كاتب هذه القصة وكاتب هذا الحوار التفريعي، لنذكر في بطريقة كان يمارسها الأمير الشهابي - الذي كان معاصراً لمحمد علي الكبير - وإلى مصر - إذ كان إذا سئل السؤال ولم يعجبه أو لم يرد الرد عليه، تظاهر بأنه لم يسمعه أو لم يفهمه وأجاب - بكل ثبات - على سؤال آخر لا يمت إلى هذا السؤال بصفة وقد اتبع هذه الطريقة مع جميع السياسيين المعاصرين له وبذلك كان يسخر منهم سخرية لازعة من غير أن يحرك ساكناً^(١).

وليست هذه القصة التي حللتها وعلقت عليها فيما سبق هي القصة الوحيدة الساخرة في كيلة ودمته، بل هناك الكثير مما يمكن أن يدخل في هذا النوع من السخرية المسمى بسخرية الحوادث Irony of events مثل «بائع السمسم»^(٢) وسارق الثوب والبر^(٣) والسارق راكب الشعاع^(٤) وقصة القدر الذي لا بد أن يصيب الإنسان كالرجل الذي هرب من الذئب في البحر ثم وقع عليه الجدار^(٥) وإن على رأس هذه القصص اثنتين هما قصة القرد والقيلم وسخرية القرد بأنه ترك قلبه فوق الشجرة^(٦) وقصة الخمار الذي زعم الثعلب أنه ليس له قلب ولا أذنان^(٧).

وبعد، فإن هناك كلمة أخيرة في سخرية ابن المقفع: هي أنها سخرية جادة حزينة، ليست بالضحكة ولا بالحقبة، فهي أشبه بأن تكون صارمة؛ وبأن يكون منبهاً رجل مفكر عظيم التفكير، ونستطيع أن نطلق عليها السخرية الحكيمة أو الحكمة الساخرة، وهو لم يسلك في سخريته الأساليب الهلابة المختلفة كأسلوب الأمر أو النهي أو الاستفهام أو غيرها من الأساليب التي

(١) مجلة الاثنين سنة ١٩٤٨ من مقال للأستاذ حبيب جاماق بعنوان «تاريخ ما أهمله التاريخ».

(٢) كيلة ودمته ص ٨ (٣) المرجع السابق ص ٩، ١٠

(٤) المرجع السابق ص ٣٠-٣٢ (٥) نفس المرجع ص ٤٥

(٦) نفس المرجع ص ١٧٥ (٧) نفس المرجع ص ١٨١ من طبعة عزام.

ذكرت سابقا ، وذلك لأنه يخاطب ملوكا غاضبا فلا يستطيع أن يظهر له
هزأه في حالة حزنه ؛ وإلا قتله ، وكذلك فإنه كان يصدد أسلوب فلسفي ساخر
هو من طبيعة الفلاسفة كابن المنفج ، فلاغرو أن استخدمه ليكون في السخرية
والنصح في آن واحد ، كذلك فطبيعة ابن المنفج طبيعة الرجل العاقل المتزن
الرزين الذي تتجافى رذائته عن أساليب السخرية للعبوب الأخرى .

- ٤ -

الجاحظ

وننتقل الآن إلى كاتب يعد أكبر كتاب الدولة العباسية إن لم يكن أكبر
كاتب ظفرت به اللغة العربية ، وأعنى به الجاحظ .

وهو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثي الكنتاني ، ولد
في البصرة ، في سنة ١٥٩ أو سنة ١٦٠ هـ وقالوا : كان الجاحظ مولد أبي القلمس
عمرو بن قلع الكنتاني ، ثم الفقيمي ، ومنهم من أضاف إلى هذا : وهو كنان
قيل : صليبة ، وقيل . مولى . وكان جده أسود يقال له فزارة . وكان جمالا
لعمرو بن قلع الكنتاني .

هذا كل ما يعرف عن نسبه وأصله ، وهذه المعرفة لاتضيء ظلمة ، فإن
ناحية نسبه غامضة ^(١) . ولم يعرف من أقاربه إلا خاله - أو خال أمه كما قيل
في رواية أخرى - يموت بن المزرع ^(٢) الذي توفي سنة ٣٠٤ هـ وكان من
مشايخ العلم والأدب . أما أبوه فقد توفي وهو حديث السن ^(٣) .

حياته :

طلب العلم - وعو عبي - في الكتاب مع أولاد القضاة وغيرهم من

(١) الجاحظ : شفيق جبري ص ٣٥ (٢) أدب الجاحظ للمندوب ص ١١

(٣) الجاحظ : حنا الفاخوري ص ١٥ .

طبقات المجتمع ، ثم راح يتميش بعمل يديه فيبيع الخبز والسمك بالبصرة ، وهو لا يألو جهدا في طلب العلم ومطالعة الكتب ، وكانت البصرة أكبر حواضر العلم والأدب بعد بغداد ، يجتمع في مسجد طائفة من العلماء عرفوا بالمسجدين ، فجالسهم الجاحظ ، وأفاد منهم بفضل ذكائه المتوقد وحافظته القوية ، وتلقى الفصاحة عن خطباء العرب في « المريد » ، ومن العلماء الذين أخذ عنهم علومه : أبو عبيدة معمر بن المثنى ، والأصمعي ، وأبو زيد الأنصاري ، وأبو الحسن الأخفش ، وتخرج في علوم الكلام ومذاهب الاعتزال على أبي إسحاق النظام^(١) . وقد بلغ شغفه بالقراءة أن كان يكثرى حوائث الوراقين ، ويبيت فيها أحيانا للمطالعة . وبعد أن كان فقيرا تعيره أمه لعدم سعيه وراء رزقه وجريه وراء الكتب ، أصبح يصعد سلم الغنى رويدا رويدا ، حتى نال الجوائز السنية من الأمراء ، فأعطاه محمد بن عبد الملك الزيات خمسة آلاف دينار لما أهداه كتاب الحيوان ، ومنحه أحمد بن أبي دواد مثلها لما أهداه « البيان والتبيين » ، وأخذ كثيرا من الجوائز غيرها ، حتى أصبح يمتلك ضيعة بالبصرة ، وكان يمتنى الخدم ، وربما ابتاع من الخدم من كان يخدم أهل الثروة واليسار وأشباه الملوك .^(٢)

جمع هذا المال الطائش ، وتقلد جلائل الأعمال ، فقد صدر في ديوان الرسائل أيام المأمون ثلاثة أيام ، ثم إنه استعفى فأعفى . وكان سهل بن هارون يقول : إن ثبت الجاحظ في هذا الديوان أقل نجم الكتاب^(٣) . وكان يتقلد خلافة إبراهيم بن العباس الصولي على ديوان الرسائل . وبلغ من ارتفاع

(١) أدب الجاحظ للسندوني ص ٢٨ .

(٢) البيان والتبيين ٢ / ١٧٦ .

(٣) الجاحظ : لشفيق جبري ٣٩ .

شأنه ، وبجراحة عيشه أن سأل رجل عن حاله ، فأجاب : سألتني عن الجملة ، فاسمعها مني واحدا واحدا : حالي أن الوزير يتكلم برأبي ، وينفذ أمري ، ويؤثر الخليفة الصلات إلى ، وآكل من لحم الطير أسمنها ، وألبس من الثياب أفخرها ، وأجلس على ألبين الطبري ، وأتسكى على هذا الريش ، ثم أصبر على هذا حتى يأتي الله بالفرج ! فقال له الرجل : الفرّج ما أنت فيه ! قال : بل أحب أن تكون الخلافة لي ، ويعمل محمد بن عبد الملك بأمرى ، ويختلف إلى ، فهذا هو الفرّج ... (١)

وقد اتصل الجاحظ بكثير من عظماء الرجال في عصره ، فاتصل أول ما اتصل بابن الزيات ، وما أن غضب عليه المتوكل وأحرقه ، حتى أراد عدوه أحمد بن أبي دواد أن ينتقم من الجاحظ ، لانضمامه إليه ، فأرسل إليه وأنى به مكبلا ولكن ظرفه كان شفيعا لديه لأن يعفو عنه (٢) قائلا : أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه ! وعين اتصل بهم ومدحهم : إبراهيم بن رباح ابن شبيب الجوهري الكاتب ، وكان واليا على الأهواز ، وأبو الفرّج نجاح ابن سلة : وكان يكتاب جماعة منهم إبراهيم بن المدبر (٣) .

وقد فطن الجاحظ إلى أن الضرب في مناكب الأرض مشحذة للذهن ، مصقلة للخيال ، لما في مشاهد الطبيعة من مختلف الصور ، ومتباين الألوان ، مما يكون مادة لرجال العجّمية ، ولذلك فقد سافر إلى أنطاكية ودمشق ويقال إنه زار مصر أيضا (٤) .

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل للمبرد ٢٠٨ / ٢٤٨

(٢) معجم الأدباء لياقوت ٦ / ٥٨

(٣) الجاحظ : لشفيق جبري ص ٤٩

(٤) الحيوان ٤ / ٥١ ، ٥ / ١١٣

وأخيرا ، فقد أخذ هذا السراج الوهاج ، يخبر رويدا رويدا ، حتى أصيب بالفالج بعد أن بلغ الثمانين من عمره ، وقد قامى من ذلك كثيرا ، كما روى المبرد وأبو علي القالي : « كيف يكون من نصفه مفلوج لوحز بالمنشير ما شعر به ، ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه » (١) وتوفي في خلافة المعتز بالله سنة ٢٥٥ هـ بعد أن خبر كل أمر من أمور الدنيا ، خبر خشونة الحياة ونعيمها ، وامتنحن ذل السلطان وعزه ، وتقلد جلائل الأعمال وصحب أصاغر الناس وأكابرهم ، وذاق اللذات ، ومد الله في أجله طوال قرن كامل (٢) :

مؤلفاته وكتبه : —

وقضى الجاحظ أغلب حياته قارئا باحثا ، مطالعا على كل ما يصدر في عصره ، ولم كانت سخرية القدر به حينما كانت هذه الكتب التي ملأت جدران بيته السبب في هلاكه !

وكتب الجاحظ في كل موضوع تقريبا ، من الملعين إلى بنى هاشم ، ومن اللصوص إلى الذئاب ، ومن الكلام في صفات الله تعالى إلى القيان ، ومن القضاة والولاة إلى أمهات الأولاد ، ومن الإمامة إلى الحور والعور ، « فإن نحن قلنا إن كتبته دائرة معارف ، زمانه ، غير مرتبة على أحرف الهجاء ، ولا على أى أساس ، كان ذلك صوابا ! وهو في تأليفه أنيس محاضر تحرر من قيود كثيرة تقيد بها علماء عصره ، تحرر من التزام الجحد وثقل الغموض الذى كرهه من أستاذه الأخفش ، فهو دائما يخلط جدا بهزل ، ويسيفك

(١) أمالي القالي ١ / ٥ ، معجم الأدباء ٦ / ٧٩ .

(٢) الجاحظ : لشفيق جبرى ٥٧ ، ٥٨ .

القيمة الجافة بكثير من الحلوى ، ويجد ، حتى إذا أعدك للبكاء - رمال
ينادرة تمنع منها في الضحك^(١) قال المسعودي : ولا يعلم أحد من الرواة
وأهل العلم أكثر كتباً منه ... وكتب الجاحظ - مع انحرافه المشهور - تجلو
صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان ، لانه نظمها أحسن نظم ، ورصفها
أحسن رصف وكساها من كلامه أجزل لفظ ، وكان إذا تخوف ملل القاري .
وسامة السامع ، خرج من جد إلى هزل ، ومن حكمة بليغة إلى نادرة
ظريفة ،،^(٢) .

ألف في مواضيع المتكلمين مثل كتاب خلق القرآن وكتاب الرد على
المشبهة وكتاب في الرد على النصارى وكتاب الاعتزال ، وكتاب الإمامة .
وكتب في موضوعات سياسية تاريخية : ككتاب العرب والموالى ، وكتاب
العرب والعجم ، ورسالة في فضائل الأتراك ، وكتاب السودان والبيضان ،
وألف في الأخلاق التي كان يشعر بها في عصره وطبقات الناس : فألف كتاب
البخل والسُلطان وأخلاق أهله وكتاب الجوارى والحاسد والمحسود وألف
في النبات كتاب الزرع والنخل وألف في الحيوان كتاب الأسد والذئب وكتاب
البغال وكتاب الحيوان .

وألف في الفكاهة والنوادر - علاوة على ما بثه منها في كتبه السابقة - :
كتاب نوادر الحسن ، كتاب الملاح والطرف ، كتاب المضاحك (ذكره
أبو منصور البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق ، كتاب المزاح والجدة ،
كتاب فرط جهل الكندي ، كتاب الترييع والتدوير^(٣) .

(١) ضحى الإسلام ١ / ٤١٠ .

(٢) مروج الذهب ٢ / ٣٤٤ .

(٣) انظر أدب الجاحظ للسندوب من ١١٦ - ١٤٤ ومجموعة الروائع عدد ١٩

صفاته :

كان جد الجاحظ عبدا أسود ، فلا بدع أن يرث حفيده شيئا من خلفه ،
فيأتي دميم الهيئة ، بشمع المنظر ، قصر القامة ، نأق العينين ، وعلى هذا دعى
بالجاحظ ، والحدق ، فغلب عليه اللقب الأول . وهو في بعض الأحيان
يذكر بعض أخبار في قبج صورته على سبيل التفكهة ، فمارواه : ذكرت
المتوكل لتأديب بعض ولده ، فلما رآني استشبع منظري ، فأمر لي بعشرة
آلاف درهم ، وصرفني ،^(١) وقال أيضا : « ما أخجلني إلا امرأتان : رأيت
إحداهما في العسكر ، وكانت طويلة القامة ، وكنت على طعام ، فأردت أن
أمازحها ، فقلت : انزلي كلى معنا ! فقالت : اصعد أنت حتى ترى الدنيا !
(معرصة بقصره) .

وأما الأخرى ، فإنها أتتني ، وأنا على باب داري ، فقالت : لي إليك
حاجة ، وأنا أريد أن تمشي معي . فقمت معها إلى أن أتت بي إلى صائغ هودي
فقالت له : مثل هذا ، وانصرفت . فسألت الصائغ عن قولها ، فقال : إنها
أتت إلى بفص ، وأمرتني أن أنقش عليه صورة شيطان ، فقلت : ياسيتني .
ما رأيت الشيطان ، فأنت بك !^(٢) وقد هجاه بذلك أحد الشعراء فقال :

لو يمسح الخنزير مستخائنا ما كان إلا دون قبج الجاحظ .

وقد عوضه الله خيرا من قبج المنظر سرعة حافظة ، ووفرة ذكاء ،
والظاهر أن فقره الذي بدأ به حياته ، وقبح منظره وقصر جسده الذي عرف
به قد هياه لأن ينسكب على المكتب انكبأبا ، حتى يزيل بتفوقه في العلم والأدب

(١) أدب الجاحظ للسندوب ص ٢٧

(٢) المرجع السابق ص ١٦٦ .

ما كسى به من سوء المنظر . وقد طبعته خلقة - كما مثاله من غالية المشوهين - بطابع الظرف والفكاهة ، فهو أشبه في ذلك بإمام العبد الأديب المصرى الذى عاش فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين والشيخ عبد العزيز البشرى الذى كان دميما ، والممثل الهزلى على الكسار الذى طالما أضحك الملايين وقد ساعده على ذلك سمرة بشرته وخلقه الخاصة .

وكان الجاحظ أميل إلى التفاؤل منه إلى التشاؤم ، وينظر إلى الأمور كما هى فى واقعها كما ينظر إلى الناس نظر الخبير بطباعهم وأخلافهم ، فيحاسب الكبراء دون إسفاف ، ويحتمل مخاشنتهم ، تفاديا لشهرهم ، ويحتمل عن الأشرار طبعاً وتطبعاً ، ويتعدى عن الحاسدين للتخلص من شرهم . وكان يحب اللهو وسماع القيان والمغنين ، لا يأنف إلا بما يضيع الوقت سدى^(١) . وكان فكها يحب الفكاهة ، ويتطلبها ، حتى فى أقدس المواقف وأوفر المواضع خطراً وأهمية ، وله ولوع شديد بالضحك والإضحاك ، ، فمما يدل على اهتمامه بالضحك واستحسانه له قوله : « ولو كان الضحك قبيحاً من الضاحك ، وقبيحاً من المضحك ، لما قيل للزهرة والحبرة والحلى والقصر المبنى : كما أنه يضحك ضحكاً ، وقد قال الله جل ذكره : « وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيى ، فوضع الضحك بحذاء الحياة ، ووضع البكاء بحذاء الموت ، وإنه لا يضيف الله إلى نفسه القبيح ، ولا يمن على خلقه بالنقص ، وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيماً ، ومن مصلحة الطباع كبيراً ، وهو شئ فى أصل الطباع ، وفى أساس التركيب ، لأن الضحك أول خير يظهر من الصبي ، وقد تطيب نفسه ، وعليه يذبت شحمه ويكثر دمه ، الذى هو علة سروره ومادة قوته ، ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمى أولادها بالضحاك

(١) الجاحظ : حنا الفاخورى ص ٢٠

وببسام وبطلق وبطليق ، وقد ضحك النبي ﷺ وفرح ، وضحك الصالحون وفرحوا ، (١) وقد ذكر أيضاً أن من فرائد الضحك أنه يساعد على هضم الطعام (٢) . وما يدل على ميله إلى الفكاهة معايشة المرأة والتعريض بطورها بقوله : انزلى كلى معنا . وجاءه يوماً بعض الثملاء ، فقال : سمعت أن لك ألف جواب مسكت ، فملنى منها . فقال : نعم : فقال : إذا قال لى شخص : يازوج الفحبة ، يا فقيل الروح ، أى شيء أقول له ؟

قال : قل له : صدقت ! (٣)

وكان الجاحظ يأكل مع محمد بن عبد الملك الزيات ، فجأوا بفالودجة ، فتولع محمد بأبي عثمان الجاحظ ، وأسر بأن يجعل من جمته مارق من الجام ، فأسرع فى الأكل فتتظف ما بين يديه ، فقال ابن الزيات : تقشعت سماؤك . قبل سماء الناس ! فقال الجاحظ : لأن غيمها كان رقيقاً (٤) .

ومن فرط شغف الجاحظ بالفكاهة أنه كان يخاطب أهل الهزل ، ويروى من النوادر ولوعه على نفسه كقوله : دأما الذى أصابنى أنا من الذبان ، فإنى خرجت أمشى فى المبارك (٥) أريد دير الربيع ، ولم أقدر على دابة ، فررت فى عشب أشب ، ونبات ملتف ، كثير الذبان ، فسقط ذباب من تلك الذبان على أنفى ، فطرده ، فلم أقدر ، فتجول إلى عيني فطرده ، فعاد إلى موق عيني ، فزدت فى تحريك يدي ، فتنحى عني بقدر شدة حركتى ، وذنب عن عيني ولذبان الكلا والغياض والرياض وقع ليس لغيرها ، ثم عاد إلى ، فعدت عليه ، ثم عاد إلى ،

(١) كتاب البخلاء ص ٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٨ .

(٣) أدب الجاحظ للسندوني ص ١٦٩ .

(٤) المرجع السابق ص ١٧١ .

(٥) أى مبارك الإبل .

فعدت بأشد من ذلك ، فلما عاد ، استعملت كفى ، فذبيت به عن وجهى ، ثم عاد وأنا فى ذلك أحث السير ، أو مل بسرعتى انقطـاعه عنى ، فلما عاد ، نزع طيلسـانى عن عنقى ، فذبيت به عنى بدل كفى ، فلما عاود ، ولم أجد له حيلة استعمات العدو ، فعدوت منه شوطاً تاماً لم أتسكف مثله منذ كنت صبياً ، فتلقتنى الأنداسى ، فقال لى : مالك يا أبا عنبان ؟ هل من حادثة ؟

قلت : نعم ، أكبر الحوادث ، أريد أن أخرج من موضع اللذبان على فيه سلطان ! فضحك حتى جلس ، وانقطع عنى ، وما صدقت بانقطاعه عنى حتى تباعد جداً ! (ونلاحظ التلميح فى استعماله السجع فى نهاية نادرته : اللذبان على فيه سلطان) .

الجاحظ السـاخر :

عرفنا شخصية الجاحظ ، ورأينا إلى أى حد كان مشوه الصورة : فنجوئ عيـنيه ، وسواد بشرته ، وقصر قامته : كان كل ذلك يلفت الأنظار إليه ، كذلك فإن شعوره بالنقص لإحساسه بأصله البسيط ولنشأته الفقيرة كل ذلك قد بث فى نفسه الشعور بالنقص ، ومن ثم فقد حاول أن يعالج نفسه عن ذلك الدرك الأسفل الذى ولد فيه ونشأ . وقد اكتشف فى نفسه - منذ الصغر - ميله إلى الاطلاع والقراءة ، ميلاً جعله يصبر على أن يجلس نفسه الزمن الطويل فى القراءة ، تلك الوسيلة التى كانت تدفعه دفعاً إلى التفوق ، وكما أنه تنقل بين معارف شتى ، فكذلك أخذ يختلط بأناس كثيرين فى عصره : ينتقل من طبقة إلى أخرى ومن بلد إلى آخر ، زد على ذلك أنه عمر دهرأ طويلاً ، فكان لا يمر عليه يوم إلا ويزداد فيه معلومات ، ويمتلئ فيه بالتجارب ، ويكتشف رويداً رويداً متناقضات الحياة التى يحياها الإنسان : أولها ذلك الحظ الذى لا يسير بين الناس بالمنطق الذى يرضاه العقل الإنسانى : فأننا نرفع من لا يستحق رفعه ولا يضمح إليها ، وأننا نأخر يهبط بمن يريد الارتفاع .. كل ذلك

قد ولد في نفسه العجب والدهشة والتفكير الطويل من تلك المتناقضات التي مالبث أن ابتسم لها، ثم بدأ يوطن نفسه على ألا يهتز لها اهتزازاً عاطفياً أو يتفاعل بسببها، بل حسبها منها، وحسبها منه أن ينظر إليها نظرة السخرية، وتلك دائماً خاتمة مطاف كبار الفلاسفة والمتأملين في تلك الحياة العجيبة المتناقضة، وفي ذلك الزمن المليء بالمفاجآت والغرائب! ولعله قد ورث الاستعداد للسخرية عن تلك الأم التي سخرت به منذ صغره حينما تعبت في محاولة ثنيه عن القراءة، والانكباب على الاطلاع إلى عمل يكسب منه قرته، فقدمت إليه ساخرة - لما طلب منها طعاماً - طبقاً عليه بعض السكراريس!

وإذا به يرد عليها بنفس الأسلوب، حينما خرج مقتماً، وجلس في الجامع، فمرف قصته موسى بن عمران، فأعطاه خمسين ديناراً فاشتري الدقيق وغيره، وحمله الخمالون إلى داره، فلما أنكرت الأم ذلك وسألته عن مصدره، قال: من السكراريس التي قدمتها إلى^(١).

وقد بلغت به السخرية حداً جعلته لا يأبه أن يروى عن نفسه استبشاع جارية منظره واصطحابها إياه إلى صانع لكي يرسم لها صورته - صورة عفريت - على خاتما! أو أن يعترف برفض المتوكل بحالته، ومنحه بعض الدنانير، تطييباً لحامله مع أن هذا الخليفة قد تمنى رؤية أبي العيناء الأعمى! ومن كانت هذه حالته وتلك طبيعته، فلا عجب أن يمتزج به المجنون والفكاهة امتزاجاً يجعله يعبت بكثير ممن صادفهم في حياته^(٢). ولعله قد اتخذ هذا الأسلوب في الحياة ترويحاً عن نفسه لما شعر به من محاولة التضيق عليه ممن كانوا يحسونه حسداً جعله آناً ينسب كتبه إلى غيره كما اعترف غير مرة - مع

(١) أحمد بن يحيى بن المرتضى: ذكر المعتزلة طبعة حيدرآباد ص ٣٨.

(٢) انظر الحدوان ٢ / ١١٢، ١٠١.

أن النتائج الفنى كالولده ، يعز على الإنسان نسبته إلى غيره - وأنا آخر يحاول أن يداريهم ويصابعهم ومرة ثالثة يؤلف رسالة عنهم .

وما يروى عن تماجنه وسخريته أنه قال ما جئنا سـاخرأ بنفسه : نسيت كـينيتى .

ولا شك أنه عرف ما يدور حول الوظائف الكبرى من حسد ودس ووشايات - وهو رجل لا قبل له باحتمال ذلك - ولهذا فقد رفض ذلك المنصب الخطير الذى عرضه عليه المأمون - رئاسة الكتاب - ولم يمكث فيه إلا ثلاثة أيام ، خوفاً من الحاسدين من جهة ، ولحبه للحرية وانطلاقه فى ذلك الجو الذى طبع عليه وخلق له : وهو التحلل من القيود التى يتقيد بها الناس لما تفرضه عليهم طبيعة وظائفهم ، وميله إلى النقد المستمر ، وخصوصاً النقد الساخر الذى طبع عليه ولا قبل له بمفارقتة أو انتزاعه من نفسه^(١) ومن عبثه الساخر - الذى يدل على حبه لهذا الأسلوب دائماً - تلك القصة التى رواها ابن عساكر فى تاريخه وهى : دخل رجل على الجاحظ فقال له : يا أبا عثمان ، كيف حالك ؟ فقال الجاحظ : سألتنى عن الجملة فاسمعها منى واحداً واحداً : حالى أن الوزير يتكلم برأى وينفذ أرى ويؤاثر الخليفة الصلات إلى ، وآكل من لحم الطير أسممها ثم أصبر على هذا حتى يأتى الله بالفرج !

فقال له الرجل : الفرّج ما أنت فيه . قال : بل أحب أن تكون الخلافة لى ، وهمل محمد بن عبد الملك بأمرى ، ويختلف إلى ، فهذا هو الفرّج^(٢) ! فهو يتكلم بهذه العبارات تماجناً كماداته ، مصوراً طموحه الذى لا يستحق منه إلا السخرية . . . ومن "طبيعى أن يقول تلك العبارات وهو

(١) شفيق جبرى : الجاحظ ص ١٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢ .

يعرف تمام المعرفة ويعرف الناس معه أنه يقولها على سبيل السخرية ،
ولما استطاع أن يتفوه بها ، وأن تشيع عنه فيتحدث بها في مجالس
الخليفة وابن الزيات ، وإلا لهدمت الأرض من فوقه جزاء هذا
التهور وهو يشبه في سخريته بنفسه الممثل الساخر « نجيب الريحاني » ،
حينما سأل الأطباء - وهو على فراش المرض - عن أسانه لكي يطمئن على
صحته - بعد قصه - فلم يجيبوه خرفا عليه من التأثر ، وإذا به يقول لهم ساخرا :
« أنا عارف إنه وسخ وطول عمره وسخ » ، وما يدل على عبثه - مع أنه
أصبح كبير الكتاب - عبثه بأبي العيناء حينما أسر إلى حاجبه بالأيده يخرج
ولا يمكنه من الرجوع إليه ، فلما خرج أبو العيناء من بين يديه ، وصار في
الدهليز حجزه وضيق عليه . فنادى بأعلى صوته . يا أبا عثمان ، قد أريتنا
قدرتك ، فأرنا عفوك^(١) . ونا يدل على ذلك قصصه التي رواها عن
نفسه^(٢) .

وقد لبس الجاحظ لباس الساخر حتى في تأليفه الذي لا يتصل بذلك ،
إذ كثيرا ما يؤلف الكتاب مدحا في قوم أو رأى أو مذهب من المذاهب
ثم يوافي الآخر في مدح أعداء هؤلاء القوم أو تحييد الرأي أو المذهب
المخالف لما مدح أو أثني عليه ، وهو في الحقيقة لا يمدح أو ينقض مدحه ،
لأن غايته من وراء هذا وذاك هو العبث بكل تلك الطوائف المتعددة في الحياة
والتي تتناحر على شيء لا يستحق التناحر ، وتتفاخر بأشياء لا تستحق أن
يفتخر بها ، ومن أجل هذا عابه ابن قتيبة - عصبية عليه وكرامية له - إذ قال :

(١) أنظر زبادر أبي العيناء للمؤلف .

(٢) أنظر أدب الجاحظ للسندوني ص ١٧٠ ، ١٧١ ورسالة البخلاء ص ٦٠ ،

ونجده في كتيبه يتصد للمضاحيك والعبث^(١) وفطن المسعودى إلى ذلك فقال:
« ولم يصنف الجاحظ هذا الكتاب - وهو كتاب الاحتجاج للراوندية -
ولا استقصى فيه الحجاج للراوندية - وهم شيعة ولد العباس - لأنه لم يكن
مذهبه ، ولا كان يعتقده ، لكن فعل ذلك تماجنا وتطربا^(٢) » ، ويقول أيضا :
« وقد صنف أيضا كتابا استقصى فيه الحجاج عند نفسه ، وأيده بالبراهين ،
وعضده بالأدلة فيما تصور من عقله ، ترجمه بكتاب العثمانية يحل فيه عند نفسه
فضائل علي^(٣) ومناقبه ، ويحتج فيه لغيره طلبا لإماتة الحق ومضادة أهله ... ثم
لم يرض بهذا الكتاب المترجم بكتاب العثمانية حتى أدقبه بتصنيف آخر في
إمامة المروانية وأقوال شيعتهم^(٤) » .

وهكذا نرى الجاحظ لا يأبه بما يدور حوله من تطاحن الناس فيعبث
بهم ، منجازا أو متظاهرا بأنه ينحاز إلى تلك الطائفة مرة ، ثم إلى ضدها
مرة أخرى ، وإذا عرفنا هذا ، عرفنا السبب في تأليفه الكتاب وعكسه ،
كما نراه يؤاف كتابا في ذم أخلاق الكتاب وآخر في مدحهم أو لدل الذي
سأعده على ذلك حبه أو غرامه بالجدل والحجاج الذي اكتسبه من طول
دراسته لعلم الكلام ، وكذلك لطبيعته التي تميل إلى شيء قليل أو كثير من
التجمل من القيود والاستمتاع بملاذ الحياة وأطايها ، ولم يكن يتورع - زيادة
في الواقعية - أن يذكر أفاظ العورات والفعل الجنسي أو العملية الجنسية
كقوله : أربعة أشياء مسوخة : أكل الرز البارد : ... في الماء ، والقبل
على النقاب ، والغناء من وراء الستار^(٥) ولعل كثيرا من أعدائه قد شكوا

(١) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٨٧

(٢) مروج الذهب ١٦٨/٢ (٣) المرجع السابق ١٢٠/٣

(٤) أدب الجاحظ للسندري ص ١٧٥ وانظر رسالته مفاخرة الجوارى والغلمان

في أكثر من موضع .

(٥) م ٢١ - السخرية)

في عقيدته لمثل هذه العبارات ولعدم تأدية الفرائض ومنها الصلاة ، ولما أخذوه عليه من صفة «الوضع» ، في الحديث وقد اعترف أبو العيناء بأنه وضع هو والجاحظ حديث فذلك^(١) .

والحق أن طبيعة ميله إلى «الوضع» التي سرت في دمه وروحه ليست لها غاية دينية وضيعة - كالشعوبية وغيرهم - بل هي طبيعته الأدبية التي يساعد عليها ويخلقها جموج الخيال وحب الفن الذي يجعله لا يأبه ، ذلك بالحقائق - كما يراها الناس - أحيانا^(٢) . قال الدكتور طه الحاجري : « والجاحظ لم يكن يتخرج - لغاية في نفسه - من أن يكتب الكتاب ، ثم ينسبه إلى غيره ، وما كانت هذه الغاية إلا نوعا من العبث بخصوصه ، أو الرغبة في إذاعة ما يكتبه وترويجه ، ومثل هذا لا يبلغ مبلغ ذلك الحافز الفني الذي يحفز به إلى وضع الأحاديث لإرضاء لتلك النزعة الغالبة عليه^(٣) ، وسنتكلم عن وضع الأحاديث وغيرها حين الكلام عن كتاب «البخلاء»^(٤) .

سخر الجاحظ :

وقد سخر الجاحظ - أول ما سخر - من أصدقائه ، حتى قال السندوبي : «وهو أول من استباح لنفسه التندر بالأصدقاء والإخوان تارة بالتليح وذكر الصفات ، وأخرى بالتصريح وإبانة السمات ، ففقد عليهم أنفاسهم ، وخلد غرائب أطوارهم وعجائب تصرفاتهم ، وشواذ أغراضهم .. وعرض

(١) مقدمة نوادر أبي العيناء الطبعة الأولى ص ١٢

(٢) وجاء عنه في جمع الجواهر للحصري ص ١٢١ « والجاحظ صنع هذه الأشعار للموضع هذه الأخبار ، وكان قديرا على الشعر ،

(٣) البخلاء (طبعة المعارف) سنة ١٩٥٨ ص ٢٨

(٤) انظر ص ١٦٥ من هذا المبحث .

لأخذهم بأغلاطهم وقلقات أسنتهم ومساوىء أعالهم ، وقد يجابه من شاء منهم بالنقد والذع والتجريح غير عابىء بعتبهم ولا معتد بلأئمتهم^(١) .
وإننا نستطيع أن نقسم نقد الجاحظ وسخريته من ناحية الموضوع إلى تلك الأقسام :

أولاً : نقده الأحاديث الموضوعية ورفضه الخرافات وتفسير بعض آى القرآن بها ، وذلك لأنه عالم معزلى مدق لا يستمع إلا لصوت العقل وحده .

ثانياً : انتقاده العيوب الشائعة فى عصره وعلى رأسها التطفيل والبخل والصوصية .

ثالثاً : انتقاده بعض الطوائف كالأقضية والمعلمين .

* * *

أولاً - التفسير والخرافات :

ولتحكيمة العقل ، فقد خرج عما يعتقده الجمهور فى تفسير بعض الآيات كمنقده تفسير رؤوس الشياطين بشمر شجرة تكون ببلاد اليمن لها منظر كرية^(٢) أو تفسير « وطلع منضود » أن الطلح هو الموز^(٣) . وتعرض الجاحظ لبعض المفسرين الذين قد يتصورون تصورات غريبة ، فقال : « وزعم بعض المفسرين أن السحور خلق من عطاسة الأسد ، وأن الخنزير خلق من سلحة الفيل ، لأن أصحاب التفسير يزعمون أن أهل سفينة نوح لما تأذوا بكثرة الغار ، وشكوا إلى نوح ذلك ، سأل ربه الفرج ، فأمره أن يأمر الأسد فيعطس ، فلما عطس خرج من منخره زوج سنابير من ذكر

(١) أدب الجاحظ ، للسندوني ص ٢٠٠ . (٢) الحيوان ٦/٦٤ .

(٣) الحيوان ١/٦٨ .

وأنتي ، خرج الذكر من المنخر الأيمن ، والأنتي من المنخر الأيسر ؛ فكفاهم مؤونة الجرذان ؛ ولم تأذوا برائحة نجوهما شكوا ذلك إلى نوح ، وشكا ذلك إلى ربه ، فأمره أن يأمر القليل فيسلمح ، فسلح زوج خنازير ؛ فكفياهم مؤونة النجر ، وهذا الحديث نافي عند العوام وعند بعض القصاص (١) .

ويظهر تهكم الجاحظ ببعض المفسرين من مجرد ذكره لتفسيرهم ، ومن هذا النوع قوله على لسان كيسان تعليقا على قوله المفسرين السابق : « فينبغي أن يكون ذلك السنور آدم السنائير ؛ وتلك السنورة حواء (٢) » ،

قال شفيق جبري : « للجاحظ أسلوب في التهكم على بعض أهل التفسير والتأويل بسيط جدا ، وقد بلغ من بساطته أنه لا يكاد يظهر عليه أثر الاستهزاء والسخرية ؛ فهو بدس هذا التهكم دسا دون أن يظهر على بيانه ، فبدلا من أن يتعرض لهذه الطائفة من العلماء تعرضا ، وبجاد لهم جدالا ، يكتفي في أكثر الأوقات بالدلالة على آرائهم والإشارة إلى مذاهبهم ولكن هذه الإشارة مهما تكن خفية ، ومهما تكن رمزا ، لا تخلو من روح التهكم ، فبينما الجاحظ مثلا يمدح قوله في باب من أبواب العلم ، كباب ما يعتري الإنسان بعد الخصاص وكيف كان قبل الخصاص ، وبينما يفيض في هذا الباب في أمور علمية ، إذ يعرض له رأى من الآراء التي لا يؤيدها العلم ، فيكتفي بالتنبيه عليه (كقصة خلق السنور لتأذى أصحاب نوح بالفأر) ثم يردف هذا القول كلامه على لسان كيسان (الذي ذكرته آنفا (٣)) أن مجرد ذكره لأشياء هذه الآراء في أثناء بحثه عن أمور مبدئية على العلم والعقل كاف للدلالة على سخريته بأصحابها ، فكأنه يغمز بعينيه غمزا ؛ فهو لا يتولى الطعن على هذه الآراء والمذاهب ، وإنما يكفى نفسه مؤونة هذا الطعن بتركه

(١) الحيوان ١٠٦/٥ وانظر ١٤/٦ ، ١٥٣/٥ ، ١٦٢/٦ .

(٢) المرجع السابق ٦٧/١ .

(٣) الجاحظ لشفيق جبري ص ٢٠٤ ، ص ٢٠٥ .

للقارىء حق الحكم على مثل هذه الآراء ؛ وهذا الأسلوب على نزاهته الظاهرة لا يخلو من مهارة وحذق . فإن الجاحظ لا يتبرلى فيه التشنيع والتهجين ، وإنما يجر القارىء جراً إلى هذا التشنيع وإلى هذا التهجين (١) .

ثانياً : العيوب العامة :

١ - كتاب البخلاء

موضوع الكتاب :

حاولت أن أجيب عن هذا السؤال قبل قراءة الكتاب وبعده : إلى أى حد تتفق الأخبار التى أوردها الجاحظ عن البخلاء مع الواقع ؟

إنه يروى تلك الأخبار فى كثير من الأحيان عن بعض من عاصرهم كشاهد عيان أو بطريق رجال آخرين : كما قال فى أحد المواضع : « وكنت أنا وأبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام ، وقطرب النحرى ، وأبو الفتح مؤدب منصور بن زياد على خوان فلان بن فلان ... الخ » ، ويضرب مثلاً للشرع الآخر من الرواية : « وحدثنى صاحب لى قال ... » ، وفى موضع آخر من الصفحة نفسها : « وحدثنى عما حب مسلحة باب الكرخ قال ... » ، وفى بعض الأحيان لا يسمى من يحدثه كالمثاليين السابقين ، وفى كثير من الأحيان يسمى من ينقل إليه الخبر كقوله : « حدثنى أبو الجهماء النوشرائى قال ... » (٢) ، وهناك كثير من هذه الأسماء حاول محققو البهلاء وآخرهم الدكتور الجاجرى معرفة أشخاصها فلم يوفقوا : إما لعدم اهتمام المعاصرين لهم بالكتابة عنهم ، وإما لأنهم أشخاص وهميون

(١) انظر الحيوان ٩٩/٤ . (٢) البهلاء (دار المعارف) ص ٥٤

(٣) المراجع السابق ص ٤٤ . (٤) المراجع السابق ص ٤٥

اختلقهم الجاحظ. اختلافا كما شك في ذلك الدكتور الحاجري بصدد شخصية
«أبي الفانك»، و«الثوري»، وغيرهما^(١).

ومهما يكن الأمر في مدى صدق الجاحظ في تلك القصص والأخبار
التي ينسبها إلى المعاصرين له والسابقين عليه سواء رآها حقا أو سمعها عن كان
يجلس إليهم أو نقلها عما قرأ، مهما يكن الأمر في ذلك، فإن هذه الأخبار
أو القصص قد كتبت - ولا شك - بأسلوب الجاحظ، وحتى ما يمكن أن
يكون قد رواه عن أهل عصره بلسانهم حقيقة - فلا شك أنه قد بدل فيه
التبديل الذي يخضعه لأسلوبه أو الذي يجعله طيعا لقلبه، فيصهره ثم يلونه
كما يشتهي: والدليل على ذلك أمران:

أحدهما عدم الاختلاف بين أسلوبه فيما قاله بلسانه ورواه في البخلاء
وغيره من الكتب التي صنفها، وعما رواه ونسبه إلى أحد معاصريه،
كهل بن هارون في رسالته وكان التوهم في رده وفي تحامله على البخلاء.

ثانيهما: عندما عرضت للأحاديث النبوية التي استشهد بها الجاحظ -
وهي كثيرة تربو على المائة - وجدته لا يرويها بلفظها غالبا - وأغنى بها كما
هوت في كتب الأحاديث الصحيحة - بل يخضعها لقلبه، ومن كان هذا شأنه
في أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - فأولى به أن يصوغ ما يرويه
حسب هواه، أو بعبارة أخرى تبعا لروحه واستجابة لغرضه في التحدث
عن البخلاء والرواية عنهم.

وللتدليل على ما قلناه عن أسلوبه - الذي يكاد ينساب في كتاب البخلاء
من أوله إلى آخره - أنه يمتاز بمدة ميزات لا يكاد يخلو منها موضع
في الكتاب: وأظهر هذه الميزات التي لا تخفى على فطنة القارئ العادي

ولوعه بتشقيق الكلام أو الخروج من جملة إلى جملة منشقة عنها وتبعها هكذا
الجل التوالى لها : فهو فى كتاب الحيوان ، يحاول أن يعدد مساوىء الفأرة ،
فبدلاً من ذكرها فى جملة أو اثنتين أو عدة جمل ، فإنه يستفيض فى ذلك
لسعة خياله ومحاولة الإحاطة أو الشمول بذاكرته الغزيرة للموضوع وبذلك
تندفق المعانى عليه فى إطناى غريب فيقول فى معرض التهمك بزرادشت
وفى اعتقاد المجوس بمساوىء الفأر :

« ويزعّم زرادشت - وهو مذهب المجوس - أن الفأرة من
خلق الله ، وأن السنور من خلق الشيطان - وهو إبليس - وهو أهرمن ،
فاذا قيل له : كيف تقول ذلك ، والفأرة مفسدة ، تجذب فتيلة المصباح ،
فتحرق (١) بذلك البيت ، والقبائل الكثيرة ، والمدن العظام ، والأرباض
الواسعة بما فيها من الناس والحيوان والأموال ، وتقرض دقاتر العلم ،
وكتب الله ، ودقاتق الحساب والصكك والشروط ، وتقرض الثياب ، وربما
طلبت القطن لتأكل بذره ، فتدع اللعاف غربالاً ، وتقرض الجرب ،
وأوكية الأسقية ، والأزقاق ، والقرب ، فتخرج جميع ما فيها ، وتقع فى
الآنية وفى البئر ، فتموت فيه ، وتحوج الناس إلى مؤن عظام ، وربما عضت
رجل النائم ، وربما قتلت الإنسان بعضتها ، والفأر بخراسان ربما قطعت
أذن الرجل ، وجردان أنطاكية تعجز عنها السناير ، وقد جلا عنها قوم ،
وكرها آخرون لما كان جردانها ، وهى التى فجرت المسناة ، حتى كان ذلك
سبب الحسر بأرض سبأ ، وهى المضروب بها المثل ، وسيل العرم بما تورخ
بزمانه العرب ، والعرم المسناة ، وإنما كان جرداً ، وتقتل النخل والفسيل ،
وتخرب الضيعة ، وتأتى على أزمة الركاب والخطم ، وغير ذلك من
الأموال الخ (٢) »

(١) هنا يبدأ فى تشقيق الكلام أو فى تعديد النتائج المختلفة المترتبة

(٢) الحيوان ٩٩/٤

على الحريق .

ونجد من هذا الضرب الذى ذكرنا من كتاب الحيوان ، مثله حينما يتحدث عن الضحك وفوائده فى أول البخلاء :

« وإذا كان البكاء - وما دام صاحبه فيه فإنه فى بلاء ، وربما أعمى البصر ، وأفسد الدماغ ، ودل على السخف ، وقضى على صاحبه بالهلع ، وشبه بالآمة الكماء ، وبالحدث الضرع كذلك . فما ظنك بالضحك الذى لا يزال صاحبه فى غاية السرور إلى أن ينقطع عنه سببه ، ولو كان الضحك قبيحا من الضاحك وقبيحا من المضحك ، لما قيل للزهرة والحبرة والحلى والقصر المبني : كأنه يضحك ضحكا . وقد قال الله جل ذكره : « وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيى » فوضع الضحك بحذاء الحياة ، ووضع البكاء بحذاء الموت ، وإنه لا يضيف الله إلى نفسه القبيح ، ولا يمن على خلقه بالنقص . وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيما ، ومن مصلحة الطباع كبيرا ، وهو شئ فى أصل الطباع وفى أسما من التركيب ، لأن الضحك أول خير يظهر من الصبي وبه تطيب نفسه وعليه يثبت شحمه ، ويكثر دمه الذى هو علة سروره ومادة قوته ،^(١) .

وهكذا نرى أسلوب الجاحظ - على ألسنة البخلاء - يكثر فيه من الاحتجاج المنطقي ، ومن العناية بكثرة إيراد الشواهد عن المتأخرين من حكماء وشعراء أو الأحاديث النبوية الشريفة من غير عناية كبيرة بتحقيقها وتخير القوى منها والابتعاد عن المشكوك فيه أو المضعف أو الثابت أنه موضوع عقلا أو بمجرد النظر إليه نظرا بسيما^(٢) . وكذلك يلاحظ على أسلوبه الذى يستخدم فى الحكاية عن البخلاء أو النطق به على ألسنتهم نلاحظ عليه العناية بأسلوبه الأدبى الرفيع ، حتى ما يحكيه عن أناس لا يظن أنهم

(١) البخلاء (طبعة دار المعارف) ص ٢

(٢) المرجع السابق

في كلامهم ونوادهم الشعبية التي تقال بديهة يعنون بهذا النوع من الترف
اللفظي والتأليف القوى بين الجمل أو الاستطراد في إيراد المعلومات المختلفة
من تاريخيه وجغرافية وطبيعية (فيزيكية) وحيوانية وفلسفية وغيرها مما يدل
دلالة واضحة على عقل الجاحظ الذي ألفها : ذلك العقل الفيلسفي الممتاز الذي
استوعب جل ما كان في عصره من معلومات وعلوم .

* * *

وبعد ذلك نحاول أن نسأل أنفسنا : ما السبب في تأليف كتاب البخل ؟
يحاول الجاحظ أن يجيب عن هذا السؤال في أكثر من موضع في ثنايا
الكتاب : فهو يبدأ كتابه ببيان السبب : وهو أن أحد الناس طلب منه
تأليف ذلك الكتاب بعد أن أفاد من كتابه السابق « حيل لصوص النهار ،
وحيل سراق الليل » ، فحاول أن يذكره ، فإدراك البخل ، واحتجاج الأشقاء ،
وما يجوز من ذلك في باب الهزل ، وما يجوز منه في باب الجد ، لأجل الهزل
مستراحا ، والراحة جماما ،^(١) ، وأغلب الظن أن هذا السبب قد اختلقه
الجاحظ اختلاقا ليصدر به الكتاب ، لأن البخل ليسوا إلى هذا الحد من
الخفاء عن أعين الناس أو ضمايرهم أو بصائرهم حتى يحاول الجاحظ أن يكشفهم
للناس فيتجنبوهم ويتقوا شرهم ، كذلك فليس البخل شيئا مما يتعلم أو يمكن
تجنبه أو اتباعه والتطبع به : إذ أنه غالبا ما يكون طبيعة في بعض النفوس التي
تكون ذات استعداد فطري خاص للتطبع به ، وينتج عن عوامل وراثية
يشتبه اتصال بالمجتمع الصغير وهو الأسرة وبالمجتمع الكبير الذي يضم آلاف
الأسر في الوطن الواحد الذي تتحكم فيه تيارات اقتصادية خاصة : وهكذا
نرى أنه ليس من الصعب أن يدرك الإنسان بقلبه السليم وبفطرته أن هذه

(١) ص ٦ من البخل (طبعه المعارف) .

المقدمة لا يقصد بها شخص معين يقدم له الكتاب بها ، وإلا فليس من المتعذر ذكر اسمه ، بل هي محاولة لإخفاء "غرض من تأليفه إخفاء ما وفي شيء من التماجن ، لئلا يلام الجاحظ اللوم الكبير على محاولة السخرية من البخلاء وكشفهم للعيان ، وقد أوما إلى شيء من ذلك في موضع من الكتاب بقوله : "ولسنا من تسمية الأصحاب المنتهكين ولا غيرهم من المستورين في شيء ، أما الصاحب فإننا لانسميه لحرمة وواجب حقه ، والآخر لانسميه لاستر الله عليه ، ولما يجب لمن كان في مثل حاله ، وإنما نسمى من خرج من هاتين الحالين ، ولربما سمينا الصاحب إذا كان ممن يمازح بهذا كثيرا ، ورأيناه يتظرف به ، ويجعل ذلك الظرف سلما إلى منع شينه" (١).

وبالإضافة إلى ما سبق ، فنرى الجاحظ قد أوما إلى أحد أسباب تأليف هذا الكتاب وهو الهزل الذي أفاض في الكلام عليه في مقدمة الكتاب ، وهو ما يعبر عنه - كما يفهم من كلامه تليها - التعبير العلوي أو العصري بالسخرية من هؤلاء ، لكي يضحك منهم المجتمع من جهة ، ولكي يحذر من تحدته نفسه بالانتماء بهم ، والسير على منهاجهم من جهة أخرى .

وأغلب الظن أن السبب الرئيسي في تأليف هذا الكتاب سبب شخصي : إذ أن الجاحظ يروي كثيرا من نواذر كتابه على أنها قد حدثت أمام سمعه وبصره وقد صدرت عن أصحابها الذين حينما كان يحضر مجالسهم كما حدث بينه وبين محفوظ النقاش حينما يختم ملاحظته على بخله بقوله ، فما ضحكك قط كضحكتي تلك الليلة ، (٢) . وكذلك ما يحكي عن أبي الهذيل (٣).

(١) البخلاء ص ٥٧ .

(٢) البخلاء ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٣) البخلاء ١٣٥ ، ١٣٦ .

ولذلك قال في أحده واضع الكتاب : هذه ملتقطات أحاديث أصحابنا وأحاديثنا ، وما رأينا بعيوننا ،^(١) وما يدل على ضيقه بالبخلاء وعلى أنه كان يعاني منهم ما يحكيه قوله : وهذا وشبهه إنما يطيب جداً إذا رأيت الحكاية بعينك ، لأن الكتاب لا يصور لك كل شيء ،^(٢) .

وفي أحيان أخرى يضيف هذه النوادر إلى بعض الأشخاص المجهولين ، ويذكرهم أنهم رأوا مارأوا ، وقصروا عليه ذلك كقوله : ومن أعاجيب أهل مرو ما سمعناه من مشيختنا على وجه الدهر ، ، حدثني امرأة تعرف الأمور ، وبمحاولة البحث عن هؤلاء الأشخاص كأحمد بن خلف ، والباساني لانه لم يذكر أفيما بين أيدينا من مراجع : فإما أنهم أشخاص غير حقيقيين اخترعهم اختراعاً كطريقته في وضع الشعر والأخبار والأحاديث ، وإما أن أكثرهم وهميون وبعضهم حقيقيون أهملهم التاريخ ولم يعن بذكرهم .

ويمكن أن نقول في شيء من الاطمئنان إن السبب المباشر لتأليفه هذا الكتاب هو سخريته من هؤلاء البخلاء الذين حضر مواعدهم أو رأى أحوالهم المضحكة فأراد الانتقام منهم لفرط حساسيته من جهة ، ولروح الفكاهة *Sesne of Humour* من جهة أخرى ، فألف هذا الكتاب لأن الأدب الحق لا بد وأن يكون قوى الحساسية ، وإذا أحس فلا بد له أن يعبر ، وإذا عبر فلا غضاضة من أن يطلق لخياله العنان ، وأن يترك طبيعته على سجيتها ، حتى تنتج له ما يخفف عنه ما يحس به ، وما يرضى به تلك الطبيعة الفنية الخلاقة التي يسخر بها من البخل والبخلاء بعامة ، ومن بعض البخلاء بخاصة دون التعرض لذكر الأسماء كقوله : وقد كتبنا لك أحاديث كثيرة مضافة إلى أربابها ، وأحاديث كثيرة غير مضافة إلى أربابها ، إما بالخوف منهم ، وإما بالإكرام لهم ،^(٣) .

(١) البخلاء ص ١٤٨

(٢) المرجع السابق ص ٥٨

(٣) المرجع السابق ص ٨

أما طريقته في ذلك فهي متعددة الجوانب :

فهو آنا يتحدث عن أهل بلد بعينه اشتهروا بالبخل كأهل مرو (المرأوزة) والمسجدين من أهل البصرة .

وآنا آخر يتحدث عن بعض البخلاء المشهورين بذلك كزبيدة بن حميد وأحمد بن خلف وسهل بن هارون .

وآنا ثالثا لا يذكر أسماء ، بل يسوق مجرد نواذر أو تشبيهات (كما يسمى الآن) لا يضيفها إلى أحد ، بل حسبه أنها حول البخل والبخلاء .
وأكثر بخلاء الجاحظ. من أهل عصره ، ونادرا ما يذكر بخلاء سابقين ، كذلك الذي روى عن ابن المقفع ، وبعض الخلفاء الأمويين كعاوية وهشام ابني عبد الملك .

وأكثر بخلائه ومعظمهم ييخلون بطعامهم ، وهذه هي الناحية الغالبة على البخلاء في جل مواضع الكتاب .

وفي بعض الأحيان لا يخصص الفصل من كتاب البخل واحد بل يستطرد بذكر نواذر بخل آخر ، كما قال بعد أن أورد عن ثمامة نادرة في نهاية الحديث عن المرأوزة ، « وليس هذا الحديث من حديث المرأوزة ولكننا ضممناه إلى ما يشاكله »^(١) ، « وليس هذا الحديث لأهل مرو ، ولكن من شكل الحديث الأول »^(٢) .

وفي بعض الأحيان يوجز في إيراد النادرة : كذلك التشبيعة التي يرويها عن المرأوزة ويفتح بها الحديث عنهم^(٣) . وفي بعض الأحيان يطيل حتى تستغرق القصة الصحيفتين .

(١) البخلاء ص ٣٨ .

(٢، ٣، ٤) المرجع السابق ص ١٧

والجاحظ. يحاول في هذا الكتاب أن يظهر بعض أخلاق البخلاء ومن أظهرها : الجبن والرضى بالذل^(١) .

وأخيرا فن أطرف ما جاء في هذا الكتاب أربع رسائل وضعها الجاحظ. وضعها : إما أسلوبا فحسب ، وإما أسلوبا وأفكارا وموضوعا .

* * *

كيفية السخرية في كتاب البخلاء :

وقد ظهرت للسخرية في كتاب البخلاء جليلة واضحة ، ولو أنه حاول أن يخفيها إخفاء . فتظاهر بأنه إنما يروي نوادر ووقائع حدث وأن دوره في الكتاب هو دور المصنف أو جامع النوادر ، وأن ليس له من هدف إلا مجرد تسلية القارىء ببعض ما يضحك : وقد ظهر عبث الجاحظ بالبخلاء وأنه كان يقصد قصدا إلى الاستهزاء بهم وجرحهم إلى أن يتكلموا لكي يضحك منهم ملء فمه في عدة مواضع من الكتاب فعبث مرة بالحزاي وأخذ يثيره بقوله ساخرا : أعلنت أن خبز البلدى يثبت عليه شيء شبيه بالطين والتراب والغبار المتراكم ؟ قال : - بهذا ذلك من خبز أوليته قد أشبه الأرض بأكثر من هذا المقدار^(٢) وسخر منه مرة ثانية قائلا :

استسلف منه على الأسرارى مائة درهم ، فجاءني وعمر حزين منكسر . فقلت له : إنما يحزن من لا يجد من أسلاف الصديق ، نخافة ألا يرجع إليه ماله ولا يعد ذلك هبة له . أو رجل يخاف الشكية ، فهو إن لم يسلف كرما ، أسلف خوفا ، .. إلخ .

قال : اللهم غفرا ! ليس ذاك بي . إنما بي أنى قد كنت أظن أن أطاع الناس

(١) ص ٦١ ، ١٤٧ من البخلاء .

(٢) البخلاء ص ٦٠ .

قد صارت بمزمل غنى وآيسة منى ... إلخ (وهكذا أخذ يصوغ العبارات على لسانه تدل على فرط بخله ^(١)) .

وقال لمحمد بن أبى المؤمل : أراك تطعم الطعام وتتخذ ، وتنفق عليه المال وتجوده . وليس بين قلة الخبز وكثرة كثير ربح . والناس يبخلون من قل عدد خبزهم ، ورأوا أرض خوانه ، وعلى أنى أرى جماجم من يأكل معك أكثر من عدد خبزك ... إلخ .

فرد عليه قائلا :

قال : يا أبا عثمان ، أنت تخطئ ، وخطأ العاقل أبداً يكون عظيماً ، وإن كان فى العذر قليلاً ... إلخ ^(٢) .

وللجاحظ طرق فى السخرية بالبخلاء بأساو به على لسانهم :

١ - التصوير المضحك :

فقال على لسان الحارثى يدافع عن كرده دعة الناس لتناول الطعام على مائدته :

هذا على الأسوارى ، أكل مع عيسى بن سليمان بن على ، فوضعت قدامهم سمكة عجبية ، فائقة السمن ، فخلط بطنها جلاطة ، فإذا هو يكتنز شحما وقد كان غص بلقمة - وهو المستسقى - ففرغ من الشراب ، وقد غرق بطنها كل إنسان منهم بلقمته غرفة . وكان عيسى ينتخب الأكلة ، ويختار منهم كل منهوم فيه ^(١) ومفتنون به . فلما خاف على الأسوارى الإخفاق ، وأشفق من الفوت ^(٢) وكان أقربهم إليه عيسى - استلب من يده اللقمة بأسرع من خطفة البازى وانسكدار العقاب ، من غير أن يكون أكل عنده قبل مرته . فقبل له : ويحك ! استلبت لقمة الأمير من يده ، وقد رفعها إليه ، وشحها لها

فاه ، من غير مؤانسة ولا بمازحة سالفة . قال : لم يكن الأمر كذلك ،
وكذب من قال ذلك . ولكننا أهوينا أيدينا معاً ، فوقعت يدي في مقدم
الشحمة ، ووقعت يده في مؤخر الشحمة معاً ، والشحم ملتبس بالأمعاء ،
فلما رفعنا أيدينا معاً ، كنت أنا أسرع حركة ، وكانت الأمعاء متصلة غير
متباينة ، فتحول كل شيء في لقمته بتلك الجذبة إلى لقمتي ، لاتصال الجنس
بالجنس ، والجوهر بالجوهر ،^(١) .

فهذا وصف مضحك مليء بالتهكم الخفي من الجاحظ. إزاء هذا البخيل
الذي يصوره الجاحظ. نائراً على هذا الطاعم الجشع الذي أكل مع عيسى
ابن سليمان ، ويحاول الجاحظ. أن يصفه - على لسان الحارثي - وصفاً دقيقاً
كأنه - أي الحارثي البخيل - كان ينظر طوال تناول الطعام إلى كل لقمة
يأكلها على الأسواري ، وإلى كل حركة يقرم بها ، ومن هنا يمكن التهكم
وتنبع السخرية ، كذلك حينما يتحدث بلسانه مستخدماً بعض الألفاظ
المضحكة والحركات المثيرة مثل : فخلط بطنها جلطة ، كان عيسى ينتخب
الأكلة ، كل منهموم فيه ومفتون به ، استلب من يده اللقمة بأسرع من خطفة
البازي (وهذه الجملة تدل وتؤمى إلى شدة بخل القاص من جهة وإلى هزء
الجاحظ. من جهة أخرى) ، وكما هو ساخر مضحك حينما يصف في النهاية
كيف استلب اللقمة من يد الأمير ، ولكننا أهوينا أيدينا معاً ، فوقعت يدي
في مقدم الشحمة ، ووقعت يده في مؤخر الشحمة معاً ، فلما رفعنا أيدينا معاً
كنت أنا أسرع حركة فتحول كل شيء كان في لقمته بتلك الجذبة
إلى لقمتي

ويصف أكلاً آخر منهما على لسان أبي فاتك قائلاً - ولا يملك الإنسان
نفسه من الإغراب في الضحك من البخيل مرة ، ومن الجاحظ. الساخر واضح
هذا الكلام مرة أخرى :

(١) ص ٦٩ من البخل .

وما ظنكم برجل نهش بضعة لحم تعرقا ، فبلع ضرسه وهو لا يعلم !
(وهذا من تشبيهات الجاحظ.) فعل ذلك عند إبراهيم بن الخطاب مولى سليم
وكان إذا أكل ذهب عقله أو جمحت عينه أو سكر وسدر وانهر ، وتربد
وجهه ، وعصب ولم يسمع ، ولم يبصر ، فلما رأيت ما يعتريه ، وما يعترى
الطعام منه ، صرت لا أذن له إلا ونحن نأكل التمر والجوز والباقي . ولم
يفجأني قط وأنا آكل تمرأ إلا استفه سفا ، وحسأ حسوا ، وزدا به زدوا
ولا وجده كنبزا إلا تناول القطعة كجمجمة الثور ، ثم يأخذ بحضنها ، ويقلها
من الأرض ، ثم لا يزال ينهشها طولا وعرضا ورفعا وخفضا ، حتى يأتي
عليها جميعا ، ثم لا يقع غضبه إلا على الأنصاف والأثلاث . ولم يفصل ثمرة
قط من ثمرة . وكان صاحب جل ، ولم يكن يرضى بالتفاريق . ولا رعى
بنواة قط ، ولا نزع قعاً ، ولا نقى عنه قشرا ، ولا قشده مخافة السوس
والدود . ثم ما رأيت له إلا وكأنه طالب ثار ، وشحشحان صاحب طائلة .
وكانه عاشق مغنم ، أو جائع مقرور !

وهكذا يصور الجاحظ: البخيل - بطريق غير مباشر - تصويرا ساخرًا
عن طريق إنطافئه بكل هذه الجمل المضحكة ، معبرة عن مدى غيظ البخيل من
يأكل لديه أو على مائدته ، وهو بهذا يصور شدة حساسية البخيل ، ومن ثم
مبالغته في تصور من يأكل عنده تصورا يدفعه دفعا إلى تصويره بهذه الصور
المضحكة : إذ هي تضحكننا من هذا النهم ، وتضحكننا من هذا الذي يتصوره
قد أوتى كل هذا النهم : ولا يالو الجاحظ. جهدا في رسم الصورة مستخدما
كل ما يستطيع من ألوان ومن قوة كامنة في نفسه على السخر .

فن ناحية الألفاظ يستخدم هذه الألفاظ المعبرة العنيفة التعبير مثل :
نهش ، ما يمتري الطعام منه ، استف التمر سفا ، ويستخدم المفعول المطلق
لتقوية المعنى الذي أراد ، ثم المترادفات : وحسأ حسوا ، وزدا به زدوا .
وهو حينما يصور النهم ، يصل إلى الغاية في ذلك مصورا إياه بأنه فقد عقله

حين هم يتناول الطعام ، في حين أن الذي فقد عقله هو هذا البخيل الراوى لتلك القصة .

ويبالغ في ذلك مبالغة مضحكة حتى يقول إنه ابتلع ضرسه ! دسكرو وسدر وانهر ، (لاحظ الجناس القوى اللطيف بين الكلمتين سكر وسدر) وتردد وجهه ، وعصب ولم نسمع ، ولم يسمع ، ولم يبصر ، وبلغ نهاية القوة حينها قال : ما يعتريه وما يعترى الطعام منه !

ثم يستخدم التشبيه المضحك مما يدل على تحسره على طعامه الذي أكل : يتناول القطعة كجذعة الثور ! ثم يعاملها كما يعامل الأسد فريسته : ثم يأخذ بحضنها ويقلمها من الأرض ... ثم لا يزال ينهشها طويلا وعرضا ، ويرفعها وخفضا - وهذه مبالغة في إعطاء الصورة واقعيتهما - ويتفكك فيقول : وكان صاحب جمل ولم يكن يرضى بالتفاريق ! وكأنه طالب ثار ، وشحشحان صاحب طائلة ، وكأنه عاشق مغتلم ، أو جائع مقرور " !

ويقول على لسان الثورى ناسبا إليه هذا المثل المعروف : " وكان يقول : كلوا الباقي بتشوره ؛ فإن الباقي يقول : من أكلني بقشورى فقد أكلنى ، ومن أكلني بنشورى فأنا الذى آكله ! فما حاجتكم إلى أن تصيروا طعاما لطعامكم ، وأكلنا جعل أكلنا لكم ؟ " .

ويبلغ الجاحظ نهاية السخرية والإضحاك حينما ينطق البخلاء بحجج على فوائد أشياء تافهة ، لا يصدقها العقل كما أنطق الثورى بقوله مخاطباً أولاده : لا تلتقوا نوى النمر والرطب ، وتعودوا ابتلاءه ، وخذوا حلوقكم بتسويغه ؛ فإن النوى يعقد الشجيم فى البطن ، ويدفىء الكليتين بذلك الشجيم

فهو هنا يقاطع بقوله إن النوى يعقد الشحم في البطن ، ويبني مغالطة على مغالطة بقوله : يدق الكاينين بذلك الشحم !
ثم يستمر في احتجاجه :

« واعتبروا ذلك يبطون الصفايا وجميع ما يعتلف النوى ، وهنا يربط بين الإنسان والحيوان في محاولته - لشدة بحظه - تشبيه الأول بالثاني في قوة الاحتمال : « والله لو حملتم أنفسكم على البزر والنوى ، وعلى قضم الشعير واعتلاف القت ، لو جدموها مريمة القبول ، وهنا يبدأ الجاحظ في هزله ومجونه على لسان هذا البخيل : وقد يأكل الناس القت قداحاً ، والشعير فريكاً ، ونوى البسر الأخضر ، ونوى العجوة ! فإنما بقيت الآن عليكم عقبة واحدة (وكأنه وجدتم قد انصاهوا له ووافقوا على ما يقول) لو رغبت في الدفء لالتستم الشحم ، كيف لا تطلبون شيئاً يغنيكم عن دخان الوقود ؟ ، وهنا يبدأ في ذكر مبالغته وبناءه مغالطة على مغالطة - وعن شناعة السكر ، وعن ثقل الغرم ، والشحم يفرج القلب ، ويبيض الوجه ، والنار تسود الوجه (١) .

« ويحاول الجاحظ أن يتم بكم تمام بن جعفر ووضع في صورة مضحكة حينما يحاول أن ينسب ألم غريمه الذي يأكل طعامه إلى جشعه فحينما يشكو وجع ضرره ، يرد عليه رداً مضحكاً مغيظاً قائلاً :

عجبت كيف اشتكيت واحداً ، وكيف لم تشك الجميع ؟ وكيف بقيت إلى اليوم في فيك حاكّة ؟ وأي ضرر يقوى على الضرر والطحن ؟ والله إن الأرحاء السورية لتكل ، وإن المنحاز الغليظ لبتعبه الدق ، ولقد استبطأت لك هذه العلة . ارفق ، فإن الرفق يمن ، ولا تحرق بنفسك فإن الحرق شؤم !

وهكذا يطلب الجاحظ على لسان هذا البخيل في مخاطبة هذا النهم الذي يشكو ضرره ، إطناباً لا يحمل بحالاً للشك في أن هذه الجمل وهذه المترادفات

هى من أسلوب الجاحظ ومن كلامه ، أطال فيها إطالة وأطنب فيها إطناباً
لكى يستجلب الضحك ، فيصل إلى غرضه من السخرية والتهكم .
ويستمر الجاحظ في تمككه هكذا في قصة تمام بن جعفر حين يعدد أنواع
الشكاوى التى يشكو بها صاحبه أو نديمه ، أو أنواع المزايا التى يتمتع بها
كقوته على المشى قائلاً : ما فى الأرض أحد أمشى منى ، ولا على ظهرها أقوى
على الحضر منى (١) .

قال : وما يمنك من ذلك ، وأنت تأكل أكل عشرة ؟ وهل يحمل الرجل
إلا البطن ؟ لا حمد الله من يحمك ! فإن قال - بالعكس - لا والله لا أقدر أن
أمشى ، لأنى أضعف الخلق عنه ، لاني لأنهر من مشى ثلاثين خطوة ! قال :
وكيف تمشى ، وقد جعلت فى بطنك ما يحمله عشرون حمالاً ؟ وهل ينطلق
الناس إلا مع خفة الأكل ؟ وأى بطن يقدر على الحركة ؟ وإن كان غليظاً
ليجوز من الركوع والسجود ، فكيف بالمشى الكثير ؟

وهكذا يستمر الجاحظ فى الكلام على لسان تمام بن جعفر البخیل مبكناً صاحبه
بطريقة مضحكة ساخرة فقولنا لا نملك أنفسنا من الضحك من هذا البخیل بهذا
النشئ الذى يظهر فى عباراته ، تلك التى يستخدم فيها كثرة المترادفات وإن هذا
الأسلوب ليزكرنا بطريقة ابن المقفع فى سخريته من الملك على لسان الوزير
فى قصة إبلاد وإيراخت وشادرم التى تكلمت عليها سالفاً (٢) .



٢ - ومن طريقة سخرية الجاحظ أيضاً بالبخلاء : الكلام على لسانهم
بمغالطات فى الاحتجاج لبخلهم أو التعليل له بهلل مضحكة كما قال بشار :
وللبخیل على أمواله عمل . . . رزق العيون عليها أوجه سود

(١) لاحظ استخدام الجملة الثنائية فى هذه العبارة التى تدل على أن هذا
الأسلوب ذا المترادفات التى يغنى بعضها عن بعض هو أسلوب الجاحظ .
(٢) أنظر صفحتى ١١٦ ، ١١٧ من البخلاء .

أو المغالطات الجدلية ، أو المبالغة في الاحتجاج ، أو الإطالة فيه ، أو تشويق الكلام ، أو ذكر الألفاظ الخاصة بالمصطلحات الفلسفية في كلامهم ، أو الخروج من شرط إلى شرط آخر مبنى على سابقه .

☆

فن تعليقه لعدم ارتياحه لقبول زقاق دبس أهدى إليه قوله : أول ذلك كراه الحال . ثم هو على خطر حتى يصير إلى المنزل . فإذا صار إلى المنزل ، صار سبياً لطلاب الهدية والأرزاء والمستندود . فإن بعته فراراً من هذا ، صيرتموني شهرة ، وتركتموني عنده آية . وإن أمانا حبسته ، ذهب في المعصائد وأشباه المعصائد ، وجذب ذلك شراء السمن (لاحظ ما توحى به لفظة جذب من خفة ونهم) ، ثم جذب السمن غيره ، وصار هذا الدبس أضر علينا من العيال . وهكذا يستمر الجاحظ في إيراد العلل المختلفة التي يعتل بها ذلك البخيل في كراهيته لقبول الدبس هدية ، فيدعي فعلاً على فعل ، ويخرج من شرط إلى شرط ، ويذكر متاعبه وتوزعه بين أنواع السلوك المختلفة التي لا يقل أحدها عن الآخر تحميراً له .

ثم يذكر فقرة أخرى مكونة من عشرة أسطر حول قلقه من جعل هذا الدبس نبذاً :

وإن أنا جعلته نبذاً ، احتجت إلى كراه القدور ، وإلى شراء الحب ، وإلى شراء الماء ، وإلى كراه من يوقد تحتته ، وإلى التفرغ له .

فإن وليت ذلك الخادم اسود ثوبها ، وغرنا ثمن الأثنان والصابون ، وازدادت في الطعم على قدر الزيادة في العمل (وهكذا يهمه استخدام الخادم في صنع اللبذ وما ينتج عن ذلك من نتائج لا يعرفها إلا البخلاء ، ولا يفتن إليها ويولدها إلا أمثال الجاحظ في تهكمه وسعة خياله الساخر)

ثم يذكر في الفقرة الثالثة التي تبلغ سبعة أسطر همه وحزنه وطول تفكيره

إذا جلس في البيت ليشر به ، وما يحتاجه للنهيد لا بد له من درهم لحم (١)
ومن طسوج نقل وقراط ورجان ، ومن أزار للقند . . . و . . . الخ .

ثم يبدأ يذكر النديم في خوف و هلع مضحك : وهو بعد هذا شؤم
وخرقة وخروج من العادة الحسنة او الجملة الأخيرة من جمل الجاحظ
التهكمية - إ فإن كان النديم غير موافق ، فأهل الحبس أحسن حالا مني .
وإن كان - وأعوذ بالله - موافقا - فقد فتح الله علي إلى بابا من التلف لأنه
حينئذ يسير في مالي كسيري في مال من هو فوقني وإذا علم الصديق أن عندي
زائرا ويذبا ، دق الباب دق المدل : فإن حجبتاه فنبلاء ، وإن أدخلناه فشقاء .
وهكذا يختم تلك الفقرة بهذه الجملة للتهكمية الرائعة التي لا تخلو من
سجع لطيف .

ثم يبدأ الفقرة الرابعة من احتجاجة متضمنة ما سبق من خصائص تهكم
الجاحظ . باللفظة المفردة أنا وبالجملة أنا آخر ، كقوله : « وإن بدا لي في
استحسان حديث الناس ، كما يستحسنه مني من أكون عنده ، فقد شارك
المسرفين ، وفارقت إخواني من المصلحين ، وصرت من إخوان الشياطين .
ونلاحظ هذه الجملة الأخيرة المقتبسة من الآية ، يستعملها في خفة وبراعة
مقابلة للجملة السابقة لهم ثم يبدأ في استنتاج المغالطة تلك التي تبني دائما على
ما في أدمغة البخلاء الموهومين من وهم ومن تصور ما بالغ فيه لضرر الإسراف :
« فإذا صرت كذلك ، فقد ذهب كسبي من مال غيري ، وصار غيري
يكسب مني » .

ثم أخيرا يختم احتجاجة بهذه العبارة المضحكة التي تجمع نفسية البخيل
الخائفة الوجل في تلك الكلمات :

(١) لاحظ استعمال الجاحظ بالصغر درهم وما يدل ذلك على تهكم خفي .

هذا الدوشاب دسيس من الحرفة ، وكيد من الشيطان وخدعة من الحسود
وهو الحلاوة التي تعقب المرارة ، ما أخوفنى أن يكون أبو سليمان قد مل منادمتى
فهو يحتمل لى الحيل ١ ، ، (١)

ومثل ما سبق ما قاله الجاحظ. على اسان أبى سعيد المدائنى فى تعليقه عدم
غسله الشرب وتركه قدرا :

ويبدأ بذكر أضرار الغسل ، وأول ذلك الغرم الذى يكون فى الماء
والصابون ، والجارية إذا ازدادت غناء ، ازدادت أكلا . . ثم ينتهى بعد
التي عشر سطر إلى هذه العبارة المضحكة ، تلك التى تضحكننا من عقل البخلاء ،
ومن لنوع الجاحظ ونخبته : فيصير ذلك مدعاة إلى دخول الحمام . فإن دخلته
فغرم ثقيل ، مع المخاطرة بالثياب ، ولى امرأة جميلة شابة إذا رأتنى قد
اطليت وغسلت رأسى ، ويبيضت ثوبى ، عارضتنى بالتطيب وبليلس أحسن
ثيابها ، وتعرضت لى ، وأنا فعل ، وفعل إذا هاج ، لم يرد رأسه شىء ،
فإذا أردت مرافقتها ، ورأت حرصى ، ثرت على الحوائج نثرا . ثم احتجنا
إلى تسخين الماء ، وأشد من هذا كله أن تعلق ، فتحتاج إلى ظئر ، فنقع فى
ماء لا غاية له ١ ، ، (٢)

ثم يشأهى الجاحظ فى المبالغة فيقول أخيرا : « مع أمور كثيرة ، نسي
بعضها ، وبعضها أنا ، ،

ولست أدري ، ما الأمور التالية التى يمكن أن يتفق العقل البشرى عنها
بعد الذى ذكره فى عشرين سطرأ لأنها لعمري إحدى خبايا الجاحظ فى
التمسك ١

(١) البخلاء ص ٦٣ ، ٦٤

(٢) البخلاء ص ١٣٩ ، ١٤١ وانظر أيضا ص ٦٨

وهناك أمثلة تشبه ما سبق في احتجاج البخلاء بهذه الطريقة منها تحليل
أبي سعيد المدائني سبب ذهابه المطالبة بدينه والإلحاح في ذلك على الرغم مما
يتعرضه من صعاب في ذلك : (١)

° ° °

وما يستخذه الجاحظ في حجاج البخلاء - أو حجاجه على أنفسهم : كثرة
الاستشهاد وهي إما الاستشهاد بأقوال من سبق وإما الاستشهاد بأقوال النبي
صلى الله عليه وسلم ، ولا يراعى في ذلك اختيار الصحيح منها ، بل يستخدم
كل ما دار على ألسنة العوام والخواص من أقوال النبي أو أفعاله إن صدقا وإن
كذبا : كاستشهاده على البخل وعدم التأذى بلبس المرقع من الثياب بأن النبي
« كان يخصف نعله ، ويرقع ثوبه ، ويلطع إصبعه ويقول لو أتيت بفدراع
لا كنت ، ولو دعيت إلى كراع لأجبت » (٢) ومن ناحية التزييع ، فهو ثابت
لكن النبي (ص) كان يفعل ذلك زهدا لا بخلا !

واستشهاده بتقول النبي (ص) وهو موضوع (٣) ، وإذا طبختم لحما فزبدوا
في الماء ، فإن لم يصب أحدكم لحما ، أعصاب مرقا ،
وذكر هذا المثل دادعى أنه حديث : « من الذود إلى الذود لم يل » (٤)
أو استشهاده بهذا الحديث الموضوع : جمع الشر كله في بيت ، وأغلق عليه ،
فكان مفتاحه السكر (٥) .

(١) البخلاء ١٣٨ .

(٢) ، (٣) ص ١١ من البخلاء .

(٤) أنظر البخلاء ص ٣٠ وتعلق الدكتور الجاجرى عليه .

(٥) قال العجلوني في كشف الخفاء ١ / ٣٨٣ ما يلي باختصار : « والله عكرى
عن أم أيمن موفرا : لياك والحر ، فإنها مفتاح الشر ، وله أيضا (بصنيع أخرى)
مثل ما سبق ... وشواهد هذا المعنى كثير ... ص ٣٦ من البخلاء »

وعما جله به من الأحاديث الموضوعة التي لم يعن محقق البخلاء بالبحث فيها ، الجار قبل المدار ، والرفيق قبل الطريق ، (١) .

وهكذا نرى أن الجاحظ يذكر على السنة بخلافه كثيراً من الأحاديث التي يستشهدون بها وهي تربو على المائة - كما لاحظت - وهو يورد هذه الأحاديث في معرض التهكم بأصحابها ، وعندما يكون قد قمصته روح السخرية ، وهو لذلك لا يعنى بشيء من تحقيق أو اختيار بل يهمله إيرادها ، كأنه يبايراد مثل هذه الأحاديث الموضوعة أو التي لا يحتاج العقل إلى إثبات عدم صحتها ، كأنه يبايراد مثل هذه الأحاديث يزيد تمسكاً بمن يوردون هذه الأحاديث في معرض حجاجهم واستشهادهم على صواب رأيهم في البخل فهو كأنه ينطيف إلى سحره من بخلهم تمسكاً بجهلهم بإيراده هذه الأحاديث مثل سيد الطعام الثريد ، ومثل عائشة في نفسه ، مثل عائشة في الطعام ، (٢) .

وكما يذكر لعمر قولته لأهله : د املسكوا المعجين ، فإنه أربع الطحينيين ، (٣) وكما يفدى زبيدة بن حميد النبي بقوله : بأبي وأمي رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول : جمع الشر كله في بيت ، وأخلق عليه . فكان مفتاحه السكر ، فهو يفدى النبي - صلى الله عليه وسلم - لأنه قال حديثاً - موضوعاً - وافق هواه : أولهذه نهاية التهكم بالبخلاء والإضرار بهم .

وهو أحياناً يستعين بما ينسب إلى القدماء فيما يوافق مذهب البخلاء ويعضد احتجاجهم . وغالباً ما يكون هؤلاء الأقدمون من الزاهدين في الدنيا : كعمر بن الخطاب ، والمسيح عليه السلام وغيرهما (٤) وفي بعض الأحيان

(١) ضمه المجلون في كشف الخفاء / ٣٢٧

(٢) البخلاء ص ٧٤

(٣) البخلاء ص ١٠

(٤) انظر ص ١٠٨ ، ١٠٩ من البخلاء .

يذكر الاحتجاج بأشخاص اشتهروا بالبخل منذ القدم كبعض الجاهليين
وأبي الأسود الدؤلي والأصمعي وخالد بن عبد الله القسري^(١).

٣ - المصطلحات الفلسفية .

وما يلاحظ على أسلوب الجاحظ. الحجاجي على السنة البخلاء استخدام
بعض المصطلحات الفلسفية كقوله : وربما عجل عليه ، فقدمه حارا نمتعا ،
وربما كان من جوهر بطيء الفتور^(٢) .

وجاء أيضا : « فتحول كل شيء كان في اقمته بتلك الجذبة إلى اقمتي ،
لاتصال الجنس بالجنس ، والجوهر بالجوهر »^(٣) .

وقال على لسان المسكي « فإذا هو يريد أن تدفع جوهرًا بجوهر ، وعرضا
بمرض ، حتى لا تبيع أمه إلا صرف ما بين العرضين . . . وما كانت إلا أن
تبادلته الأعراض وتسلم إليه الجوهر »^(٤) .

وهكذا يابى الجاحظ إلا أن يفصح عن أسلوبه بصياغة كتابه هذه
الصياغة التي تخضع لما اشتهر عنه من اشتغاله بعلم الكلام والفلسفة من جهة
ولما عرف عنه من روح هائلة ساخرة من جهة أخرى .

وما يدخل في هذا الحجاج الذي يتخذ صورة الحجاج المنطقي الفلسفي
الجدلي قوله « وعبتموني حين زعمت أني أقدم المال على العلم ، لأن المال به
يغاث العالم ، وبه تقوم النفوس ، قبل أن تعرف فضيلة العلم . وأن الأصل
أحق بالانفضيل من الفرع ، وأنى قلت : وإن كنا نستبين الأمور بالنفوس ،
فإننا بالكفاية نستبين ، وبالحلة نعمي . . . »^(٥) .

(١) وقد شك الدكتور الحاجري في صحة رمي القسري بالبخل .

(٢) البخلاء ص ٦٩

(٥) البخلاء ١٤ ، ١٥

(٤) البخلاء ص ١١٣

ومن قوله أيضا ويدخل في هذا الباب ، وأكلى وحدى هو الأصل ،
وأكلى مع غيرى زيادة فى الأصل ،^(١) .

وكذلك هذه العبارة . . . ومن يشك أن الوحدة خير من جليس السوء
وأن جليس السوء خير من أكل السوء ، لأن كل أكل جليس ، وليس
كل جليس أكل ،^(٢) ومن هذا القبيل الاحتجاج للزجاج وذكر فضله
على غيره^(٣) .

ومن أروع ما جاء فى الاحتجاج هو ما ساقه على لسان سهل بن هارون فى
رسالته التى يشك فيها الحاجرى وينسبها للجاحظ ، وأنا أنضم إليه فى هذا
الشك ، وهذه الرسالة تحوى من طرق الحجاج والمغالطات السوفسطائية
ما يصل بالجاحظ إلى رتبة كبار المتكلمين الوضاعين لافى الأدب العربى
فحسب بل فى الآداب العالمية ! فما يذكره من هذا الباب على لسان سهل
ويدخل فى موضوعنا قوله : وعبتمونى حين زعمت أن التبذير إلى مال القمار
ومال الميراث ، وإلى مال الالتقاط وحباء الملوك أسرع ، وأن الحفظ إلى
المال المكتسب والغنى المحتلب ، وإلى ما يعرض فيه لذهاب الدين وادتماع
العرض ونصب البدن واهتمام القلب أسرع ، وأن من لم يحسب ذهاب نفقته
لم يحسب دخوله ، ومن لم يحسب الدخول فقد أضاع الأصل ، وأن من لم
يعرف للغنى قدره ، فقد أذن بالفقر ، وطاب نفسا بالذل^(٤) .

(١) ص ٢٤ من البخلاء

(٢) ص ٦٧ من البخلاء

(٣) ص ٢١ من البخلاء

(٤) ص ١٢ من البخلاء

وبما يدخل في باب المغالطات الجدلية المضحكة قوله على لسان الثوري
لابنه :

« أى بنى إن إنفاق القراريط يفتح عليك أبواب الدوانيق وإنفاق
الدوانيق يفتح عليك أبواب الدراهم ، وإنفاق الدراهم يفتح عليك أبواب
الدنانير ، والعشرات تفتح عليك أبواب المئين ، والمئون تفتح عليك أبواب
الألوف ، حتى يأتى ذلك على الفرع والأصل ، ويطمس على العين والأثر
ويحتمل القليل والكثير .

أى بنى : إنما صار تأويل الدرهم « دارالهم » ، وتأويل الدينار « يدنى
من النار »^(١) .

ونستطيع أن نختم الكلام على استخدام الجاحظ الحجاج والمبالغة فيه
أو إطالته كوسيلة من وسائل السخرية بالبخل أو استخدام الألفاظ أو
الجل الفلسفية الجدلية بالاكتفاء بما ذكر من أمثلة والإحالة إلى صفحات
أخرى من الكتاب كأمثلة مطولة لما ذكرنا ولا نستطيع سردها ، كهذا
الاحتجاج الطويل الذى بلغ تسع صفحات^(٢) أو كثرة الاحتجاج بأقوال
السابقين^(٣) أو الاحتجاج على منافع الملاة^(٤) أو الاحتجاج للبخل والبخل
وما اقتابه من أسماء^(٥) أو استطراده اللطيف^(٦) فن استشهاده المضحك :
وقال عمر : من أكل بيضة فقد أكل دجاجة^(٧) ، ،

(١) ص ١٠٦ وهو يقترب من هذا المثل الانجليزى المعروف مع ما بينهما من

فرق فى التعبير وعدم المبالغة Take Care of the Pence ... etc ...

(٢) ص ١٨٢ من البخل . (٣) ص ١٤٦ من البخل .

(٤) ص ١٠٥ من البخل . (٥) ص ٦٢ ، ٦٣ .

(٦) ص ١٢٧ . (٧) البخل ص ١٢ .

٤ - والطريقة الرابعة هي السخرية بجملة يشيع فيها التهم بصرف النظر عن العبارة بأجمعها : وأولها استخفافه الجملة الاعتراضية كثيرا : كقوله على التليذ الذي يستخرجه من الدبس وهو ضائق بقبوله هدية : ، ، ، وإن سلم - وأعوذ بالله - وجاد وصفا ، لم نجد بدا من شربه ، ، ،^(١) وهناك عبارات أخرى غير الجمل الاعتراضية مثل قوله على لسان بخيل : أتلهم إنى استعرقك ، فأحرق كل شيء لنا^(٢) وقوله : د وأن الناس يظلمون الكذب يتناسى مناقبه ، ، ،^(٣) وقوله : ، ، ، ومن أطعم النار ، جعله الله يوم القيامة طعاما للنار ، ، ،^(٤) وقوله على لسان قوم استمعوا إلى حديث أحد البخلاء فأعجبه بحسن تدبيره : د هذا بتوفيق الله وهذه ، ، ،^(٥) وقوله على لسان أحدهم : ، أرجو أن يكون الله قد جمع لك بهذا السعال مصالح كثيرة ، لما فتح الله لك بهذه النخالة ، ، ،^(٦) ويرد عليه آخر : د صدقت ، مثل هذا يكتسب بالرأى ، ولا يكون إلا سماويا ، ، ،^(٧) وقوله : د ، ، ، والقداحة الغليظة بالثمن الموضع ، ، ،^(٨) وقوله : د قزعم لنا صديقنا الثورى ، وهو ما علبت أحد المرشدين ، ، ،^(٩)

-
- | | |
|-------------------------|-------------------------------|
| (١) ص ٦٢ من البخلاء . | (٢) ص ٢٨ من البخلاء . |
| (٣) ص ٢٠ (نفس المرجع) . | (٤) ص ٢٠ ، ٢١ المرجع السابق . |
| (٥) ص ٢٩ | (٦) ص ٢١ |
| (٧) ص ٢٢ | (٨) ص ٢٤ |
| (٩) ص ١٣٢ | |

وعلى لسان معاذة قوله : « صار كية في قلبي ، وقذى في عيني ، وهما لا يزال يعودني . » (١)

ومن الجمل التي تشتمل على سجع قوله : « يذهب بحر مالي ؛ ما أراد إلا استئصالى ! » ، وهناك غيرها من الجمل المسجوعة الكثير . (٢)

وقوله : « فلما حضر وقت الغداء ، صوت بعلامه - وكان ضحكنا جهير الصوت صاحب تقدير وتفخيم وتشديق وهمز وجزم ... » ،

وقوله على لسان بخيل : « إن من إفلاس المرء طمع الناس فيه ! » ، وقوله : « فقبض صاحب الحمار ، والماء العذب (وهما بخيلان) قبضة من حصي ثم ضرب بها الأرض ، ثم قال : لا تعلم أنك من المرففين ، حتى تسمع أخبار الصالحين ! » (٣)

وقال على لسان بخيل رفض أن يستضيف الملاحظ وصحابه في يوم قانظ : « وقال ضائحا ... فضعه في سويداء قلبك ! » (٤)

وقال على لسان بخيل ادعى أنه سكرن : « سكران والله أنا سكران ! » (٥)

وقوله على لسان أحد البخلاء تضايق بمن كان يأكل معه : « أجهز على الجرحى ، ولا تعرض للأصحاء ! » (٦) يتحدث عن الطيور !

(١) ص ٩٦ من البخلاء

(٢) ص ٦١ من البخلاء

(٣) ص ٣٣ من البخلاء

(٤) ص ٣٨ من البخلاء

(٥) ص ٣٨ ، ٣٩ نفس المرجع

(٦) ص ٤٤ ، ٤٥ نفس المرجع

وقوله : د اجرش يا أباكعب اجرش ا ، (١)

وقوله على لسان أحد البخلاء : د أنى لما غلبتني يوما مشوقى ، وأخرجت
يوما درهما لقضاء وطرى ، ووقعت عيني على سكرته ، وعلى اسم الله المكتوب
عليه ، قلت فى نفسى : إنى إذا لمن الخامس بن الضالين إثن أنا أخرجت من يدى
ومن يبتى شينا عليه : د لا إله إلا الله ، وأخذت بدله شيئا ليس عليه شيء .
والله إن المؤمن لينزع خاتمه للأمر يريد ، وعليه : د حسبى الله ، أو : توكلت
على الله ، فيظن أنه قد خرج من كنف الله - جل ذكره - حتى يرد الخاتم
فى موضعه ، وإنما هو خاتم واحد ، وأنا أريد أن أخرج فى كل يوم درهما
عليه الإسلام كما هو ؟ إن هذا العظيم ا ، (٢)

وقوله : د أنا والله أحتمل الضيف والضيف ، ولا أحتمل اللعموز
ولا الجردييل ... ، (٣)

٥ - التشنيع : وكان الجاحظ كثيرا ما يضع النوادر أو القصص القصيرة
حول بخلائه ، وكانت هذه التشنيعات كثيرا ما تكون مبالغا فيها ، ويصدر
بها دائما الكلام على البخيل ، ومن أمثلة ذلك قوله عن أحمد بن خلف :

د فقلت له - وقد ورث هذا المال كله - : ما بظاً بك الليلة ؟

قال : لا والله إلا أنى تعشيت البارحة فى البيت ا ، (٤)

(١) ص ١٢٧ من البخلاء .

(٢) ص ٥١ من البخلاء .

(٣) ص ٦٧ ، وأنظر مخاطبة أحد البخلاء ص ١٣١

(٤) البخلاء ص ٤١

ويشنع على صاحب له - لا يسميه - فيقول :

أكلنا عنده يوماً ، وأبوه حاضر ، وبني له بجىء ويذهب . فاختلف مراراً ، كل ذلك يرافنا كل .

فقات الصبي : كم تأكلون ، لا أطعم الله بطونكم ١٩

فقال أبوه : - وهو جد الصبر - أبني ورب الكعبة ١٠

ويشنع على الثورى قائلاً :

حم الثورى ، وحم عياله وخادمه ، فلم يقدرُوا - مع شدة الحمى على أكل الخبز ، فربح كيلة تلك الأيام من الدقيق ، ففرح بذلك ، وقال : لو كان منزلى سوق الأزواز أو نضاء خير أو وادى الجحفة ، لرجوت أن أستفضل كل سنة مائة دينار أفـكان لا يبالي أن يحم هو وأهله أبداً ، بعد أن يستفضل كفايتهم من الدقيق ٢١

ويبالغ فى التشنيع على البخلاء حتى يجعل أبا سعيد المدائنى ينهى خادمه أن تخرج الكساحة من الدار وأمرها أن يجمعها من دور السكان ، وتلقيها على كساحتهم ، فإذا كان فى الحين بعد الحين ، جلس وجاءت الخادم ومعهما زبيل ، فعزلت بين يديه من الكساحة زيلاً ، ثم فتشت واحداً واحداً... إلخ، ٢٢

ومن تشنيعه أنه كثيراً ما يجعل البخليل يدافع عن البخل والبخلاء ٢٣

(١) البخلاء ص ٤٤

(٢) البخلاء ص ١٠٤

(٣) البخلاء ص ١٤٢

(٤) البخلاء ص ٦٥ ، ٨٢ ، ١٠٦ ، ١١٦

وكثيرا ما يزايد في بخل البخلاء (١)

٦ - التهر يرض : وكان في بعض الأحيان يسخر بالبخلاء تعريضا كما قال
عن نفسه :

« وكذا مرة في موضع حشمة ، وفي جماعة كثيرة . والقوم سكوت ، والمجلس
كبير . وهو بعيد المسكان منى . فأقبل على المسكى ، وقال - والقوم يسمعون - :
يا أبا عثمان من أبخل أصحابنا !

قلت : أبو الهذيل . قال : ثم من ؟ .

قلت : صاحب لنا لا أسيه !

قال الحزامي من بعيد : إنما يعنيني (٢) .

• • •

هذه هي سخرية الجاحظ من البخلاء ، وقد نجح نجاحا كبيرا في إخفاء
قصده الساخر ، وهذا من يرفع من قيمة السخرية ، ولا يحذنها أو يهر فيها
إلا من أوتي خيالا خصبا ، وصبرا وطول ممارسة لهذا الفن ، غير أني آخذ
عليه - في بعض الأحيان - كثرة المترادفات التي يوردها كثيرا مما تسمى إلى
أسلوب الساخر : فالسخرية تتطلب الاختصار والإيجاز الشديد ما أمكن
لأنها كاللمحة أو السهم الصغير الذي يزيد إيلاؤه كلما دق حجمه ، ومن أمثلة
ما نقول ، قوله في إحدى صفحات البخلاء : « الفقى لا يكون نشالا ، ولا
نشافا ، ولا مر سالا ، ولا لكاما ولا مصاصا . ولا نفاضا ، ولا دلاكا ،
ولا مقورا ، ولا مغربلا . ولا محلقما ، ولا مسوغا ، ولا مانعما . ولا
مخضرا . . . إلخ (٣)

(١) أنظر الصفحات ٢٣ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٨١ ، ٩٣ ،

١٠٣ ، ١٠٦ ، ١١٣ ، ١١٣ ، ١٣٥ ، ١٤٢ ، ١٤٨

(٢) ص ٦٤ ، ٦٥ من البخلاء

(٣) ص ٦٧ من البخلاء

٢ - رسالة الترييع والتدوير

السبب في كتابة هذه الرسالة :

أما السبب في كتابتها : فلم يصرح الجاحظ بالدافع الحقيقية إليه ، كذلك لم نعرف شخصية أحمد بن عبد الوهاب الذي قبلت فيه هذه الرسالة ، معرفة تامة ، ولم ينقل لنا التاريخ ترجمة مفصلة عن حياته أو العلاقة بينه وبين كتاب عصره بعامة والجاحظ بخاصة لكي نتسكن من الإحاطة بالأسباب أو الدوافع التي كتبه هذه الرسالة .

وكل لما يصفه به « كتاب الحيوان » ، هو أنه كان كاتباً من الكتاب .

ويحاول محقق الرسالة وهو المستشرق الفرنسي شارل بلات ، الوصول إلى أحد أسباب كتابه هذه الرسالة فيقول : إن الواثق كان قد أعجب ، بقلم الصالحة ، جارية « صالح بن عبد الوهاب » ، أخى « أحمد بن عبد الوهاب » ، حينما سمعها تغنى ، فأراد شراءها ، فطلب صاحبها خمسة آلاف دينار ، وأن يتولى مصر ، كل ذلك لقاء يبيعها للخليفة والتنازل عنها له ، وكان على الوزير عبد الملك بن الزيات وزير المتوكل تنفيذ هذا الأمر ، ولكن الوزير غضب من مضايبة ابن عبد الوهاب بحقه .

ثم تحول صالح بن الوهاب إلى مكة ، واشترى هناك ضيعة قضى فيها بقية عمره . بعد أن اعتزل خدمة الخليفة .

ويظن المستشرق أن أحمد بن عبد الوهاب قد اتبع أخاه إلى مكة واستقر هناك ، وقد جاءه هذا الظن من جملة ذكريات في الرسالة وجه فيها الجاحظ الكلام إلى أهل مكة : لكي يفتنوا إلى حقيقة الهارب إليهم والغازل بين (م ١٣ - السخرية)

ظهر انهم وهو أحمد بن عبد الوهاب ، . . وقد يكون هذا الظن صحيحا وقد يكون أحد أسباب كتابه الرسالة ، ولكنة - على ما نرى - سبب غامض لم يصرح به أو يؤيده التاريخ أو المؤرخون .

وحينما درست الرسالة دراسة دقيقة مفصلة ، أحسست بمدى الحق الدفين الذي يحسه الجاحظ إزاءه ، ذلك الحق الذي جعله يكتب تلك الرسالة الطويلة بذاك النفس الذي لا يمتهر ، فجعلني هذا أظن ظنا أقرب إلى اليقين أنه كانت ثمة عداوة تأصلت بمرور الأيام بين الجاحظ وأحمد بن عبد الوهاب ومن الجائز أن هذا العدو كان قوى الشكيمة إلى حد أنه آذى الجاحظ ، وكان يحسده حسداً صرح به الجاحظ . في عدة مواضع من الرسالة كقوله عنه « ويحسد العلماء من غير أن يتعلق منهم بسبب » ، ^(١) وكذلك فقد يكون « أحمد بن عبد الوهاب » ، من أدياء العلم والأدب ^(٢) وحسن المنظر والمخبر ، حتى إن الجاحظ استغل ذلك الادعاء في محاولة السخرية منه سخرية امتدت من أول فقرة في الرسالة إلى آخر فقرة فيها ، وقد يكون هذا السبب أو الدافع أقوى من محاولة سخرية الجاحظ . به لمجرد أخوته لصالح بن عبد الوهاب الذي أراد للوزير الخطير محمد بن الملك الزيات الانتقام منه بواسطة قلم الجاحظ الحاد .

منهج الرسالة :

يقدم الجاحظ لرسائله أولا بمقدمة عن أحمد بن عبد الوهاب وعن ادعائه

(١) الرسالة ص ٦ فقرة ٣ (تحقيق شارل بلات وطبعة بيروت ١٩٥٦) وأنظر

أيضا ص ١٠ / ١٠ ، ١١ / ١١ ، ١٢ / ١٣

(٢) رسالة التبريع والتدوير الفقرتان ٢ ، ٤ .

ما ليس فيه : فيحذف جسمه وصفاً حسياً : وكان مفرد القصر ، ويدعى أنه مفرد الطول . وكان مربعاً وكان جعد الأطراف وكان ملوئيل

الظهر قصير عظام الفخذ وكان كبير السن متقدماً الميلاد ، ومن هذا الوصف الحسن اشتق اسم الرسالة وهي « الترييع » ، لأنه كان ربة أو مربعاً على حد تعبيرة ، و« التدوير » ، لأنه حاول أن يتخيله كأنه مدور لسعة جفرتة واستفاضه خاصرته ، ،

وقد جعل هذه المقدمة ملخصة للعناصر التي سيسخر منه بسببها :

فسخر من جسمه ، وكان هذا الجانب من سخريته موجزاً بالنسبة للعنصرين التايين : وهما سخريته من ادعائه التبحر في العلم ، وسخريته من كبر سنه ولادعائه طول التجربة الناشئة عن كبر السن .

وبعد هذه المقدمة التي استغرقت خمس صفحات يبدأ في الرسالة . والغريب أنه يحاول أن يبدأ هذا الجزء الذي يعد القسم الأكبر من الرسالة ، يحاول أن يبدأ بالبسملة ، بتمهيد له ، بما يشعر كأنه يبدأ بدءاً جديداً منفصلاً عن سابقه .

أما من ناحية طريقتة في إيراد ما أورد في الرسالة : فلم يحاول أن يستمر سخريته من عنصر ما من هذه العناصر حتى إذا ما انتهى منه انتقل إلى عنصر التالى ، بل كثيراً ما يداخل بين هذه العناصر بعضها والبعض الآخر ولو أنه قد خصص الفقرات الأولى لسخريته من جسمه ، وقلل منها في فقرات التالية .

وكان الجاحظ لا يفتى أساو به الذي طبعته به كتابته في أغلب كتبه ، بعض فقرات هذه الرسالة : وأعني به مسحة المزاوجة أو التفلسف وتشويق

الكلام و كثرة إيراد المترادفات الكثيرة^(١) . كما ذكرت في التعليق السابق على كتاب البخلاء . ولا ينبغي كثرة استشاده بالحكم والأمثال والأحاديث النبوية والآيات ، ولو أنها أقل نسبياً مما انتهجه في البخلاء ، ويحاول أن يكثر من الأمثال ومن الروايات المختلفة أو الصيغ المختلفة لهذه الأمثال^(٢) .

وكثيراً ما يتخلل سخريته استطراده إلى الكلام عن موضوعات أخرى لا تمت إلى موضوعه بسبب قريب ، بل هي استطراد بسبب لفظة أو عيب ذكره : كاستطراده في الكلام عن المراء^(٣) أو المزاح^(٤)

عيوب الرسالة :

أما أول هذه العيوب فهو العبارات الهجائية الصريحة التي بثها هنا وهناك في أجزاء الرسالة في حين أنه كان من الأجدر أن لا تعتملى رسالة ساخرة على ألفاظ هجائية أو تعنى من قريب السب الذي تخالفه السخرية كل المخالفة إذ هي تقوم على التورية والتعمية والإيلاام غير المباشر كالسهم المميت الذي لا يظهر أثره إلا بعد أن يكون قد تمكن من الرمية كل تمكن من غير أن تظن له في أول الأمر .

فن أمثلة ذلك قوله :

(١) رسالة التزييع والتدوير ٥ / ٢

(٢) رسالة التزييع والتدوير ٥ / ٧

(٣) رسالة التزييع والتدوير ٨ / ٨ ، ٨ / ٩

(٤) رسالة التزييع والتدوير ٤٦ / ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩١ / ٩٤

٩٧ ، ٩٨ / ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨

« وما أدري - حفظك الله - في أي الأمرين أنت أعظم إثماً ، وفي أيهما أنت أخش ظلياً : أبتعرضك للعوام ، أم يافسداك الخواص ، ، (١) »
وقوله أيضاً :

« وقد سألتك - وإن كنت أعلم أنك لا تحسن من هذا قليلاً ولا كثيراً ... ، (٢) »

وقوله أيضاً :

« وأي نظام أفسد من عرض مجاوز للقدّر ، وطول مجاوز للأقصد ، ، (٣) »
ومن هذه العيوب أيضاً : كثرة ذكره أسماء المشهورين من الرجال حتى ربما عد ستة عشر اسماً كقوله : « وقد رأيتك زماناً تحتج بالنعمان بن المنذر وبضمرة بن ضمرة ، وبمجاعة بن مرارة ، وبمجاعة بن سمر ، وبأوفى بن ربيعة ... الخ ، (٤) »

أو الصفات الكثيرة كقوله : « ... غير منخوب ولا متشعب ولا مدخول ولا مشترك ولا ناقص النفس ولا واهن العزم ولا حسود ولا منافس ولا مغالب ولا معاقب ... ، (٥) »

ومن هذه العيوب أيضاً : إطالة الجملة أحياناً كقوله : « ... ولكن حدود الأشياء إذا خفيت ومقاديرها إذا أشكلت ، ولم يكن مع الناظر فيها مثل تمامك ولا مع المتكلف لها مثل كمالك ، دخل عليه من الخلل بقدر عجزه ، وسلم منه بقدر نفاذه .. ، (٦) »

(١) رسالة التبريع والتدوير ١٦ / ٢٠ (٢) المرجع السابق ٩٧ / ١٨٩

(٣) د د د ١٩ / ١٥ (٤) د د ٢١ / ١٦

(٥) المرجع السابق ١٩ / ٢٦

(٦) د د د ٨٦ / ٤٧ ، وانظر أيضاً مثلاً آخر ١ / ٥٦ ، ١٠٢ / ٥٦

ومن هذه العيوب أيضا : المبالغة في السخرية ، مبالغة غير مقبولة أو مستملحة كقوله : ،

« وليس حسنة - أبقاك الله - الذي تبقى معه توبة ، أو تصح معه عقيدة أو يدوم معه عهد أو يثبت معه عزم أو يمهل صاحبه التثبت أو يتسع للتخير أو ينهيه زجر أو يهذبه خوف ... الخ ، (١)

ويبالغ في قياس فلسفى تمجده السخرية التى لا تميل إلا إلى الإيجاز كقوله : « وحتى لو كنت إمام الرافضة ، لقتلت فى طرفة ، ولوقلت فى طرفة لهلك الأمة لأنك رجل لا عقب لك ، والإمامة اليوم لا تصح فى الأخوة ، ولو صلحت فى الأخوة كانت تصلح فى ابن العم ، ثم إنها دنت من الأرحام بعد ذلك فصارت لا تصلح إلا فى الولد ، وفى هذا القياس إنها بعد أعوام لا تصلح إلا بقاء الإمام نفسه إلى آخر الأبد ، وهذا هو علة أصحاب المناسخة ، وأنت رافضى ، ولم يكن هذا عندك ... » (٢)

ومن عيوب الرسالة أيضا الاستطراد وهو المنهج الذى اتبعه فى كتبه العلمية كالحيون والبيان والتبيين إذ هو يصلح فى هذا المجال ولكنه لا يصلح فى رسالة قائمة على الهز وتطلب السرعة والإيجاز ، وقد أحس الجاحظ بذلك فصرح غير مرة بإحساسه قائلا :

« فلا تعجب - أيها السامع - ولا تظن أنى مفرط ... » (٣)

وقوله : « وقد تعجب ناس من إطالتي ومن كثرة مساءلتى ، وتعجبى من تعجبهم أشد والذى كان من إنكارهم أعظم ... » (٤)

(١) المرجع السابق ١٠٧/٦٠

(٢) التبريع ١٣٠/٧٣

(٤) المصدر السابق ١٦٥/٨٧

(٢) المصدر السابق ١٠٥/٥٨

وعلى الجملة ، فإننا نأخذ على الجاحظ في هذه الرسالة : جملة المطولة أحيانا وأنسجتها العقلية البعيدة عن « طرق التهكم » ، في أحيان أخرى ، إذ يجدر بها أن تكون خفيفة الوزن ، سريعة لملاحظة فلا داعي لكثرة المترادفات ، مختلفة متنوعة حتى لا يمل القارئ ، قليلة في الناحية العلمية لا كثيرة . وقد كان يستطيع إيراد بعض الطرف أو الأفاعيص المختصرة التي يتهكم بها في رسالته ، حتى يبعد السأم والملل عن القارئ . بالنزاهة هذه الناحية الواحدة التي حاول تنويعها بقدر طاقته الفنية الهائلة ، ولكنه على الرغم هذا لم يسلم من إملال في بعض أجزاء رسالته وسخف في بعضها الآخر .^(١)

طرق سخريته :

١ - التباله : أو محاولة الكلام على لسان أحمد بن عبد الوهاب بأن ينسب إليه كلاما يدافع به عن شكله أو قصر جسمه كقوله : « وقلت : إن كان الفضل في العدد ، فمنا يأجوج ومأجوج ، ومنا الدعا ميص والبعوض ! واحتججت بأن الحسن والفضل لصغار ما في الإنسان كالناظرين والأتشين .. الخ ، »^(٢) ويحتج على لسانه فيقول : « وزعمت أن الإنسان إذا طال جسمه ... أسرع الانهدام إلى بدنه ، وأن القصير لا يتفوس ظهره ، ولا يميل عنقه ، ولا يضطرب شخصه ولا تعوج عظامه . ويسعه كل باب ، وبقية طعمه كل ثوب ولا نخرج رجلاه من التعش ، ولا يفضل عن الفراش ... »^(٣)

(١) المصدر السابق ٥٩ / ١٠٦

وانظر أمثلة الكلام الفاسق في ٧٢ / ١٢٩ ، ١٠٣ / ٢٠٣

والاستطراد في ٤٦ / ٦٤ ، ٨٥ / ٤٧ ، ٨٨ / ٤٩ ، ٩٠ / ٥٣ ، ٩٧ / ٦٥

١١٥ / ٦٦ / ١١٧

(٢) الترميم والتدوير ١٧ / ٢٣

(٣) المصدر السابق ١٧ / ٢٤

ويستمر في تنصيبه مدافعا عن نفسه ، كأنه يتلاعب به هازئا قائلا :
«وقلت : لو الناس إن قالوا في الحسن كأنه طاقة ربحان ، وكأنه نحوط بان ،
فقه قالوا في المريض كأنه المشتري وكأن وجه دينار هرقل ، وكأنها دلوقة
القمر ، فقد ترام وصفوا المستدير والمريض بأكثر مما وصفوا به القصير
والطويل ،»^(١)

٢ - المبالغة :

كقوله : «وبعد ، فن يطمع في عيبك ، بل من يطمع في قدرك ، وكيف ،
وقد أصبحت وما على ظهرها خرد إلا وهي تعثر باسمك ، ولا فينة إلا وهي
تغني بمدحك ، ولا فتا إلا وهي تشكو تباريح حبك ، ولا محجوبة إلا وهي
تنقب الخروق لممرك ، ولا عجزز إلا وهي تدعو لك ، ولا غيور إلا وقد
شقى بك أمة من كبد حري منضجة وصدوعة مفرثة . . . وكم من عبري
موفقة وقتاة معذبة قد أفرح قلبها الحزن وأجمد عينها السكمد . . . إلخ ،»^(٢)

٣ - التلاعب بالأسلوب :

وهي أن يذكر له الصفة وضدها اقتداراً من الجاحظ لسيطرته على زمام
الكلام وامتناعه لأعنته كقوله فيه : «قد والله - عافانا الله بك وابتلى ،
وأنعم بك وانتقم ، فترحاً لمن زهد فيك ، وسقياً لمن رغب إليك ، وويل
لمن جمل فضلك ، بل الويل لمن أنكر فضلك إلا أنك - جعلت فذلك - كما لم
تكن فكنت فكذا لا تكون بعد أن كنت ، وكما زدت في الدهر الطويل ،
فكذا تنقص في الدهر القصير ، إذ كل طويل فهو قصير ، وكل متناه فهو

(١) المصدر السابق ٢١ / ٢٩

(١) المصدر السابق ٥٩ / ١٠٦

قليل، فأياك أن تظن أنك قديم فتكفر، ولذا أن تشكر الله حدث
فتشركا، (١)

وقال في موضع آخر... فلما رأيتك، علمت أنك عذاب صبه الله
على كل رفيع، ورحمة أنشأها لكل وضع ا، (٢)

ويلاحظه مادحا ساخرا معظما قدره حاطا من قيمته بقوله: د ولو
استحققت عقابك يا قدامى عليك مع خوفي منك، لاستوجبت عفوك من
إقدامي عليك لحسن ظني بك، على أنى - متى أوجبت لك العفو، فقد أوجبت
لك الفضل، ومتى أضفت إليك العقاب، فقد وصفتك بالإلصاف، ولا أعلم
حال الفضل إلا أشرف من حال العدل، ولا الحال التي توجب الشكر إلا
أرفع من الحال التي توجب لك الصبر...، وهكذا يتظاهر بأنه قد أجرم
في حقه ثم يتظاهر بأنه يعظم قدره عن الانتقام فيطلب منه - هازئاً - المغفرة !!
وهذا من طرق التهويل إذ يحاول الساخر أن يجعل من الشيء الملمين شيئا
عظيما فيبني عليه تهكمه...

٤ - المدح الساخر :

ويحاول أن يمدحه ويث في مدحه كلمات بعينها تنطق بإفصاح عن سخريته
اللاذعة، كقول له واصفا بياؤه وأسلوبه: د وتعطى المعنى حقه من اللفظ، كما
تعطى اللفظ حقه من المعنى، وتجب المعنى إذا كان حيا يلوح، وظاهرا يصبح،
وتبغضه إذا كان مستهلكا بالتحقيد، (٣)

(١) الترتيب والتدوير ٤٠ / ٧١

(٢) المرجع السابق ٤٥ / ٨٢

(٣) الترتيب والتدوير ٢٠ / ٢٧

ويقول وأصفا ما عرض به الله عن القصر من سمات الحسن المضحكة :
د فوالله إنك لجيد الهامة ، وفي ذلك خلاف من حسن القامة ! وإنك لحسن
الخط ، وفي ذلك عوض من حسن اللفظ ! وإنك لقليل الشيب قليل البول ،
وإنك لتجد مقالا ، وإنك لتعد خصالا ، (١)

د - التهم الظاهر الضاحك :

وذلك بذكره ألقاظه كاذبة مضحكة تنزع الابتسامة من القارىء انتزاعا
كبقوله حين يصوره الغاية في كل شيء وطغيانه على كل شيء حتى الجناد : «
جعلت فداك ، ما أتمى منك الذهب ، وأى بلاء دخل بك على الحر ؟ كانا
يتفهان بطول العمر ، ويتفهان ببقاء الحسن ! فلما أربى حسنك على حسنهما
وعمر طول عمرك أعماهما ، ذلا بعد العز ، وهانا بعد الكرامة !»

ويبلغ نهاية التهم ببقوله : « وما لي فيك قول إلا قول الأعرابي حين
ضل الطريق في الظلمة : فلما عرف قصده عند طلوع القمر ، رفع رأسه شاكرًا
وهو يقول : « ما أقول ؟ ، أقول : رفعتك الله ، وقد رفعتك ؟ أم أقول :
جعلتك الله ، وقد جعلتك ، أم أقول : « عمرتك الله ، وقد عمرتك ؟ ولكن أقول :
« وهل أنطق إن نطق إلا رجيعا ، وأقول وما قلت إلا لغوا ؟ » (٢)

ويتهمكم به ناسبا إليه - كذبا - بغض الشهرة فيقول : « يعجبني - جعلت
فداك - منك بغض الشهرة ... استغناء بنفسك ، وعزنا لقدرك ... وما أقل -
بحمد الله - ما سبقك به إبليس ، وما أيسر ما فاتك به آدم ! » (٣)

ويقارن - متهكما - بينه وبين إبليس في موضع آخر فيقول : « ولست

(١) المرجع السابق ٢٤ / ٣٥

(٢) التبريع والتدوير ٥٥ / ٣٣

(٣) المرجع السابق ٢٤ / ٥٨

جعلت فداك - كيا بليس ، وقد تقدم الخبر في بقاءه إلى انقضاء أمر العالم وقائه ؛
ولولا الخبر لما قدمته عليك ولا ساوئته بك ، وأنت أحق منه بعذر ،...^(١)
ويحكم به حينما يصف أعضاء تافهة من جسمه فيقول : ... أما كفك :
فهي التي لم تخلق إلا للتقبيل والتوقيع ، وهي التي يحسن بحسنها كل ما اتصل
بها ، ويختال بها كل ما صار فيها ، كما أصبحنا وما ندرى : الكاس في يدك
أحسن أم القلم ، أم الرمح الذي تحمله ، أم المخصرة أم العنان الذي تمسكه أم
السرط الذي تعلقه ... وأما قدمك : فهي التي يعلم الجاهل كما يعلم العالم ويعلم
البعيد الأقصى كما يعلم القريب الأدنى ، أنها لم تخلق إلا لمنبر ثمر عظيم ، أوركاب
طرف كريم ... وأما فرك ... إلخ ،^(٢)

وهكذا يلعب به بوصفه وصفاً مادياً لا يليق إلا بالحسان ، ويتولع به
بوصف أجزاء من جسمه لا تذكر بجانب إنسان وقور إلا انتزعت من
الوقار انتزاعاً ١

ويرجع في نهاية الرسالة إلى سوق حديث على لسانه متسائلاً عن السبب
في التنويه بذكره قائلاً : « وستقول : مادعاك إلى التنويه بذكري ، وتعريف
الغاس مكاني ، وقد تعرف حشمتي وانقباض نفوري واستبحاشي (أي أنه
يغض الشهرة كما ذكر قبلاً) ... ولولا أنك - جعلت فداك - مسؤول في كل
زمان والغاية في كل دهر ، لما أفردتك بهذا الكتاب ولما أطمعت نفسي في
الجراب ، وإسكانك كنت أذنت في مثلها لهرمس ثم لافلاطون ثم
لأرسطاطاليس ، ثم أجبت معبد الجهن ... فترية كفك والناشيء
تحت جناحك أحق بذلك وأولى ، وقد كان يجب أن تكون على ذلك أحرص
به وأعني ،^(٣)

(١) التبريع والتدوير ٧٢ / ٤١ .

(٢) المرجع السابق ١١٠ / ٦٢ .

(٣) التبريع والتدوير ١٦٦ / ٨٨ .

ويستلزمه أن يصح عن أشبهه ثقافة أو خرافة قائلا : « لم يبين محمد رسول الله
ويغوث ويعوق ؟ ومنذ كم نكح أسلافنا ؟ » (١٤) وما تقول في الهام ؟ وخبرني
عن شيبان ... وابن كان مسلح شيطان الأعشى من عمرو شيطان المخيل (١٥)
وخبرني عن الشق وعن واقواق ... وشعب رضوى (١٦).

٦ - العناصر الفنية في سحرته ، أو أسلوبه الساخر :

الألفاظ المضحكة : « وقد زعموا - جعلت فداك - أن أحمل ما طال
عمره من الحيوان زائد في شدة الأركان ، وفي طول العمر ، وصحة الأبدان
كالورشان ... فإن كان هذا حقاً ... وكان هذا العلاج نافماً ، وكنت له
مستعملاً ... أخذتاً منه بنصيب ، وكيف لي بذلك ، وأنا صغير الآذن وأذنك
أذن أبي مهيل ! وأنا صغير الرأس ، ورأسك رأس جالوت ! » (١٧).

الجل الإعتراضية الدعائية : وقد مر في الفقرات السابقة أمثلة واضحة
على مقدار كل جملة دعائية ساخرة في ثنايا الكلام مثل - « حفظك
الله » (١٨) « وجعلت فداك » وقد ذكرها أكثر من عشرين مرة (١٩) وأبقاك
الله (٢٠) ويرحمك الله ، وأطال الله بقاءك .

الطريقة الإنشائية كالاستفهام والأمر والتسليم مثل : « فلما يخرجك

(١٤) المرجع السابق ٣٨ / ٦٦ .

(١٥) المرجع السابق ٢٩ / ٦٩ .

(١٦) المرجع السابق ٤١ / ٧٣ .

(١٧) المرجع السابق ٣٢ / ٥٢ .

(١٨) المرجع السابق ١٠ / ١٦٠٩ ، ٢٠ / ٢٤ ، ٥٧ .

(١٩) المرجع السابق ٢٦ / ٤٠ ، ٢٩ / ٤٦ ، ٢٦ / ٤٩ ، ٣٢ / ٥٣ ، ٣٣ / ٥٥ .

(٢٠) المرجع السابق ١٣ / ١٤ ، ١٨ / ٢٥ ، ٢٥ / ٢٠ ، ٣٦ / ٦٠ ، ١٠٧ .

إلى هذا ، وما يدعوك إليه ، وأشباهك من القصار كثير (٢٠ / ٢٦) .
 « فقل معروفاً ، فإننا من أعرانك ، واقتصد فلاناً من أنصارك ، وهات ،
 فإنك لو أسرفت لقلنا قد اقتصدت ، ولو جرت لقلنا قد اهتممت » (٣٦ / ٢٤) .
 فيا قعيد الملك كيف أمسيت ؟ ويا قوة الهيولى كيف أصبحت ؟ ويا نسر
 لقمان كيف أصبحت ؟ (٣٨ / ٢٥) .

التبكيك :

وذلك بتوجيه أسئلة يستحيل الإجابة عليها كقوله : كيف رأيت
 الطوفان ؟ ومتى كان سيل العرم ؟ ومذ كم مات عوج ؟ ومتى تبلبلت الألسن ؟
 وما حبس غراب نوح ؟ وم كم لبثتم في السفينة ؟
 وقد استغرق هذا الجزء من الرسالة صفحات عديدة ، وأخذ الجاحظ
 يعرض معلوماته الكثيرة في شتى العلوم والمعارف التي كان يزخر بها عصره
 فأخذ ينتقل من علم الحيوان إلى النبات ، إلى الجغرافيا إلى التاريخ إلى الهندسة
 إلى الجبر إلى الموسيقى ، ثم يسأله في أثناء ذلك عن أشهر رجال كل علم ، والقضايا
 العامة التي يشتمل عليها وهكذا عرض الجاحظ لذلك العقل المستنير
 الذي كان يحمله ، وأخذ يداعبه طائر الصغير ، أحمد بن عبد الوهاب ،
 والغريب أنه يسكسه بطريق توجيه السؤال مصرغاً صياغة توحى بواقعيته
 كقوله : لم لم تنزق في وجه فرعون ؟

فقد علمت ما ذكروا من عمر نابغة بني جمدة . . . وأنت أبقاك الله -
 تعرف ميلاد آبائهم وأجدادهم وقبائلهم وعماثرهم وأصولهم وأجذامهم
 تخبرني : أكذبوا أم صدقوا ، أم اقتصدوا أم أسرفوا ؟

ويسأله عن النعال السنية : وزعم إماما عيل بن علي أنك أنت الذي كنت
 أمرت باتخاذها ، وأشارت بصنعها وأنت تكتم السر الذي فيها . . . (١) .

ومن السمات التي تلوح على سخريته : السجع الذي يهتم به بعض
عبارات السخرة كقوله : وتحب المعنى إذا كان حياً يلوح وظاهراً
بصيح . (١٧ / ٢٠)

وفي موضع آخر : فقل نسمع . وأشر تتبع (٥٧ / ٢٤)

أبو العيناء

هو محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر بن سليمان ، ويكنى بأبي عبد الله ، وأصل قومه من بني حنيفة من أهل النمامة ، ولحقهم سبأ في أيام المنصور ، فلما سار د ياسر ، في قيد ، أعتقه ، فولأؤهم لبني هاشم . وتروى روايتان إحداهما عن إساءة جده سليمان مخاطبة على بن أبي طالب ، والأخرى عن غضب عبد الله بن حسن على جده خلاد في أيام المنصور ، وكل منهما دعا على جديه وعلى ولده بالعمى .

ولم يذكر شيء عن أبيه ، أو البيثة التي عاشا فيها اللهم إلا أن والده القاسم بن خلاد عاش في كورة بخوزستان حيث ولد ابنه محمد سنة ١٩١ هـ بعد نكبة البرامكة بسنوات ، وقبل وفاة الرشيد بسنتين . وعاش طفولته الأولى حين يبيع للأمين بالخلافة بعد وفاة أبيه في طوس ، وأضحى في السابعة من عمره لدى مقتل الأمين ، ونشأ أحول العين مخضوبا بالحررة خضابا ليس بالمشع ، فأمضى في الأهواز سنوات من طفولته ، ثم انتقل منها إلى البصرة فأمضى فيها بقية حداته وكل شبابه وجانباً من كهولته ، في عصر المأمون الذي استمر عشرين عاماً ، فأصبح أبو العيناء في ريعه السابع والعشرين ، ثم عاصر المعتصم الذي ظل ثمانية أعوام ، فأضحى أبو العيناء في السادس والثلاثين ، ثم عاصر الواثق بالله الذي ظل خمسة أعوام فخاوزه أبو العيناء حدود الأربعين .

وحينذاك اعتلت عيناه فكف بصره بعد حول لازمه صباه وشبابه وكهولته . وكان ذلك بعد مغادرته البصرة إلى بغداد ليقضى فيها الشطر الثاني من حياته المديدة .

وقد تلقى العلم وهو في البصرة على أيدي جلة من شيوخها : فسمع من

أبي عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١١ هـ) وأبي سعيد الأصمى (ت ١٢١ هـ) وأبي زيد الأنصارى ومحمد بن عبيد الله العتيبي وغيرهم ، وكان يروى عن الأصمى كثيرا

وروى عنه أحمد بن محمد بن عيسى المسكى وأبو عبد الله الحكيمى ، ومحمد بن يحيى الصولى ، ومحمد بن العباس بن مهيح ، وغيرهم ، وقرأ عليه الأحنس والقاضى أبو بكر بن كامل وجعفر بن قدامة السكاتب . ولم يسند من الحديث إلا القليل ، والغالب على رواياته الأخبار والحكايات .

ولم يعرف له من الأولاد إلا جعفر وعبد الله أو عبيد الله الذى به يكنى أما زوجاته فلم تذكر منها إلا واحدة ورد ذكرها حينما حاول الزواج بأخرى من قرابته فاقصد ذلك عليه أحد مواليه . وما يروى عن أخبار أسرته حديث دار بيته وبين أبيه بعنوان : أنا أول عاق بالبصرة ، وهناك حديث دار بينه وبين ابنه حينما سأله - وهو مريض - ماذا تشتهي ؟ فقال : " يتم " أما ما عدا هذا ، فلم يذكر شئ . عن حياته الاجتماعية ، إما لنقص الأخبار التى رويت عنه ، والتى لم تنم إلا بالباحية الطريفة من حياته ، وإما لعدم وجود أخبار تتعلق بالأسرة لهدوء حياته الزوجية هدوء تاما وهذا نافذ بالنسبة لغيره من الأئمة ، فإلا بالباحية بشخص كالأبى العيناء كذلك لم يرد شئ . عن هيئته أو شكله أو جسمه ، إلا أنه كان قبيح المنظر ، وهذا النقص الكبير فى مثل تلك الأخبار يقلل - بل يضعف - من قيمة المحاولة التى نقوم بها لرسم أو تصور شخصيته تصورا أقرب إلى الدقة .

وقد التقى فى حياته بكثير من رجالات عصره : فعاصر ثمانية خلفاء بعد الأربعين هم المتوكل الذى استمر فى خلافته أربعة عشر عاما فأمرى أبو العيناء فى السادس والخمسين ثم عاصر ابنه المنتصر الذى حكم ستة أشهر ثم المستعين الذى خلع بعد خلافة دامت أربعة أعوام فكان أبو العيناء فى الواحد

والستين ، ثم المعتز الذي خلع نفسه بعد ثلاثة أعوام فأصبح أبو العيناء
في الرابع والستين ، ثم المهتدي الذي خلع بعد أقل من عام فأضحى أبو العيناء
في الخامس والستين ، ثم المعتضد الذي ظل ثلاثة وعشرين عاما فأشرف
أبو العيناء على الثامن والثمانين ، ثم المفرض الذي خلع نفسه في السنة ذاتها ،
وأخيرا شهد ثلاث سنوات أو أربعا من خلافة المعتضد قبل وفاته سنة اثنتين
وثمانين ومائتين أو سنة ثلاث وثمانين ومائتين في رواية جعفر بن أبي العيناء (١)
والتقى بكثير من الكتاب وعلى رأسهم الجاحظ الذي صادقه ، وبالوزراء
والقضاة كالأحمد بن أبي دؤاد ، ومحمد بن عبد الملك الزيات وأبي الصقر إسماعيل
بن بلبل الوزير ، والشاعر أبي علي البصير ، وصاعد بن محمد النصراني ، ومحمد
بن مسكرم ، وإبراهيم بن المدبر ، وإبراهيم بن عتاب ، وإبراهيم المصعبي ،
وأحمد بن سعيد الباهلي ، وغيرهم كثيرون (٢) .

ولا شك أن امتداد عمره حتى بلغ قرنا لا قليلا قد أتاح له فرصة الاطلاع
على طائفة ممتدة من مواكب الدهر ، رأى في خلالها ملوكا تميز وتذل ،
وحكومات تحيا وتموت ، ، وأبطلا يسوقون الناس إلى الموت ثم يشربون
من نفس الكأس ، ورجالا أكبروا النظام فأسسوا وبنوا ، وجماعات
استجبوا القوضى فهدموا وحطموا وكان لهذه الحوادث الجسام والمشاهد
المتناقضة آثار جليلة عملت في نفسه عملما ، فكانت تجارب صقلته وحسنته
فعرف ضعف الإنسان وإن تولى المناصب وارتقى أعلى المراتب ، وانحمررت

(١) انظر ثلاث مقالات بعنوان « أبو العيناء : من ظرفاء العصر العباسي »
للاستاذ صبحي إبراهيم الصالح نشرت في مجلة الرسالة الأعداد من ٧٧١ الى
٧٧٣ سنة ١٩٤٨ م .

(٢) انظر مقدمة كتابنا عن أبي العيناء وفهرس الاسماء فيه .

ثقت به بالناس وتمكنت ثقته بنفسه ، ورأى بهجة الدنيا لا تستحق العناء لما
قاسها بمصائبها التي تذكر صفوها ، فإذا هو يبكي على حرمانه ، ثم يزهد
زهادة الفقير الضعيف ، ثم يتشكى إلى نفسه ويهتف :

تولت بهجة الدنيا	فكل جديد ما خلق
وخان الناس كلهم	فأأدرى بمن أثق
رأيت معالم الخير	ت سدت دونها الطرق
فلا حسب ولا أدب	ولا دين ولا خلق

فنهض في تلك الآيات القلق والاضطراب بل التشاؤم يرين على قلبه
وبخاصة حينما صدم بتلك الحقيقة التي تنتقل من جيل إلى جيل وهي سوء
حال العلماء والأدباء إذا ما قيس بترف الأغنياء وما يعيشون فيه من بحيرة
العيش ، فيفيض شعره حسرة وهو يقول :

من كان يملك درهمين تعلمت	شفتاه أنواع الكلام فقالوا
وتقدم الفصحاء فاستمعوا له	ورأيت به بين الوري مختالا
لولا دراهمه التي في كيسه	لرأيت به شر البرية حالا
إن الغنى إذا تكلم كاذبا	قالوا : صدقت وما خطقت محالا
وإذا الفقير أصاب قالوا : لم تصب	وكذبت يا هذا وقلت ضلالا
إن الدراهم في المواطن كلها	تكسو الرجال مهابة وجلالا
فهي اللسان لمن أراد فصاحة	وهي السلاح لمن أراد قتالا (١)

ميزاته :

وكان أبو العيناء من أحفظ الناس ، وأفصحهم لساناً وأسرعهم جواباً ،
وأحضرهم نادرة ، شاعراً ^(١)

وقد ضرب به أبو حيان التوحيدي المثل في سرعة البديهة ساخرًا
بالصاحب بن عباد حين قال : قد استدرك مولانا على الحليل في العروض ؛
وعلى أبي عمرو في اللغة وعلى أبي العيناء في البديهة ^(٢) .

وقال المسعودي : وكان له من اللسان وسرعة الجواب والذكاء ما لم
يمكن عليه أحد من نظرائه ^(٣) . وقال عنه ابن خلكان : وكان من أحفظ
الناس وأفصحهم لساناً ، وكان من ظرفاء العالم ^(٤) وبينه وبين أبي علي البصير
مكاتبات ومهاجاة ، وكذلك بينه وبين أبي هفان ، وله أخبار حسان وأشعار
ملاح مع أبي علي البصير وغيره .

قال النويري : وهو ممن اشتهر بالمجون ، وله نوادر وحكايات مستظرفة
ومراسلات عجيبة ^(٥) . وقال بن كثير : له معرفة تامة بالأدب والحكايات
والملاح ، أما الحديث فليس له منه إل القليل . وقال الحمصري : وكان
أبو العيناء أحد الناس خاطراً ، وأسرعهم جواباً ، وأبلغهم خطاباً ^(٦) .
والحقيقة أن أبا العيناء - كغيره من ظرفاء عصره كالحمدوني - لم يهتم

(١) الفهرست ١٨١ ، تاريخ بغداد ٣ / ١٧٠ - وفيات الاعيان ١ / ٧١٩

(٢) معجم الادباء ٦ / ١٨١

(٣) مروج الذهب ٤ / ١٧٠

(٤) وفيات الاعيان ١ / ٧١٩ ومعجم الادباء ١٨ / ٢٨٦

(٥) نهاية الارب ٤ / ٨٤ ، البداية والنهاية (طبعه السعادة بمصر سنة ١٩٣٢

١١ / ٧٣ ، نكت الهميان ٢٦٦

(٦) زهر الآداب ٢٨١

أحد بتسجيل حياته بدقة ، اللهم إلا ما يستشف من أحباره التي جمعت
في عصره وبعد عصره ، ونثرت هنا وهناك في كتب الأدب ، ولكنها لا
تغني شيتنا عن الإحاطة بشخصيته .
أخلاقه :

كان يشعر شعوراً تاماً بالنقص والحسرة والآلم لفقد بصره وبخاصة بعد
أن استمتع به في شبابه وكمولته ، وكذلك باحتقار الناس إياه أو الولوج
بمسا كسته على الرنم من ذكائه المفرط : فما يدل على ذلك ، ما سأل به أحمد
ابن أبي دؤاد : ما أشد ما أصابك في ذهاب بصرك ؟ قال : أبدأ بالسلام
وكنت أحب أن أكون المبتدىء ، وأحدث ما لا يقبل على حديثي ، ولو
رأيت لم أقبل عليه ^(١) .

فن هذا نستشف تلك الحساسية ، وتلك الفسوة التي كان يشن تحتها من
جراه فقدان بصره ، وما يروى في ذلك أن قينة قالت له : أنت أيضاً أعمى ؟
فقال لها : ما أستعين على وجهك بشيء أصلح من العمى !

ونستطيع أن نورد أمثلة أخرى مما دار بينه وبين المتوكل حينما قال
له : لولا ذهاب بصره لنا دمناءه ، فالقمة أبو العيناء جواباً لا ذعائمه جواب
بشار الذي رده على خال الخليفة المهدي ^(٢) .

ولما ولد له ولد ، ذهب له ابن مكرم ، فوضع له حجراً بين يديه ، ثم
انصرف . فلما أحس به ، سأل عن أحضره ، فقيل له : أبو البصير ولا شك
أن مثل هذه الحادثة وغيرها مما يؤثر فيه تأثيراً بيننا : وقد شعر بذلك المتوكل
حينما سأل ألا يكدر الواقعة في الناس ، فرد عليه أبو العيناء : إن لي في بصرى

(١) تاريخ بغداد ٣ / ١٧٤ ، ومعجم الأدباء ١٨ / ٢٩٠

(٢) الإغاني (طبعة دار الكتب المصرية الأولى) ٣ / ١٥٩

شغلا عن ذلك ا فقال المتوكل : ذاك أشد لحقدك على أهل العافية والمآ قال له المتوكل : ما أشد مامر عليك من فقد بصرك ؟ رد مستهزئا : ما حرمت منه النظر إليك أيها الأمير^(١) .

إذن فقد ولد العمى في نفسه - بالإضافة إلى ما استتبعه من مهاجمة الناس لإياه ومحاولتهم العبث به - ولد في نفسه حقدا دفيناً ، وبخاصة أنه كان إلى من الأربعين مبصرا - فطبعته تلك الحالة بطابع خاص هو الاستعداد للنم الناس وهجائهم ، بل محاولته بدهم بذلك ، وخاصة أن الناس كانوا مولعين بمعاكسته ومضايقته والهزء به ، ويدل على ذلك ما قاله المتوكل له : إن سعيد بن عبد الملك يضحك منك . ويذكر النوري حديث فتي أراد العبث بأبي العيناء فنهى عن ذلك ، ولكنه سأله : متى أسلمت^(٢) ؟ وذكر في موضع آخر أن فتي من أبناء الكتاب - كانت فيه جرأة - قال له عابثاً : كل الناس لك - يا أبا العيناء - زوجة ، وأنت زوجة أبي على البصير ا فرد عليه أبو العيناء رداً مفعها^(٣) . وقال له بعض الرؤساء : لو مت لرقص الناس^(٤) طرباً ا وقد عبث به ابن منارة الكاتب في حضور أبي عبد الله ابن المرزبان^(٥) .

وقال له المتوكل ا في حديث طويل - إنك رافضي . وفي مجلس آخر : إنك قواد (مع أنه أعمى) وذلك ليضحك الناس منه . وقلل له رجل هاشمي :

(١) زهر الآداب ٧٩٣

(٢) نهاية الأرب ٨٤/٤

(٣) نهاية الأرب ٨٤/٤

(٤) المرجع السابق

(٥) جمع الجواهر في الملح والنوادر ١٨٣

إنك بغاء^(١) . أما خلقه ، فلم يصفه لنا ماصروه وصفاً دقيقاً شاملاً ، ولا نعرف منه إلا ما نستشفه من خلال أخباره ، فأظهر ما يلاحظ عليه - كأغلب العميان - جرماته حتى على المتوكل : يدل على ذلك ما قاله للمتوكل - حينما قال له : قد والله اشتقتك - فقال : إنما يشفق العبد ، لأنه يتعذر عليه لقاء مولاه ، وأما السيد فتى أراد عبده دعاه . وكذلك سخر به لما قال : لولا ذهاب بصره لنا مئناه . فقال : إن أعفاني من قراءة النقوش ورؤية الآلهة صلحت لذلك . وكذلك قال له بعض الوزراء : إنك أكثرت من ذكر البرامكة ، وبالفيت في وصفهم بالجود ، وإنما هذا تصنيف الوراقين ! فقال له أبو العيناء : فلم لا يكذب الوراقون عليك^(٢) ! وقد تجرأ على ابن الزيات فاضطر إلى حبسه^(٣) .

ولا شك أن هذه الشجاعة والجرأة من جهة ، وعقدة النقص التي تشعره بالحقْد الدفين على الناس من جهة أخرى ، قد ولدت عنده من المراقبة ما جعله من للتطيمى أن يحاول إلزائها أو التخفيف منها باستهتاره بالحياة والأحياء ، وقد ولدت فيه جرأته واستهتاره وخفة روحه صفة المجون التي اتسمت بها أفعاله وكثير من نواحي سلوكه إزاء الناس . فأن يقول لجارية من الجوارى (أولمعتية) : أنا أشتى أن أرى . . . مع أنه كان قد جاوز الأربعين ، وصرفته الحمل بسر من رأى وعدم استحيائه أو خجله من الرد الذي رده : كل ذلك قد جعله يلوح للناس مستهتراً غير آبه بالأحياء ، ويدل على عدم توقيره لنفسه ، ذلك الرد الذي رده به على من سأله : لم اتخذت خادمين أسودين ؟

(١) زهر الآداب ٢٨٤

(٢) وفيات الأعيان ٧٩١/١

(٣) جمع الجواهر ٢٤٨

فقال : أما أسودان فثلاثا أنهم بهما ، وأما خادمان فثلاثا يتهما بي^(١) . وكذلك موقفه من الكلام على أبيه حينما سأله المتوكل يوماً : أكان أيرك في البلاغة مثلك ؟ فقال : لو رأى أمير المؤمنين أبى ، لراى عبداً له لا يرصاني عبداً^(٢) له . واعتزاه بأنه أول من أظهر العقوق بالبصرة حينما حاج أباه لما قال له : يا بنى ، إن الله قرن طاعته بطاعتي فقال : وأن اشكر لى ولو الديك ، فرد عليه قائلاً : يا أبت إن الله انتمنى عليك ، ولم يأمنك على فقال تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خمية إملاق ، نحن نزرقيهم وإياكم »^(٣) .

خفة روحه :

وقد كان خفيف الروح حلو الحديث ، ويدل على ذلك حرص كثير من أهل عصره على حضور مجلسه وفي مقدمتهم الخليفة المتوكل الذى ألح عليه فى ذلك على الرغم من رده عليه . ولما غاب عنه قال له : قد والله اشتقتك . وصحبه رجل مفلس وهو فى جماعة ، فقسموا للرجل قسمة ، فاشتري دابة وكسوة ، فكان إذا حلف : يقول : وإلا فدا بى حبيس ، وثيابى صدقة ، ثم قسموا له قسمة أخرى فاشتري داراً وخادماً فكان إذا حلف يقول : وإلا فدا بى حبيس ، وثيابى صدقة وغلami حر ، ودارى مقبرة . فقال أبو العيناء : طالت أيمانه ابن الزانية !

وأكل عنده سائل فأكثر ، فقال : يا هذا ، أطعمناك رحمة فصيرتنا رحمة ! ودخل يوماً على المتوكل ، فقدم لإيه طعام ، فغمس أبو العيناء لقمته فى خل كان حامضاً ، فأكلها وتأذى بالحموضة ، وفطن المتوكل له فجعل يضحك ، فقال :

(١) معجم الأدباء ٢٩٧/١٨

(٢) زهر الآداب ٢٨٥

(٣) زهر الآداب ٧٩٣ ، معجم الأدباء ٢٩٩/١٨

لا تلتنى يا أمير المؤمنين فقد بحث حلاوة الإيمان من قلبي ا وروى أبو العيناء
أنه أدخل على المتوكل رجلاً قد تنبأ . فقال له : ما علامة نبوتك ؟
قال : أن يدفع إلى أحدكم امرأته ، فإنى أحبلها في الحال . فقال :
يا أبا العيناء : هل لك أن تعطيه بعض الأهل ؟ فرد عليه أبو العيناء : إنما
يعطيه من كفر به !

وبات أبو العيناء عند ابن مكرم ، فجعل ابن مكرم يفسو عليه ، فقام
أبو العيناء ، وصعد السرير ، فارتفع إليه فساؤه ، فصعد السطح ، فبأخته
رائحته فقال : يا بن الفاعلة : ما فساؤك إلا دعوة مظلوم (١) .

وكان من صفاته سرعة الإجابة التي تتطلب الجراءة ، والذكاء النادر ،
وهو أشبه بجمير حينما كان يسلام على حبه للهراش فيقول : يسدؤ وننى ثم
لا أعفوا ومن الغريب أن ابنه أيضاً كان سليط اللسان ، فقد قال لابنه وهو
مريض : ما تشتهى ؟ قال : اليتيم (٢) .

وقد أخش لما دخل على إبراهيم بن المدبر وعنده . الفضل بن اليزيدي
وهو يلقي على ابنه مسائل من النحو — فقال : في أى باب هذا ؟ قال :
في باب الفاعل والمفعول به . قال : هذا بابى وباب الرالدة حفظها الله !

(١) يشير الى الحديث المشهور عن أنى هريرة رضى الله تعالى عنه قال . قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : د ثلاثة لا تعد دهرتهم : الصائم حتى يفطر ،
والإمام العادل ، ودعوة المظلوم : يرفعها الله فوق الغمام ، ويفتح لها أبواب
السماء ، ويقول الرب . وعزقى لأنصرتك ولو بعد حين .

(أخرجه الإمام أحمد ، والترمذى ، وابن ماجه ، وابن خزيمة وابن حبان في
صحيحهم .)

(٢) جمع الجوامر ٢٣٠ .

فتعصب الفضل وانصرف ، وكان البحترى حاضراً فصاغ هذه العبارة شعراً قللاً :

جل ما عنده التردد في الفا حل من والديه والمفعول (١)

وقد كان وضاعاً : فوضع حديث فذك ، وصنع خبر ابن رباح ، ونسبه المسعودى إلى أبي تمام خطأ (٢) .

وأخيراً نذكر كلمة الصفدى عن قوة حفظه إذ قال : قل أن وجد أعمى بليداً ، ولا يرى أعمى إلا وهو ذكى : منهم أبو العيناء وأبو العلاء .. والسبب الذى أراه فى ذلك أن ذهن الأعمى وفكره يجتمع عليه ، ولا يعود متفعباً بما يراه ، ونحن نرى الإنسان - إذا أراد أن يتذكر شيئاً نسيه أغمض عينيه ، فيقع على ما شرد من حافظته . وفى المثل : أحفظ من العميان (٣) .

والظاهر أنه عاش أغلب حياته فقيراً ، لأنه سأل كثيراً ممن اتصل بهم وشكا إليهم (٤) عوزه ، فقد دخل على الحسن بن سهل ، فشكا ضيقته ، فأمر له بخمسة آلاف درهم ، فقال : أصلح الله الوزير ، لا أستقل قليلك ولا أستكثر كثير (٥) .

(١) زهر الآداب ٢٨٢ .

(٢) مروج الذهب للمسعودى ١٩/٤ وانظر الخبر فى نهاية النص من أخبار أبي العيناء التى حققناها ، وانظر ما عرف عن الجاحظ من الوضع فى رسالة البخلاء لطله الحاجرى طبع دار المعارف الأولى ص ٤٠ .

(٣) نكت العميان للصفدى ص ٨٣ .

(٤) أخبار الطراف لابن الجوزى ص ٥١ .

(٥) انظر طبقات ابن المقز ص ٤١٥ .

فن أبي العيناء :

كان أبو العيناء راوية للأخبار والقصص ، ونوادير الأدب يتميز بحفة الروح ، وعذوبة الحديث ، ولاذع الكلم ، مما كان يزيل صدا القلوب ، بحلاوة طرائفه ونوادره وتمسكه ، فأقبل الناس عليه : يحدثونه ويسمعون منه ، وقد زاد ذلك مهارة في صياغة ما يروى بالأسلوب الذي يجب أن تصاغ به النادرة أو الفكاهة ويمش اسماعها للناس ، إذ ليس كل راو قادراً على حفظ النادرة أو صياغتها بالطريقة التي تهفو لها قلوب الناس ، وتجمع لهم يقبلون على سماعها ، وقد لاحظت ذلك - وسوف أبينه في إبانه - حينما جمعت أخباره وحققها ووجدت أن بعض الرواة - في الكتب المتأخرة - يصوغون النادرة ويروونها بطريقة أو بأسلوب يفسدها كل الإفساد ويبعدها عن الروح الفكاهية مما ينفر من استماعها .

إذن ، فرواية النادرة في الحقيقة فن لا يستطيع إتقانه إلا من وهبه الله الميزات التي تعينه على ذلك ، وقد كان أبو العيناء من المبرزين في ذلك إلى حد أن قال عنه ابن خلدون : كان من ظرفاء العالم ، وقد بالغ في ثعته بذلك لفرط إعجاب الناس به ، كما يعجب الناس في العصر الحديث فيطلقون على أم كلثوم ، كوكب الشرق ، .

وذكرت متنزهات الدنيا بين يدي ابن دريد ، فقال : هذه متنزهات العيرين فإن أتم من متنزهات القلوب ؟ قالوا : وما هي ؟ قال : كذب الجاحظ . وأشعار المحدثين ، ونوادير أبي العيناء (١) .

وأكثر كتب الأدب رواية لأخباره ونواديره : معجم الأدباء (٢) لياقوت

(١) أدب الجاحظ للسندوني ص ٧٦

(٢) معجم الأدباء لياقوت ١/ ٨٢ ، ٦ ، ١٨١ ، ٣٧٩ ، ٧٠٠ ، ١٧٧ ، ٨٠٥ ،

١٢/ ٢٥٥ ، ١٦/ ٧٩ ، ٨١ ، ٨٩ ، ٩١ ، ١٢٧ ، ١٧٨ ، ١٧/ ٣٢٢ ، ١٧٨

ثم زهر الآداب (١) للحصري . أما الأما إلى اللقائي والأغاني (٢) فلم يذكر
فيهما إلا للمما . وفي معجم الأديباء ذكر أنه حدث عن وهب بن جرير ، وقعب
الهاهلي ، وكيسان ، وخلف الأحمر ، والفتح بن خاقان ، والجاحظ ، والأصمعي
وأحمد بن أبي دواد ، وإبراهيم بن رباح ، ومحمد بن يحيى .

ومما رواه أبو العيناء من النوادر قال : دخل أبو الصقر - قبل وزارته -
على صاعد وهو الوزير حينئذ ، وفي المجلس أبو العباس بن ثوابة ،

فسأل الوزير عن رجل ، فقال : أنفى (يريد : نفى)
فقال ابن ثوابة : في الحرم .

فتضاحك به أهل المجلس ، فقام أبو الصقر مغضباً .

وروى أيضاً هذه النادرة : استودع رجل عند إمام محلته قارورة زنبق ،
لجده (٣) إياها ، وقام يصلي بهم في شهر رمضان ، وقرأ : . قالوا وأقبلوا
عليهم ماذا تفقدون (٤) . . . وكررها . فقال الرجل : قارورة زنبق أو حكي
أبو العيناء ، قال : اجتمعنا في مجلس ابن الأعرابي - ومعنا الجاحظ والجماز -
تتناشد الأشعار ، ونتذاكر الأخبار ، ووقع الجاحظ والجماز في كيد
وملاحاة . . . الخ . (٥) وروى أيضاً قصة طريفة بين الجاحظ ومحمد بن
عبد الملك الزييات (٦) .

(١) زهر الآداب للحصري ١٧٢ - ١٧٣ ، ٦٩٨ ، ٧٨٨ ، ٨٨٢ ، ٣٧٧

(٢) الأغاني ٨ / ١٥ والأما إلى ١ / ٧٠ .

(٣) أي أنكرها .

(٤) الآية ٧١ من سورة يوسف

(٥) ثمار القلوب للثعالبي ص ٤٩٤

(٦) أدب الجاحظ للسننوبي ص ١٧١ .

الشعر:

لم يروله الرواة إلا مقطعات قليلة في الشعر الغزلى ، ذكرلة يافوت ، في معجم الأدباء منها تسع مقطوعات قصيرة ، وذكر بعضها في كتب متفرقة بما اهتمت بأخباره .

أما كتابته فقد كان له رسائل إخوانية يبعث بها إلى إخوانه ، وغرضه غالبا هو استمناعهم بعض العطاء أو الهدايا ، وقد ذكرت فيها جمعت من أخباره رسالتين طويلتين إحداهما يذم فيها أحمد بن الحصب على لسان الكتاب والرؤساء والقواد وغيرهم ، وهى طويلة ، والآخرى عزاهما إلى بعض الأعراب يتحدث فيها عن أكثر أهل عصره ومنهم إبراهيم بن وباح الذى يقصده أبو العيناء بهذه الرسالة ، وقد جمع له الأستاذ أحمد زكى صفوت كثيرا مما أنشأه (١) . وقد قال فيه محمد بن مكرم : من زعم أن عبد الحميد أكتب

من أبى العيناء إذا أحس بكرم أو شرع فى طمع ، فقد وهم .

سخريه أبى العيناء :

ورث أبو العيناء سلاطة اللسان والجرأة عن أجداده (٢) وتمكنت منه عقدة الشعور بالنقص بسبب عاهته التى ابتلى بها بعد بلوغه الأربعين ، فزبد على ذلك ما جبل عليه من الاحساس الفكاهى Sense of Humour ، فكانت تلك العوامل هى الأسس القويمة التى جعلت منه الأديب الساخر المماهر لصنوه فى ذلك ، وأعنى به الجاحظ .

(١) السندباد (٢)

(١) جمهرة رسائل العرب - ص ١٥٢ - ١٥٥ - ٣٢٢ - ٣٢٣ - ٣٢٤

(٢) السندباد (٣)

٣٢٧ -

(٢) وقد مر خبر ذلك فى الصفحات السابقة من الكتاب . (٣)

وتنقسم سخريته قسمين : أولهما وهو الأكثر والأشهر ويظهر في ردوده الساخرة إما مبتدئا وإما مدفوعا إلى ذلك بسبب إغاطة الناس إياه ، لعدم ذكائهم وحقهم ، أو لسبهم إياه ومحاولتهم النيل منه ، أو لعدم إعطائه ما يطلب - كالحطيئة الشاعر المخضرم المشهور - ولذلك ردهلى المتوكل حينما سأله : إلى كم تمدح الناس وتذمهم ؟ ، فقال : ما أحسنوا وأساءوا . وقد قال له مرة أخرى : بلغنى عنك بذاء ، أو بلغنى أن فيك شرا .

والقسم الثانى من سخريته هو رسائل كتبها فى هجاء بعض الأشخاص ، كما حمد بن الخصب وعيسى بن فرخا نشاء وغيرهما .

(١) ردوده الساخرة :

وهو فى ذلك يشبه عامرا الشعبي وكان من كبار الحفاظ (١) والشاعر حافظا لإبراهيم - شاعر النيل - الذى جرت النكتة الساخرة العامة على لسانه ، وكذلك الشيخ عبد العزيز البشرى (٢) والساخر الأيرلندى برناردشو ، وهو من هذا الجانب يعتبر الأديب الشعبي الساخر بالرد السريع من غير حاجة إلى تفكير طويل أو متئد ، لا يجلس الجلسة الطويلة ويقدر زناد فكره لى يرد على من غاظه ، بل يسدد إليه ويقذفه بالكلمة اللاذعة ، التى تساوى قصائد هجائية بأكملها ، فىكون لها من قوة الرنين ، ما يملأ المجلس ضحكا بلجلا ، وما يجعل الناس يخافون منه ويخشون هذه الخاصية اللسانية اللاذعة ، وقد سخر برناردشو من الشعب الإنجليزى كثيراً بسبب احتلالهم بلاده فما قاله

(١) عاش بين سنتى ١٩ - ١٠٣ أو ١٠٩ هـ وكان شديد الذكاء ، سريع الحراب سديده ، وكان مخيف البدن صغير الجسم فقال متهمكا تعليلا لذلك : لقد زوحت فى الرحم ؟

(٢) مؤلف كتاب د فى المرأة ، المطبوع فى دار الكتب المصرية سنة

لسيدة إنجليزية لم تكن تعرف، — في قطار — وقد سألته : « أأنتك إنجليزيًا من... فرد عليها مريعاً : لا ، أنا (بني آدم) »^(١) No , I am a human Being

أما أبو العيناء ، فكان صنو « شو » في هذا القبيل ، وقد استخدم عدة عناصر في سخريته كالنضمين وبخاصة الآيات القرآنية ، كما في النادرة الآتية :
« لما سلم نجاح بن سلمة إلى موسى بن عبد الملك الأصمهلني ليستأديه مالا ، عاقبه فتلف في المطالبة ، فلقى بعض الرؤساء أبا العيناء وقال له : ما عندك من خبر نجاح بن سلمة ؟ »

فقال : « فركزه موسى ففضى عليه ، وكان استخدامه هذه الآية وفيها اسم القتال وما فعله بالضبط استخداماً رائعاً لا يتمكن منه إلا من أوتي حظاً كبيراً من الذكاء . »

وبلغت كلمة أبي العيناء السابقة موسى بن عبد الملك ، فلقية في الطريق وتهده ، فقال : « أبي تولع »^(٢) ؟ والله لأقومنك . فقال أبو العيناء ساخراً : « أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ؟ » ، وقيل له : « إن ابن نوح النصراني عاتب عليك . »

فقال : « وإن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ، . »

وقدم صديق له من بعض الأعمال السلطانية ، فدعاه إلى منزله وأطعمه ، وجعل الرجل يكثر الكذب . فالتفت أبو العيناء إلى من كان معه فقال : « نحن كما قال الله تعالى : « سماعون للكذب أكالون للسحت » . »

ودخل عليه يوماً موسى بن عبد الملك — وعنده نجاح بن سلمة ، وأحمد

(١) آثرنا هذا التعبير العامي لأنه التعبير المستساع لترجمة النكتة .

(٢) تولع : تستخف .

ابن إسرائيل - يسارانه ، فقال : يا أبا الحسن ، د تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، وقال نباح : كذبت يا عدو الله . فقال : د لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون .

وقال له يوما المتوكل : إن سعيد بن عبد الملك يضحك منك .
فقال : د إن الذين أجزموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون .
* * *

وكان أحيانا يستخدم المفاجأة في السخرية ، فن ذلك قوله لصاعد : أنت خير من رسول الله ! فقال : ويلك . كيف ؟
قال : إن الله تعالى قال له : د ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك . . وأنت فظ ، واسنا نفض (١)

ونلاحظ استخدام الجناس والسجع في جملته الأخير ، بين (فظ ، نفض) ، ما يزيد من السخرية كما يفعل أكثر الساخرين بالنكتة الجنسية أو التورية ، ومن هذا القبيل تلك القصة التي عبث فيها بصاعد :

قال له صاعد يوماً : ما الذي أحرك عنا ؟

قال . بنيتي !

قال : وكيف ؟

قال : قالت لي يا أبت قد كنت تغدو من عندنا فتأني بالخدمة السرية ، والجائزة السنوية ، ثم أنت الآن تغدو مسرفاً وترجع معتما ، فإلى من ؟
قلت : إلى أبي العلاء ذي الوزارتين ؟

قالت : أيعطيك ؟

قلت : لا .

(١) مع مراعاة نطقها ظاء كما تنطق في بعض اللهجات (في نجد والمراق)

قالت : أيسفك ؟

قلت : لا .

قالت : أفرع مجلسك ؟

قلت : لا .

فقالت : يا أبت ، لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً ؟
ودخل على عبيد الله بن عبد الله بن طاهر - وهو يلعب بالشطرنج - فقال :
في أى الحيزين أنت ؟

فقال : فى حيز الأمير - أيده الله .
وغلب عبيد الله ، فقال : يا أبا العيناء ، قد غلبنا ، وقد أصابك من النذب
خمسون رطلاً ثلجاً ، فكُن فى حيلتها .

قال : فقام ومشى إلى ابن ثوابة ، وقال : إن الأمير يدعوك .
فلما دخل قال : أيد الله الأمير ، قد جئتكَ بجبل همدان وماسبذان ،
نخذ منه ما شئت !

* * *

وقد تكون سخريته بجملة قصيرة مضحكة كما فعل صاعد لما استوزر
عقب دخوله من النصرانية فى الإسلام ، فلما صار إلى بابه قيل له : يهلى .
فعاده ، فقيل يهلى فقال : « معذور ، لكل جديدة لذة » ، !

وقال له ابن مكرم : كان ابن الكلبي صاحب البريد يجب أن يشم الحرا ؟
فقال : لو رأيته لقرشفك ، !

وقال يوماً لرجل سلم عليه : من أنت ؟

قال : رجل من ولد آدم .

قال : ادن مني ، عانقني ، فما ظننت أنه بقى من هذا النسل أحد !

وزحمه رجل على حمار بالجمهر ، فضرب يده على آذان الحمار وقال :
يا إنسان قل للحمار الذى فوقك يقول : الطريق !
ووعده ابن المدبر أن يحمّله على بغل . فلقبه فى الطريق ، فقال له : كيف
أصبحت يا أبا العيناء ؟
قال : بلا بغل !
فضحك من قوله ، وبعث به إليه .

* * *

ومن تصويره الساخر السريع ما قاله لابن الجواز المغنى يوما وهو راكب
على حمار صغير فقال : لقد ساء فى حين اضطررك الدهر إلى ركوب أصغر أولادك !
وقال له يوما : هل تذكر سالف معاشرتنا ؟
قال : إذ تغنينا ونحن نستعفيك !

...

وأكثر نوادر أبى العيناء الساخرة كان يقولها ساخرًا بمن أرادوا أن
يسخروا به : قال له أبو عبد الله بن المرزبان : يا أبا عبد الله ، لم لبست جباة ؟
قال : وما الجباة ؟
قال : التى بين جبة ودراعة ! .
قال أبو العيناء : إنك صفديم !
قال : وما صفديم ؟
قال : الذى هو ما بين صفعان وتديم !
وقال له الكافى كيف أكتب اللوم ؟ بلام أو لامين ؟
فقال : صور نفسك !

(م - هـ) (السخرية)

وقال له السدري: أشتى أن أرى الشيطان .

فقال : انظر في المرأة !

ودخل يوماً على المتوكل ، فقدم إليه طعام ، فغمس أبو العيناء لقمته في خل كان حامضاً ، فأكلها فتأذى بالحوضة ، وفطن المتوكل له فجعل يضحك .

فقال : لا تلمني يا أمير المؤمنين : فقد سحت حلاوة الإيمان من قلبي !
وكان يميل في بعض الأحيان إلى استخدام الجناس في سخرياته كقوله
لما تقنطر بعيد الله فرسه : قتل الجواد الجواد !

وأكل عنده سائل فأكثر ، فقال : يا هذا أطعمناك راحة فصيرتنا راحة !
وقدم ابن مكرم من سفر ، فقال له أبو العيناء : ما أهديت لي ؟
قال : قدمت في خف .

قال : لو قدمت في خف لخفت^(١) روحك !

ومن ردوده اللاذعة ما قاله للمتوكل حينما قال : لولا ذهاب بصري
أبي العيناء لنادمناه .

فقال : قولوا له : إن أعفاني من قراءة النقوش ورؤية الأهلة صلحت لذلك .
ولما غضب من الجاحظ بسبب خطاب توصية طلبه منه وكتب له الجاحظ :
وكتابتني إليك سألتني فيه من أخافه لمن لا أخرفه ، فافعل في أمره ما تراه ، والسلام ،
عائب الجاحظ على ذلك ، فقال له : لا تنكر ذلك فإنها أمارة بيني وبينه
إذا عنيبت برجل .

فقال : بل أنت ولد زنا لم تكن قط لرشدة^(٢) .

(١) وفي رواية : لخفت .

(٢) ولد لرشدة : ضد لونية .

قال . أتشتمنى ؟

قال : إنها أمانة لي عند الشئاء على إنسان !

وزار الجاحظ وهو متقلد ديوان الرسائل في خلافة إبراهيم بن العباس ، فلما جاء إلى الديوان ، جاءه أبو العيناء ، فلما أراد أن يخرج من عنده تقدم إلى من يحجبه أن لا يدعه يخرج ولا يدعه يرجع إليه إن أراد الرجوع . فخرج أبو العيناء يريد الانصراف ، فنع من الخروج ومن الرجوع إلى الجاحظ ، فنادى أبو العيناء بأعلى صوته : يا أبا هثمان ، قد أريتنا قدرتك ، فأرنا عفوك ! وبما يشبه هذا ما قاله للمحمد بن عبد الملك حينما سجنه لكثرة كلامه : وقد علمت أن الحبس لم يكن من جرم تقدم إليك ، ولكن أحببت أن ترى مقدار قدرتك هلى ، لأن كل جديد يستلذ ، ولا بأس أن ترىنا من عفوك حسب ما أريتنا من قدرتك ، فأمر بإطلاقه .

فلقيه بعد أيام ، فقيل : يا أبا العيناء : ما تزورنا حسب نيتنا فيك . فقال : أما نيتك فتأكدة ، ولكن أرى أن الذى جدد الاستبطاء فراغ حبسك فأحببت أن تشغله بى !

وقال له عبيد الله بن سليمان : إن أخبار البرامكة في السخاء وكثرة العطاء أكثرها من تصنيف الوراقين وأكاذيبهم .

فقال : ولم لا يكذبون على الوزير - أيده الله ؟

وكان أبو العيناء كثيراً ما يستعمل الجملة الاعتراضية الدعائية في سخريته كالمثال السابق ، وكما قال للفضل بن اليزيدى وهو يلقي على ابن لإبراهيم ابن المدبر مسائل من النحو : فى أى باب هذا ؟ قال : فى باب الفاعل والمفعول به .

قال : هذا بابى وباب الوالدة - حفظها الله !

وقال له رجل : ما أنتن إبطك !

فقال : نأقاك - أعزك الله - بما يشبهك !

ودخل أبو العيناء على بعض الرؤساء بكرة ، فاستسقى ماء ، فقال له الرجل : أى هذا الوقت تعطش ؟

قال : أصلحك الله هذا أمان لك من الغداء !

ووعد محمد بن عبيد الله . بن خاقان أبا العيناء أن يرسل إليه دابة ، فتأخر عنه دون أن يبقى له بوعدة ، ثم لقيه ، فقال : كيف حالك يا أبا عبد الله ؟

قال : راجل ، أصلحك الله !

(٢) القسم الثانى من سخرياته ، رسائله :

وإذا تصفحنا ما بقى من رسائله المكتوبة ، وجدناه يهدف بها إلى طلب معونه من أحد الولاة أو كبار رجال الدول ، أو أنها هجاء مباشر أو سخرية .

ولا يعنينا فى هذا المقام إلا النوع الثانى .

ونلاحظ عليه ميله إلى الحدة أو التعريض حتى فى موقفه موقف السائل الذى يبغى العطاء ، كما قال لأبى الوليد بن أبى دؤاد :

« جعلت فداك ، مسنا وأهلنا العهر ، وبضاعتنا المودة والشكر ، فإن تعطنا أكن كما قال الشاعر :

أنا الشهاب الذى يحمى دياركم لا يخذ الدهر إلا ضوؤة بقدر
وإن لم تفعل : فلسنا بمن يلمزك فى الصدقات ، فإن أعطوا منارضوا ،
وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون . »

ويسدد سهام سخريته إلى أكثر أهل عصره ، ولكنه ينسبها إلى غيره لما له من باع طويل فى الاختلاق والوضع :

ففى ذلك أنه كتب رسالة يشنى فيها على إبراهيم بن رباح ، ولم يفرد

بالرسالة وحده ، بل عرض له في أثناء ذمه أكثر رجالات عصره ، وقد نسب هذه الرسالة إلى أحد الأعراب ، وزعم أنه لقيه في الصحراء ، وسأله عن أهل عصره ، مبتدئاً بالخليفة ثم بغيره من الولاة والقضاة والقواد والكتاب ويصوغ ذمه لهؤلاء في جمل قصيرة موجزة مسجوعة ، فمما قاله عن ابن الزيات : ذاك رجل وسع الوردى شره ، وبطن الأمور خبره ، فله كل يوم صريغ لا تظهر فيه آثار غلب ولا قاب ، إلا بتسديد الرأي .

وقال من الفضل بن مروان : ذاك رجل حشر بعدما قبر ، فله نشرة الأحياء ، ومعه خفوت الموقى . وقال عن أبي الوليد : إخاله كبش الزنادقة ، ألا ترى أن الخليفة إذا أمهله ، خضم^(١) فرتع^(٢) ، وإذا أمر بفتح أمطر فأمرع^(٣) .

وهناك رسالة أخرى أطول من السابقة ، تتضمن ذم رجل واحد هو أحمد بن الحصب ، وقد أنطق جل أهل عصره بذمه ، بطريقته السابقة وهي الجمل الموجزة ، المسجوعة غالباً : فقال على لسان أبي العباس محمد بن عبد الله بن طاهر : مازال يحرق ولا يرتع ، وما زالت منذ ارتفع ، أتوقع له الذي فيه وقع . وقال على لسان جعفر بن عبد الواحد : أحسن حسناته سيئة ، وأصغر سيئاته كبيرة^(٤) .

وذمه على لسان هرون بن عيسى فقال : كانت دولته دولة المجانين ، خرجت من الدنيا والدين . وقال على لسان موسى بن بغا : لولا أن القدر

(١) الخضم : الأكل ، أو بأقصى الأضرار ، أو ملء الفم بالاكل .

(٢) رتع : أكل بشره .

(٣) أمرع الوادى : أكله .

(٤) أى كبيرة من السيئات .

يغشى البصر، لما نهى فينا ولا أمر! وقال على لسان صالح بن وصيف -
شامناً هازئاً - تجبر وتكبر وتذمر، ودبر، فدمر! فسكان أبا العيناء هنا
يلخص قصته الطويلة وتاريخ حياته مع الناس في أربعة أفعال ثم يختتمها
بسخريته القدر به، « فدمر »، وقد استمد سخريته في أغلب هذه الجمل من
قصرها، ومازودها به من سجع لا ذع كما جاء في الجملة السابقة، وكما جاء على
لسان سليمان بن يحيى: لم تنم له نعمة، لأنه لم تكن له في الخير همة! وقال ساخرأ
على لسان الفضل بن مروان: فما أجهل من يستجمله. أو لم يخبر بأمر يجهله؟

وقال على لسان ميمون بن إبراهيم: لو تأمل رجل أفعاله فاجتنبها لاستغنى
عن الآداب أن يطلبها! وقال على لسان ابن أبي الشوارب: كان يحمداً المحسنين
ويجتنب أفعالهم، ويذم المسيئين ويعمل أعمالهم!

وحاول أبو العيناء أن يشنع عليه، فقال على لسان إبراهيم بن المدبر: كنت
يوماً عنده، فقدم الطعام - وفيه هليون (١) - فأكب عليه، فقلت: أراك
راعياً في الهليون.

فقال: إنه يزيد الباه.

وقال على لسان آخر: كنت إذا وقع لفظه في سمعي، أحسست النفسان
في عقلي!

وقال على لسان بعض كتابه: كنت أرى قلم ابن الحبيب، يكتب بما لا
يحب، وقد نطق بنوك (٢) صجيب.

وأخيراً أذكر ما قاله على لسان خالد بن صبيح: هو كما قال: فلان ملا

(١) نبت حار رطب.

(٢) النوك: الحق.

يساره سلحا ، وبسط يمينه سطحا ، وقال : أمطروا في سطحي ، وإلا لاطختكم
بسلحي ا

والظاهر أن هذه الرسالة أطول مما أورد في نثر الدرر ، لأنها أوردت
بعض زيادات في جمع الجواهر في الملاح والفردار : ثم قال في نهايتها : «وهي
أطول من هذا» .

* *

وسخر مرة من أبي الصقر الوزير حينما تأخر توقيعه عنه برسومه ،
فكتب إليه . . . أما والليل إذا عسعس ، فالبنان ، ابنت الدنان ، وملامسات
الحسان ! وأما والصبح إذا تنفس ، فالبنان للعنان ، وموامرات السلطان ،
فمن أبو العيناء القرنان ؟ (١)

وسخر ذات مرة من صديق له تولى ناحية ، فكتب إليه : أما بعد ،
فإني لا أعظك بموعظة ، لأنك غني عنها ، ولأنك أعلم بها مني ! ولا أرغبك
في الآخرة لمعرفة بزهدك فيها ! ولكني أقول كما قال الآخر :

أحار بن بدر قد وليت ولاية فكن جرذا (٢) فيها نخون وتسرق
وكأثر تميما بالغنى إن للغنى لساناً ، به المراء الهيوبة ينطق

وأعلم أن الخيانة فظنة . والأمانة خرق ، والجمع كيس ، والمنع صرامة ،
وليس كل يوم ولاية ، فاذا كر أيام العطلة ، ولا تحقرن صغيراً ، فمن الذود
إلى الذود (٣) ليل ، والولاية رقدة فتنبه قبل أن تنبه !

(١) القرنان : الديوث المشارك في قرينته .

(٢) الجرذ : ضرب من الفأر .

(٣) الذود : ما بين الثلاثة إلى العشرة .

ولا يخفى مادسه أبو العيناء في هذه الرسالة الساخرة من تمسككم باستخدامه من أساليب السخرية المختلفة : كالاستشهاد ، والخبر والنهي والأمر الخارجة عن معناها - كما يقول البلاغيون القدماء - إلى السخرية والحزء .

* * *

وأخيراً - وليس آخراً - نورد سخريته عن طريق الوصف المضحك لهدية : إذ حمله عبد الله بن يحيى بن خاقان على دابة ، فأخذها منه ابنه محمد ، وقال : أبعث إليك بخير منها .

فتأخر عنه ذلك ؛ فإقنيه ، فقال ، : ما خبرك ؟

فقال : بخير ، يامن أبوه يحمل ، وهو يرجل !

فقال : أنا أنفذ إليك بغلا فارها بغير تأخر .

فتأخر عنه . . . ثم إقنيه ، فقال : كيف حالك يا أبا عبد الله ؟

قال - ساخراً - راجل - أصلحك الله !

فضحك ، وأنفذ إليه بغلا ، وزعم أبو العيناء أنه غير فار ، فكاتب إلى أبيه ساخراً من هذه الدابة ، واصفاً إياها قائلاً : أمر لي بدابة تقف للنثرة ، وتعث بالبعرة ، كالفضيب اليابس جفأً ، والعاشق المجرود دقاً ، وقد أذكرت الرواة عروة العذرى ، والمجنون العامى ، وساعد أعلاه لأسفله . . . إلخ

ومن الصورة المضحكة وصفه قائلاً : حباه (١) مقرون بسماله ، فلو

أمسك أترجيت أو أفرد تعزيت ، وإن كنته يجمعهما في الطريق المعمور ،

(١) الحباق : الضراط .

والمجلس المشهور، كأنه خطيب مرشد، أو شاعر منشدا ثم يبالغ في إحاطة
الصور بهذا الإطار المضحك : تضحك من فعله النسوان : ويدأغي من أجله
الصبيان ، فمن صائح بصيح : دأوه بالعاباشير ، ومن قائل يقول : تقوا له
الضمير !

وينتقل إلى صورة مضحكة ثالثة : قد حفظ الأشعار ، وروى الأخبار ،
ولحق العلماء في الأمصار . فلو أعين بنطاق ، لروى بحق وصدق ، عن جابر
الجمفي ، وعامر الشعبي .

وهكذا نرى أبا العيفاء بجملة الموجزة المريعة ، وبسجته الظريف الذي
لا يسكاد يتركه ، يحاول السخرية بمحمد بن عبيد الله وهو يتنهد بذلك البغل
الذي أهداه إليه .

٥- الحمدوني

هو إسماعيل بن إبراهيم ، ويختلف الرواة في اسم جده : أهو حمدون أو حمدونة أو حمدويه، وينفرد أبو الفرج الأصفهاني^(١) (ت ٣٥٦ هـ) برواية حمدويه بضم الدال أو فتحها، وتابعه في ذلك ابن خلكان فقال الحمدوي . وكان حمدونه أو حمدويه جده صاحب الزنادقة أيام الرشيد^(٢) والغريب أن جميع ما بأيدينا من مصادر قد أجمعت على إهمال تحديد سنة وفاته وبالتالي الفترة التي عاش خلالها ولم تشف غلتنا بأخبار هذا الشاعر ، لكي توضح شخصيته أكثر بما نراها الآن. غير أننا يمكن أن نحدد جزءاً من الفترة التي عاش خلالها إذا رجعنا إلى الأخبار التي تذكر اتصاله ببعض شخصيات معاصرة له : فهو قد سمع دعلج بن علي (ت سنة ٢٢٠ هـ) يقول : أنا ابن قولي :

لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى
وسمع أبا تمام (ت سنة ٢٣١ هـ) يقول : أنا ابن قولي :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول
وذكر خالدا السكاك (المتوفى سنة ٢٣١ هـ أو سنة ٢٦٩ هـ) في إحدى مقطوعاته البائية ، والتقى بالمجرد (٢١٠- ٢٨٦ هـ) وبسعيد بن حميد سنة ٢٤٩ هـ وبعبد الصمد بن المعذل الشاعر (ت حوالي سنة ٢٤٠ هـ) والخليفة العباسي المتوكل فيما بين سنتي ٢٣٥ هـ ، ٢٤٩ هـ

(١) الأغاني (طبعة دار الكتب المصرية) ٢٠ / ٢٢٦ ووفيات الأعيان (بيروت) ٧ / ٩٥ والانساب للسماعاني ٤ / ٢٤١ .
(٢) زهر الآداب للحصري ص ٥١٣ .

إذن نستطيع أن نحدد تلك الفترة مطمئنين بثلاثين عاماً تنحصر بين سنتي وفاة دعبل سنة ٢٢٠ هـ وفاته المتوكل ٢٤٩ هـ ولا بد أن تمتد سنوات قبلها ويجوز بعدها أيضاً .

وما زلت أظن أننا لا يرقى إلى مرتبة اليقين أن هناك صلة بينه وبين شخصية تدعى حمدون بن إسماعيل بن داود ، يقال إنه كان نديم المتوكل المباسي وتوفي سنة ٢٥٤ هـ

هكذا نحن معاصرو لآعلينا وعليه بإلقاء الضوء على شخصيته ، فلم يذكره أمثال المبرد في كتبه مع أنه روى عنه أبياته في الشاة والطليسمان ، وكذلك عبد الله بن المعتز صاحب الطبقات (ت ٢٩٦ هـ) ، أو أبو الفرج أقرب المعاصرين له شها به ، وما أجدر كتابيا كالآغانى أن يحيط به خبراً

ويبدو أن الحمدوني شاعر خاض في أكثر من غرض من أغراض الشعر : فروى له شعر غزلى ، ومنه قصيدة يعارض بها لامية تأبط شرا

إن بالشعب الذى دون سلع لقتيلا دمه ما يطل
تبلغ ٢٨ بيتا يقول في مطلعها :

لك الحاظ مراض ودل غير أن الطرف عنها أكل^(١)
وله أبيات قافية منها :

زعموا أن من تشاغل بالحلب سلا عن حبيبه وأفاقا

كذبوا ما كذا بلوننا ولكن لم يكونوا فيما أرى هشاقا^(٢)
وروى له ابن الشجرى في حماسته بيتين في العود^(٣)

(١) المقدم الفريد (طبعة لجنة التأليف) ٢ / ٢٤ - ٢٦

(٢) المرجع السابق ٥ / ٣٤٣ .

(٣) حماسه ابن الشجرى ص ٢٦٠

وله في «سعيد بن حميد»، وقد ولي ديوان الرسائل سنة ٢٤٩ هـ
لبس السيف سعيد بعدما عاش ذا طمرين لا نوبة له
إن لله لايات وذا آية الله فيما نزله (١)

والظاهر أنه كان فقيراً ، فكان يتكسب من مجونه ومن تظاهره بالحق
ولذلك عدله بعض أصحابه على تحامقه ، فقال : حماقة تعولني ، خير من عقل
أعوله ، ثم أزد :

عدولوني على حماقة جهلا وهي من أعقلهم الذ وأحلى
حقي اليوم قائم بعيمالي ويموتون - إن تعاقلت - ذلا (٢)
والظاهر أنه كان ماجنا ، وقد روى قصة لوطي وبناء معه ، جرت
بغداد (٣) وأغلب الظن أن شطرا كبيرا من حياته كان بالبصرة ، لما لذلك نسبة
إليها ابن خلكان (٤) .

وكان مولما بالهجاء ، فرويت له أبيات نونية تعرض فيها للشاعر الهجاء
الخبث عبد الصمد بن المعذل الذي هدده فامتلا فرقا منه وقال :
ترح طعنت به وهم وارد إذ قيل إن ابن المعذل واجد
هيات أن أجد السبيل إلى الكرى وابن المعذل من مزاحي حارد (٥)
ولكن للسخرية غلبت عليه ، فقال في ثقل :

-
- (١) الطبري حوادث سنة ٢٤٩ هـ .
(٢) غرر الخصائص للطواط ص ١٣٣ .
(٣) طبقات ابن المعتز ص ٣٧١ .
(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان في ترجمة يوسف بن رافع ١١/٦ ص ٥٢٩
(٥) الأغاني (دار الكتب المصرية) ١٣ / ١٢٥ وانظر هجاءه الذي رواه
الحصري في زهر الآداب ١٠٤٩ .

مشى ، فدعا ، من ثقله الحوت ربه وقال : إلهى زبدت الأرض ثانية !
وقال :

سألتك بالله إلا صدقت وعلى بأنك لا تصدق !
أتبغض نفسك من قلمها وإلا فأنت إذن أحمدق (١)

وقال فى قينة ذات صنان :

من كان لا يدرى لها منزلا فقل له يمشى ويستنشق (٢)
ولكنه ! اشهر بشعره الذى قاله متاجنا ساخر فى شاة سعيد ، وطيلسان (٣)
ابن حرب .

أما شاة سعيد : فقد أهداها إليه سعيد بن أحمد بن جواسييدان وكانت
أضحية مزولة ، فاستوحى ما قاله أبو الخطاب البهلى فى خروف أهدى
إليه وكان مهزولا (٤)

(١) زهر الآداب للخصرى ص ٤٤٢ وجمع الجواهر له ص ٣٢

(٢) ثمار القلوب للثعالبي ص ٨٢

(٣) الطيلسان من لباس المعجم أصله تالسان

(٤) وهذا هو رجز أبي الخطاب كما ذكره ابن الجراح فى كتاب الورقة ص ٦٢

أهدى إلينا معمر خروفا

كان زمانا عنده مكتوفا

يلفه الكشح والسفروفا

والفارقون بعده ، دوفو

حتى إذا صار مستجيفا

أهدى فأهدى قصبا ملفوفا !

جلل جلدا فوقه وصوفا

وكان من فعاله موضوفا

فقال عدة مقطعات . قال الثعالبي : كان المثل يضرب بشاة منيع ، ثم تحول المثل إلى شاة سعيد لكثرة ما قال الحمدوني فيها^(١) : كذلك استوحى الحمدوني قول أبي حمران السلمي في طليسانه ، وكان قد أخلق حتى يلي :

يا طليسان أبي حمران قد برمت بك الحياة فما نلتد بالعمر
في كل يوم له رفا يحمدده هيات ينفع تجديد مع الكبر
إذا ارتداه لعيد أو لجمعه تنكب الناس أن يبلى مع النظر^(٢)

والطليسان الذي ظفر بتهكم الحمدوني هو طليسان أهداه إليه أحمد ابن حرب المهلبى - وكان من المنعمين عليه المحسنين إليه - فلم يرضه ، قال أبو العباس المبرد : وأنشدنا فيه عشر مقطعات استحلها مذهبه فيها ، فجعلها فوق الخمسين ، فطارت كل مضار ، وسارت كل مسار^(٣) وروى ابن شاعر الكتبي أنها دمتا مقطوع^(٤) ، ولكن الأصح هو ما رواه ابن المعتز في طبقاته قال : وله فيه قريب من مائتي بيت في خمسين قطعة تفنن معانيها^(٥) وقد جمعت هذه المقطعات وأحصيتها فوجدتها ثمانى مقطعات في الشاة ، وتسعا وعشرين قطعة في الطليسان تبلغ كلها حوالى ١٦٠ بيتا . وقد بذلت جهدى فى استقصاء جمعها وتحقيقها ، وسوف أذيل بها هذا البحث .

ويعتمد الحمدوني فى تهكمه بالشاة أو سخريته بصاحبها سعيد ، على المبالغة فى وصفها بالهزال ، وجعلها تتغنى دائما - كما أنها عاشقة - بحبيبها ،

(١) ثمار القلوب ص ٣٠١ .

(٢) المرجع السابق ، ورفيات الاعيان (بيروت) ٩٨/٧ وفوات الوفيات

١٧/١ .

(٣) ثمار القلوب للثعالبي ص ٤٨٢ .

(٤) فوات الوفيات ١٧/١

(٥) طبقات ابن المعتز ص ٣٧١

ألا وهو العلف الذى حرمت منه ، فحينما تراه، تتحرك عواطفها وتجيش فتتغنى ببیت يضمن من إحدى الأخافى المشهورة فى عصره ، وبهذا يشخص الشاة، ويجعلها عاشقة مدنقة ، ولهذا ففى « تضو » أى مهزولة دائماً وليست إلا جلوداً وعظاماً .

والثقافة الدينية تسيطر عليه دائماً فيتمكن عليها ويتخذها مادة لحياله وتشبيهه : فابن سعيد يصبح من وراء الحجرات كشاعر بنى تميم الذى صاح بالنبي ﷺ أن يخرج إليهم لمنافرته ومفاخرته، ويذكر قصة أصحاب الجننتين ، والسارى الذى عبد العجل ، ويستخدم آيات كثيرة فى التضمين : « الروح من أمرى ربى » ، « كالكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » ، « أنذا كنا عظاماً فخره » ، وهناك مقطوعة رائية أقامها هلى تضمين خمس آيات من سورة القمر هى ١٩ - ٢١ - ٦ - ٧ - ٢٩

وهو يثبت نفاذ شاعريته بعبقريته فى اقتناص التشبيه الرائع : الطيلسان لقدمه أسير الله فى الأرض . يشفق عليه إشفاقه على عرضه . كان شراعاً لسفينة نوح . كالخليع الذى لا يطيع الرفاء . كالطور الذى تجلى له الله فذك ! مثل آل فرعون فى العرض على النار بكرة وعشية ، وقد فطن إلى خلود المشبه به إذ هو من القرآن الكريم فقرنه بما شبهه به فى شعره فغدا رائياً أخاذاً . . .

ولا يكاد يترك الفكاهة فى تمكمه بل تسرى فى كل مقطوعة سريان النسيم العليل الذى ينبعث الأبدان ويوقظ فيها الحياة : فالشاة حينما تبصر علفاً فى نومها تتغنى :

ياما نعمى لذة الدنيا بأجمعها إنى ليفتننى من وجهك النظر !

وكذلك في مبالغته عن الطيلسان :

لقد حالف الرفاء حتى كأنه يحاول منه أن يعمله الرفوا !
ولا يترك الطرف وإرسال النكته اللاذعة بديهة وقد مر بابن حرب -
صاحب الطيلسان - وعلى كتيف الحمدوني وسادة ، فسأله ابن حرب : لأى
شئ هذه يا حمدوني ؟ قال : أرفع بها طيلسانك ! فقال : ما تزال تهجوننا مشثورا
وموزونا^(١) .

وهو خفيف الروح دائما أبدا في أبياته ، فبعد أن يذكر أن الطيلسان
كان مجلبة لنعم كثيرة بتندره به ، يقول :

ولكم قد حاز لى أردية نترى وقصا
كان دهرنا طيلسانا ثم قد أصبح شعا
وتناسب الحركة في أبياته حريصا على الواقعية التهكية التى تزيد أبياته
طرافة وهى التى نعمت بالشخيص الساخر دائما :

فأناها مطمعا فأتته لتعتلف ا
فتولى ، فأقبلت تتغنى من الأسف
ليته لم يكن وقف عذب القلب وانصرف

وهاك بيتين رائعين من هذا القبيل :

فإذا الملا ضحكوا بها . قالت لهم
لا تهز أوا بى ، وارحموني ترحموا

مرت على علف ، فقامت لم ترم
عنه ، وغنت ، والمدامع سجم

والحمدوني حاذق يوفّر لشعره الذبوع بالفاظه العذبة، وبكلماته الرقيقة،
ويتوج ذلك باستخدام البحور المناسبة لذلك التمهك الضاحك فجعل
مقطعاته من الخفيف ، ومجزوء الرمل ، والمنسرح ، والمتقارب وكذلك
يستخدم القافية الساكنة غالباً .

أبو العلاء

أحمد بن عبد الله بن سليمان : سليل أسرة تنوخية يمنية معروفة ، إذ اتصل فيها العلم ، وسار المجد في ركاياهم جيلا بعد جيل ، وداول الله بينهم منصب القضاء آباء وأحفاداً فكان منهم جده وأبوه وخاله وابن أخيه ، وتوارث هذا البيت الكريم العلم والشعر والأدب ، فكانوا أشبه بأسرة زهير في الجاهلية ، وجريروا في الدولة الأموية .

وله أبو العلاء بمرة النعمان بحلب سنة ٣٦٣ هـ وأصيب بالجدرى وهو في الرابعة ففقد نور عينيه ، وأمسى كفيف البصر يلفه الظلام في روحاته وغسواته فكانت تلك هي الصدمة النفسية الأولى في حياته ، ومع هذا فقد أخذ ينهل من معين العلم اثر ينبع من بيته الكريم ، يغدده عليه أبوه الذي ظل له خير هاد حتى أصيب فيه إذ اختاره الله إلى جواره وهو في الثامنة والثلاثين من عمره سنة ٣٩٥ هـ فكانت تلك هي المحنة النفسية الثانية التي امتحن بها . . . وأبى عاياه طموحه وهمته أن يستكين ، وقد عوضه الله عن حبيبته صفاء ذهن وحدة ذكاء وشرها لاقتناص العلم بكل جوابه وصنوفه فكان هذا حافظاً له إلى الاتصال بالبيئات العلمية المختلفة برشف من معينها الذي لا ينضب ، فكان ممن اتصل بهم علماء حلب : هؤلاء الذين ورثوا النهضة العلمية الكبرى التي خلفها عهد سيف الدولة الزاهر ودولته الحدية على العلم ، وكذلك ولى وجهه شطر أنطاكية واللاذقية وطرابلس ، ولم يجد بأساً من أن يسمع من أحد رهبان دير في اللاذقية شيئاً من فلسفه القدامى ولاهوت النصارى مما يقال إنه كان ذا أثر في بذر الشك في نفسه فيما بعد .

وقد عاش في بيئة سياسية مضطربة : إذ كانت حلب نهبا للطامعين من الحمدانيين والفاطميين والروم وأبناء مرداس ؛ فاهتز الكيان الاجتماعي والاقتصادي لتلك المقاطعة من الشام بسبب هذا الاضطراب ، وكان لهذا من غير شك - أثره القوي ، وبخاصة في شخصية مرهفة الحس يقظة الوجدان كشخصية أبي العلاء .

عاش شاعرنا الكبير تلك الفترة من حياته الأولى يرشف وينهل ويعمل من معين العلم ما وسعه الجهد ، وأعانته الطاقة ، وما أتاحته له فرصه المختلفة : واهله لم يختلف عما حوله إلا في شدة حساسيته ، وما يتبع حرمانه من نور عيفيه ، أما فيما عدا هذا فلعله كان حسن العشرة ، يجالس الأصدقاء والخلان ، يشركهم أحاديثهم ، ويبادلهم تفكيرهم ، ويأخذ من أطراف الحياة بنصيب ما ، حتى لعبة الشطرنج لم تعدم فيه مارسا لها ، وأغلب الظن أنه كان مكفى السعى وراء العيش إذ كان له وقف يدر عليه ثلاثين ديناراً في السنة يقتسمها هو وخادمه الموكل به

وهكذا سار في درب الحياة حتى اشرأبت عنقه إلى حاضرة النور والعلم بغداد فولى وجهه شطرها وهو في الثامنة والثلاثين من عمره في أخريات عام ٣٩٨ هـ فأقام فيها سنة وسبعة أشهر : حضر في خلالها مجالس العلماء والرواة والشعراء فكانت فترة خصيبة من سنى حياته مفعمة بالنشاط العلمي والفكري ، فترة مباركة عكرها عليه بعض العلماء ومنهم الشريف المرتضى الذي قسا عليه فأمر جلساءه أن يجروه «إصطيلا»^(١) من قدميه ، واقد زاد قلقه النفسى - بالإضافة إلى إحساسه بالغربة يستكن في ضميره - حثينه إلى رؤية أمه التي امتلأت أحاسيسه لطفة على لقائها : كل هذا قد شده إلى الإياب ، واماكن القدر امتحنه بالحنة الكبرى الثالثة بل هي ثالثة الأثافي ،

(١) الإصطيل هو الأعمى كما نطقها الشريف المرتضى .

إذ وصل إلى المعرة فوجد أمه قد انتقلت إلى الرفيق الأعلى : حينذاك تبدلت حاله ، وبدأ الطور الثاني من حياته سنة ٤٠٠ هـ تقريباً مفهماً بسكرانية الدنيا وكل ما فيها ، معتزلاً الناس إلا من يتردد عليه من العالاب ومن يريدون أن يتزودوا بنوره ، متشامخاً ، وقد انطوى على نفسه ربهين المحبين ، في بيت لا يكاد يغارقه طوال هذا الشطر الثاني من عمره الذي أمتد حتى الخامسة والثمانين حيث ودع الدنيا في سنة ٤٤٩ هـ .

وقد تجملت فلسفته وتأملاته العميقة ونظراته الثاقبة في كل تناجه سواء في ديوانية سقط الزند أو اللزوميات ، أو رسائله التي منها « الغفران » تلك التي دجها رداً على صاحبه الحلبي ابن القارح الذي أرسل إليه رسالة طالباً منه ، راجياً إياه أن يرد عليها ، وذلك حوالي سنة ٤٢٤ هـ .

أما ابن القارح هذا فهو علي بن منصور الحلبي يكنى أبا الحسن ويلقب دوخلة : كان شيخاً قيمياً بالنحو حافظاً لقطعة من اللغة والأشعار ، راوية الأخبار ، وكانت معيشته من التعليم بالشام ومصر : فأدب بها ولدى الحسن بن جرهر القائد وكانا مختصين بالحاكم ، وكذلك أدب أبا الحسن المغربي الذي وزر ببغداد ، وسامت العلاقة بينهما - لسبب غير واضح - إلى حد أنه أمطره بأهاج كثيرة جعلت أبا العلاء المعري يذكر ابن القارح - حينما ذكره - مذسوباً إلى هجائه ذلك بقوله عنه « أعرفه خبراً ، هو الذي هجا أبا القاسم بن علي بن الحسين المغربي (٣٧٠ - ٤١٨ هـ) ومع هذا فقد كان ابن القارح علي - علاقة حسنة بوالده أبي الحسن المغربي بمصر ، فأتى عليه في رسالته بعكس موقفه من ابنه الذي يرى أبو العلاء مستهجناً هذا الموقف بما يستشف من رسالة الغفران في قسمها الثاني الذي رد فيه علي ابن القارح بعض مزاعمه .

وما هجاه به ابن القارح قوله :

لقيت بالكمال سترا على فقصك ، كالباني على الحص
فصرت كالسكنف إذا شيدت بيض أعلاهن بالحص
جاعة الدنيا بلا غرة وبا طويس الشؤم والحرص
قتلت أهليك وأنهب يد ت الله بالموصل تستمعص

ويقول يافوت عنه أيضا : وكان بينه وبين شخص يدهى «الكسروى»
مها ترة ومهاجلة ومماظنة وشعره يجرى يجرى شعر المعلمين ، قليل الخلاوة ،
خاليا من الطلاوة . ولم يتزوج ولا أعقب . ولد بحلب سنة ١٢٥١ هـ ، وكان
موجودا حتى سنة ١٢٦١ هـ (١) ، فإن صح هذا فيكون قد عمر حتى جاوز
المائة عام .

ومبلغ على أن الدكتور الفاضلة محمقة الغفران لم تتعرض لشخصية
ابن القارح . بل دراسة المستفيضة فيما يتصل من مؤلفاتها حرل الغفران أو
أبى العلاء ، فألحت إليها في دراستها للغفران ، دون أن تتعرض لها
بالتفصيل ، واهتمت بشخصية أبى العلاء ، المحروم ، وبالظروف السياسية
والاجتماعية والاقتصادية التي اكتشفت عصره وحياته ، دون أن تلقى ضوءا
على ابن القارح ، وهو الذى لابد وأن يكون الباعث الأول الذى حرك
أبا العلاء إلى ما خاض في دروب رسالته ، وما جعله يقيم شخصيته الهامزى .
الأكبر من الدنيا ومن فيها ، واكتفت بالشعور ونحوه بالاشمئزاز الحاد لما ذكره
في آياته الصنادية السالفة الذكر وما توحى به كلمة «السكنف» من تقزز حاد ،
وكذلك نعمته في كتابها الذى حاولت فيه جاهدة عدد الرسالة «مسرحية مكتملة
البناء» (٢) ، نعتته بالخيانة إذ انضم إلى الحاكم الذى انقلب عليه وقلب له

(١) معجم الادباء ليافوت ١٥/٨١ -- ٨٨

(٢) صدر الكتاب في بيروت سنة ١٩٧٦ م .

ظهر المجن فباء بغضب الناس وسخرية الدهر منه ، وتغير الحاكم وقلبه له
ظهر المجن : أغلب الظن أن تلك هي شخصية ابن القارح في مخيلة الدكتور
محققة الغفران منذ سنة ١٩٥٠ م ، تلك المحققة التي ضربت صفحا عن بيتين
أوردتهما ياقوت في كتابه معجم الأدباء ضمن ما اختاره له من أبيات مصدرة
بأنها د في المداعبة ، وهي في ظني تعد مفتاح شخصيته .

وقد تكون السبب الأقوى - إن لم أكن مخطئا - في سخرية أبي العلاء
بإبن القارح . ويؤيد زعمي اقتصار السيوطي ^(١) في البغية على هذين البيتين
ولم يروغيرهما ، كأن البيتين ظلا - حتى عصر السيوطي على الأقل - أشهر
ما يروى لابن القارح وأفضل ما يمثل شخصيته ، ولا بأس من إيرادهما على
الرغم ، نأ نشعر به من غضاضة في إيرادهما :

أين من كان يوضع الآ... إجلالا على الرأس عنده ويباس
أين من كان عارفا بتأديرا... الكبار ا مات للناس ١١
وقد قصد ابن القارح في البيتين - كما نرى - إلى التفسكه ولا شك ، أو
إلى هجاء منحت ، أو إلى التمرض إلى لعوب ، وأغلب الظن أنهما قد صكلا -
فيما وصل من شعر ابن القارح وأدبه - أسماع أبي العلاء ، مع ما قرف به
من هجو والوزير أبي القاسم المغربي ، والذي نعت بهجوه أبو العلاء في الغفران ،
كأن ابن القارح لا يعرف إلا بهذا الهجو ، بالإضافة إلى هذه النقيصة الحاقية
التي تسقط صاحبها حينما يأخذ جانب حاكم ظالم وينأى بجانبه من رعية
مظلومة بغية وفده ، وإذا بالحاكم يتنكر له ولا يعطيه سؤله ، بل ينتقم منه
بحرمانه ، كل هذا ولا شك كان هالة أحاطت بصورة ابن القارح وشخصيته

في مخيلة أبي العلاء حينما قرئت له رسالة ابن القارح : فهاهنا تخذاق هذا الشيخ الكبير ذي السبعين عاما أو ما ينيف عليها ، في رسالته ، ومحاولاته لإثبات قدرته اللغوية من جهة ، ولكي تعلو منزلته في عالم الأدب إن هو ظفر بشيء أبي العلاء عليه من جهة أخرى ، متلمها ، بل ملحا على تلقى جواب أبي العلاء عليها إذ ختمها بقوله : وأسأله - أدام الله عزه - تشريفي بالجواب عنها ، فإن هذه الرسالة - على ما بها - قد استحسنيت وكتبت عني وسمعت عني ، وشرفتني باسمه - وطرزتها بذكره ، ، ، ، ، وإذا جاء جواب هذه ، سيرتها بحلب وغيرها إن شاء الله ،

وهكذا ندرك الظروف النفسية الخاصة التي حدثت بأبي العلاء إلى أن يدبج رسالته متعاليا على هذا الشيخ الغاني المغرور - ابن القارح - الذي أحاط المحزون باسمه ولا شك - بل ربما لطخه - بسبب هذين البيتين الداعرين اللذين اكتفى السيوطي بالتمثل بهما عنوانا على شعره وربما على شخصيته ! وأغلب الظن أن شعرا آخر من هذا القبيل قد عرف له ولكنه ضاع فيما ضاع من شعر كثير .

والغريب أن ابن القارح - في أواخر رسالته - يروي بدون حياء نادرين لأحداهما تتعلق بأبنة أخته سرقت ثلاثة وثمانين دينارا له . فلما هددها السلطان أخرجت إليه بعضها وقالت : والله لو علمت أن الأمر يجري هكذا ، كنت قتلته ! وكان الأجدر به أن يستحي من ذكر ما بمس عرضه هكذا ، ويعمل بقوله : وإذا بليتيم فاستتروا ، ، ولم يفت أبا العلاء أن يتمم به فأطال تمكمه بالشيخ وثمانين دينارا وبذكره لهذه العادرة في ضحكة طويلة استغرقت عدة صفحات من أواخر رسالته .

أما الأخرى فتلك الوديدة - وكانت جارية - استودعت صديقا ، فأراد

أن يحربها ، فلاكتشف أنها ثيب وليست بكرًا ، كما جدهى صاحبها ١ :
وهكذا نقرأ فاهرة باردة أشبه بالغشاء ، ومع هذا فليس لها موضع يدعو
إلى سردها فى الرسالة ، وإن دلت على شيء فى خلقى - وأغلب الظن كذلك
عند أبى العلاء - فإنها تدل على صدورهما عن شيخ مهتر لم يرج حرمة لسن
ولا لمساكنة أبى العلاء حتى يحسب رسالته بهذه الأباطيل التى كان يعرفها أبولعلاء
عن البشر وعن ابن القارح ولا شك فى شبابه أو كهولته ، ولكنه ولا شك
يستبعد صدورهما عن شيخ كابن القارح ذى السبعين عاما (١) وهو الذى كان
يجدر به أن يكون أكثر وقارا وأبعد همة ، إلا إذا كان قد خرف وأهتر.

ولا تحوى الرسالة موضوعا خطيرا ، ولكنها تحوى محاولة لإظهار البراعة
اللغوية والأسلوبية من خلال اللفظ المختار والجملة الرصينة أحيانا ، والاستطراد
إلى أفكار جانبية ، وعرض لما يحزنه عقل ابن القارح من بعض مصطلحات
طائفة من العلوم الكيائية والرياضية وغيرها ، والاستشهاد بالأمثال وتوضيح
الشعر المحفوظة والأخبار الأدبية التى كان محصولة منها كثيرا ، وهذا ينسب
ما حطى على روح العصر من محسنات بدعية أظهرها السجع كما جاء فيها :

... بعد أن منيت بربضها بالدر خمين وأم حبو كرى والفتكرين ،
بل رميت بأبدة الآباد والناهية التآد . . . ،

وتبدو الرسالة متقطعة الاوصال فى بعض أجزائها مما يسبب خللا فيها
ويغشيها بسحابة من الغموض كما ظهر فى الصفحة ٢٢ من طبعة دار المعارف .

ويسوق خبر رسالة أبى الفرج الزهرجى السكاتب ، تلك الرسالة التى
حملها إلى أبى العلاء ، ولكنها سرقت منه ، فيظهر استيائه من ذلك ، وشكوى

(١) انظر قول ابن القارح فى رسالته ص ٤١ : فلما بلغت عشر الثمانين.

أموره ، وبث شقوقه ، واطلاعه خالغ عجره وبجره . . . طالع ، ثم يستطرد
إلى بيت لثني :

أذم إلى هذا الزمان أهيله . .

ويتقد شاعر العربية الكبير الذي ادعى النبوة ، ويخرج من ذلك مستطرداً
إلى الحديث عن الزنادقة حديثاً مطولاً ، ثم سن الشيخوخة وأنها بلاء ، ربما
كانت عاقبته صوف الفوائ عنه ثم يستطرد منه إلى صبر النبي - صلى الله
عليه وسلم - على البلاء في حديث طويل ، ثم عرج على حفظ نفسه ، ومنه
خرج إلى الدفاع عن نفسه وتبرئها عما اتهم به أبو العلاء من هجاء الوزير
أبي القاسم المغربي وما دار بينه وبين أبيه في مصر عنه ، وأخيراً يثنى على
أبي العلاء رسائله وعقائل ألفاظه وحفظه .

السخرية في رسالة الغفران :

بدأ أبو العلاء يرد على ابن القارح واضعاً نصب عينيه أو فؤاده الذي
وحاقتته النادرة كل ما تضمنته الرسالة من أفكار وما ظهر به الكاتب من
تقمر في الأسلوب فأول المعرى أن يحمده ويظهره قزماً إذا ما قرن به :

ففي أسلوب أبي العلاء حمداً ضخماً لألفاظ أحسن غرائبها وحوشيتها
ووعورتها فأول شرح معظمها ، بادئاً إياها بقوله : « قد علم الجير - الذي
نسب إليه جبرئيل - أن في مسكني حماطة . . . ويستطرد إلى معاني الحماطة ،
ثم إلى معاني « الأسود » . . . وهكذا يستمر حتى يصل إلى ذكر رسالة ابن
القارح ويبدأ في السخرية منه ذاماً إياها بأسلوب المدح ، أو مادحاً إياها
على الحقيقة ، تمهيداً للسخرية به : « وجبت من أساق عقودها الفاخرة ،
ومثلها شفع ونفع ، وقرب إلى الله ورقع ، وألفيتها مفتوحة بتمجيد ، صدر عن

بليغ مجيد... وفي قدرة ربنا - جلت قدرته - أن يجعل كل حرف منها
شبح نور ، لا يمتزج بمقال الزور... ولعله سبحانه قد نصب أسطورها
المنجية من اللهب معاريج من الفضة أو الذهب، تخرج بها الملائكة من الأرض
الراكدة إلى السماء.... وهكذا يلجأ أبو العلاء إلى خياله الرائع وإلى السجع
في بث سحره : سطورها تنجي من اللهب... معاريج من الفضة أو
الذهب.... وأي قيمة ضخمة للرسالة حتى تخرج بها الملائكة... ؟

ويبدأ أبو العلاء في إدخال شيخه ابن القارح جنته ثم جحيمه عارضا
ما فهم من ألوان النعيم : أنهار من غسل مصفى... خمر... أباريق... أسماك
دنان الخمر... مقابلا بين ذلك وما قيل فيها من شعر في الدنيا الفانية ،
وكذلك بعض ألوان العذاب ، ويجعله يلتقى بعشرات من الشعراء والفتاة
والرواة وبعض الشخصيات ذات المقام العالي كعلي بن أبي طالب وفاطمة
الزهراء رضي الله عنهما وقاضى حلب... وغيرهم^(١).

أما القسم الثاني من الرسالة فيرد فيه على رسالة ابن القارح ردا مباشرا
تفصيليا ، بينما يعد فيما سلف من القسم الأول منها قد ردّ ردا رمزيا : فيبدأ
أبو العلاء مدافعا عن المتنبي الذي هاجمه ابن القارح متعرضا لذكر الزنادقة
والملاحدين حتى يصل إلى نهايتها ، وهو لا يكاد يترك شيئا بما ذكره ابن
القارح إلا تعرض له ، غير ما يدل على تفاهة الكاتب فقد ضرب عنه صفحا ،
وبما تعرض له « الدنانير » التي سرقت منه ، وتستغرق اثنتي عشرة صفحة^(٢)
يجوس خلالها بتهكم رائع ، وكذلك « الثمانين » وهو حددها فيستغرق ثمانين
صفحات ، ويستمر متندرا بأبن القارح من خلال ذكر نصوص أدبية تتصل

(١) رسالة الغفران (طبعة دار المعارف الأولى) ص ١٢١ - ٢٧١ .

(٢) المرجع السابق من ص ٥٥١ - ٥٦٢ .

بها... وهكذا يتخذ من عناصر كثيرة مواد - يجعلها مدار سخريته
أو محور هزئه وتندرته: فهو الشيخ الهرم الذي ضرب في أعماقه روح ما جن
لا يستحق إلا التندر المستمر: تصعد الملائكة بكلمات رسالته وبسطورها
المكونة منها إلى السماء فوق معارج من الفضة... أو الذهب (بادئا بهذا
تندرته) مستشهدا بآيتين^(١) كريمتين فهما ذكر الكلم الطيب، شربها كلاً منها
بشجرة طيبة، ويستطرد إلى جزاء ما أثنى به على الله بشجر في الجنة ضخم
ذى ظل يملأ ما بين المشرق والمغرب... وهكذا يجد ابن القارح نفسه
في الجنة وقد بدأ يتلعب به المعري راوية للاخبار في الدنيا، فيظل هكذا في
فردوس الآخرة حيث يجعله يلتقي بهؤلاء الرواة والعلماء الذين روى عنهم:
سليويه والمبرد والأصمعي وعشرات غيرهم، وملتقيا بطائفة كبيرة متفرقة
من الشعراء في الجاهلية والإسلام والعصر العباسي حتى أبي تمام، ويجعل
ابن القارح يقول: «لقد شقيت في الدار العاجلة بجميع الأدب، ولم أحظ
منه بباطل، وإنما كنت أتقرب به إلى الرؤساء فأحتلب منهم» (ص ٢٨٤
من الغفران) ويجعله يقول في موضع آخر: «لأنما أنا صاحب قلم وسلم...»
(الغفران ص ١٧٣) ويتعجب من حفظ الشيخ ابن القارح أدبه في الآخرة
ورده «أنه كان يدعو الله أن يتمتع بأدبه في الدنيا والآخرة»، (ص ٢٣٣ من
الغفران) وهذا منتهى التهم. ويسخر به لأمراء المعلنين وهو أحدهم بقوله
على لسان امرئ القيس: «وأما المعلنون في الإسلام فغيروه على حسب
ما يريدون، ولا بأس بالوجه الذي اختاروه...» (ص ٣١٠ من الغفران)
والمعري دائماً أبدأ يستخدم الجمل الاعتراضية نهكماً عليه، ولا يكاد يذكره
إلا متبوعاً بهذه الجمل التي منها: فيقول - خلد الله ألفاظه في ديوان الأدب^(٢)،

(١) الأولى من سورة فاطر الآية ١ والثانية من سورة إبراهيم الآيتان ٢٥، ٢٤

(٢) رسالة الغفران ص ٢٢٨

ومنها دوى مرضى له أدام الله الجمال يبقائه - للشوق إلى نظر سحاب ،^(١)
وهنا : « فيهم الشيخ - لازالت همته عالية - »^(٢)

ولئن كان ابن القارح هو مدار سخرية المعري ، فإن المواد التي استخدمها
في السخرية قد جعلها مدافا لسخريته أيضا ، كما فعل حينما سخر من الرواة
الذين يوردهم السخرية من ابن القارح : فيدير ممركة بين الأصمى والمأزنى
حول وزن إوزة - كأنها شيء خطير - ويجعل الأول يشتم الثاني بقوله :
يا فصيل^(٣) .

وكذلك يسخر من الرواة حينما يفضح التسلط للشمع أو تصحيفهم في
روايته : فيجعل الطالبة الجعدي يقول بصدد أبيات غيبية وضعت عليه :
ما جعلت الشين قط روبا ،^(٤) ويجعل أختى تيس يقول : « ما هذه بما صدر
عني ، وإني منذ اليوم لموئع بالمخمولات »^(٥)

ويذكر قصة خلاف مع أصحابه وسؤاله إياهم عن كيفية إيراد قافية
البيت الثاني من النص الآتي :

ألم بصحيتي وهم هجرع خيال طارقي من أم حصن
لها عاتشتني : عسلا مصفى لئلا شامت يوحوارى بسن^(٦)

إذا ما كانت الرواية « من أم حفص » بدلا من أم حصن

(١) المرجع السابق ص ٢٦٧ .

(٢) « د » د » ص ٢٨٤

(٣) رسالة الغفران ص ٢٧٥

(٤) « د » د » ص ٢٠١

(٥) « د » د » ص ٢٠٤

(٦) « د » د » ص ١٤٥ ، ١٤٦

ويخرج من هذه الحكاية فيقول : ويأخذ في اقترح أسماء أخرى مثل : لم
جزء ... : الخ القوافي كلها ، وبذلك يظهر أبو العلاء اقتداره على النظم من جهة
وسخريته من الموضوعين كخلف من جهة أخرى ١

ولا يكتفى بسخريته الخفية من ابن القارح المعلم الراوى ، بل يسخر منه
من ناحية ما عرف عنه بالجرن : فيستطرد في الكلام عن الجنة بذكر المدام
ويخرج منها ذكر الأباريق متلعبا بالأسلوب بمثل قوله : هبات هذه
أباريق ، كأنها في الحسن أباريق ١ ، ثم يبدأ في شرح مفرداتها جازما بطريق
خفى ياخفاق ابن القارح في التفتن إلى مدلول الكلمات الثلاثة : ثم يخرج
من ذلك إلى الانتقال إلى أدب الدنيا متناولا ماقاله عدى بن زيد عن المدام
والصيد ، ثم يخرج إلى ذكر ألوان الخمر ويعطها أو تصورها على هيئة الطير
السابعة ، فهو بهذا يلعب بعقولنا أو بخيال ابن القارح ، ثم يبالغ في وصف هذه
الخمر لئلا يلبس لها مثيل ... ويستمر في وصف الخمر مزيها على النمر بن
تولب قوله في الدار العاجلة ... وهكذا ينتقل بين الآخرة والدنيا موردا
محفوظه من نصوص مزيها على أمثال ابن القارح ما يحفظه من نصوص ، ولا
يكتفى بهذا ، بل يكمل له خياله الذي لا يسكاد يفنى شيئا إلا أحاطه بما
هو بسبيل تطوله : السمك بعد الخمر ، الندامى ، الزهدة وما تحتاج إليه من دابة
تركب ، ولا يكتفى أبو العلاء بالسخرية التشخيصية من الراوى المقصود
بالسخرية وهو ابن القارح أو الرواة والشعراء والعلماء الآخرين ، بل يدس
عبارات وصوراً تحمل السخرية في طياتها أو برتبتها : فها هي صورة رف من
إوز الجنة تغنى للأعشى ما يطلبه من غناء (١) وقوله على لسان زفر : وأحسب
هذا الذي نجيئني به .. يعنى الشعر - قرآن إبليس المارد ، ولا ينفق على الملائكة

إنما هو للجان وعلوه ولد آدم ا^(١) وفي موضع آخر :

« وحسبنا شهيدا على ذلك الآية المتلوة في فرقان محمد ا^(٢) ومن الصور قوله على لسان لبيد : ... فلا يؤمن أن يسمى فاعلو ذلك أزواج الإوز ، فتضرب الجماعة عن اقتسام أولئك القيان ... »^(٣)

ومن لمزه جعله علجا وحشيا يدخل الجنة لأن صائدا صاد بمخلب ، وكان إهابه كاسلب ... وتطهر بنزيعه الصالحون ، فشملته بركة من هؤلاء ا^(٤) وكذلك لمزه حسان بن ثابت ذكره الخزفي أول مدحة مدح بها الرسول^(٥) وكذلك جعله وسيلة الشيخ في دخوله الجنة هذه الجمل التي كان يكتبها في نهاية كل كتاب « وصلى الله على سيدنا محمد . . . وعلى عترته الأخيار الطيبين . »^(٦) وجعله يحار في عبوره الصراط حتى تهبه السيدة فاطمة الزهراء جارية تحمله على الصراط بصورة مضحكة ، منشدا :

ست إن أعياك همي فاحمليني زفقونه ا

ويقول عقب ذلك أبو العلاء على لسان ابن القارح متهمكأ به :

... فلذلك بقى على حفظي ما نزفته الأهوال ولا نهيك تدقيق

الحساب^(٧) ، متناسيا قوله تعالى : يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت ا^(٨) ،

(١) المرجع السابق ص ٢٤٤

(٢) د د ص ٣٥٢

(٣) رسالة الغفران ص ٢٢٦

(٤) المرجع السابق ص ١٩٠

(٥) د د ص ٢٢٧

(٦) د د ص ٢٤٩

(٧) المرجع السابق ص ٢٥٤ وقارن ذلك بما جاء في قوله تعالى : « وأن ليس

للإنسان إلا ما سعى » .

وما أكثر التقاطه ما ذكره ابن القارح في النصف الثاني من رسالته ، ورده عليه متبجرا بلغته ، وتقريعه بسبب غضبه من ابنة أخته للدنانير التي سرقها والثمانين التي ربما زادت عدا عليها ، فكأنه قط يلعب فأيا كما فعل حين ذكره الدنانير^(١) وهذا يذكرنا بسخرية الوزير بالملك فيما سلف من قصة « إبلاد وإبلاد وإبراخت ، في كلية ودمنة .

وهناك عبارات لم يتورع أبو العلاء عن أن يفوه بها سخرية متبجرا على رب العزة ، في مثل قوله على لسان النابغة الجعدي مخاطبا الأعشى : « أسكت يا ضل بن ضل ، فأقسم أن دخرك الجنة من المنكرات ، ولكن الأقضية جرت كما شاء الله ! لحقك أن تكون في الدرك الأسفل من النار ، ولقد صلي بها من هو خير منك ، ولو جاز الغلط على رب العزة ، لقلت : إنك غلط بك ، ومع استخدامه حرف الامتناع « لو » فإن هذا لا ينفي ما في العبارة من سم السخرية^(٢) ويقول على لسان أوس : « ولقد دخل الجفة من هو شر مني ، ولكن المغفرة أرزاق ، كما أنها النشب في الدار العاجلة . »^(٣)

وهكذا سخر سخرية لازعة من الشيخ المعلم الراوية ابن القارح مخاطبا بالنحاة الذين تشتمهم سخريته حيثما يحملون عدى بن ربيعة التغلبي لا يشتهر إلا ملحقا أو مضافا إلى هذا البيت :

ضربت صدرها إلى وقالت بأعديا لقد وفئك الأواق
وكأنما صارت فسكتة نحوية في بيت أوبيتين لشاعر من الشعراء هي أهم

(١) رسالة الغفران من ص ٥٤ ، إلى ٥٦٩

(٢) رسالة الغفران ص ٢٢٢

(٣) المرجع السابق ص ٢٢٢ - ٢٢٣

طيرف به وما يذيع به اسمه ، كأن تلك النكتة التي تهم التحويرين صارت
لهم من إبداعة الفنى في الدنيا العاجلة ١١

وهكذا نرى أن الرسالة كلها ضحكة كبرى ، بل فقهة مكتومة تسد
عن فم أبي العلاء الذى لعله - فى الطور الثانى من حياته - لم يعرف الضحك
أو الابتسام هكذا فى دنيا الرفاق وفى سر المتفكرين ، فكانت رسالة ابن
القارح سببا فى إطلاق تلك السخرية اللاذعة من معقلها الذى استكنت فيه دهرأ
طويلا منذ صار رهين المحسين ، تلك السخرية التى صارت لحمة الرسالة
وسداها من خيوطها ، ولعل العقاد كان أصدق من عبر عنها بقوله ، وحسبنا
أن نقول إن الرسالة كلها فى وضعها وفى تركيبها ، وفيما بدا من معانيها
القريبة ، وما انطوت عليه من المعانى البعيدة والمضامين الخفية ، إن هى إلا
ضحكة واحدة متصلة ، يجر بها المعرى حيناً ، ويوارب بها أحيانا ، وقد
يفرق فى الصخر حين يوارب ويدارى حتى تحاله ساخرا من السخر مترفعا عن
الاهتمام بإظهار قصده ، أشدة استخفافه وقلة مبالاته ، (١)

ومع هذا فقد علق طه حسين على ما كتبه العقاد بقوله : « إن الذى
يقرأ رسالة الغفران ويفقه ما فيها من سخرية ، لا يستطيع أن يعلم بأن
أبا العلاء كان مسلما حقا ، وقد أفهم أن يتجنب العقاد مثل هذا البحث ، لأن
فيه شيئا من الحرج ، ولكنى أحب أن يكون الناس مثلى ، يكرهون أنصاف
الحقايق ، ويؤثرون العلم والتاريخ على كل شيء . »

وأغلب الظن أنها حالات نفسية كانت تغلب شخصية أبى العلام الحساسة

(١) مطالعات فى الكتب والحياة للعقاد (طبعة التجارية سنة ١٩٢٤ م)

فتتكيف بها آراؤه ، فيرى أنا قد اقترب من هاوية الكفر ، ويرى أنا آخر
قد رجع وأتاب ، ومن يقرأ ما كتبه الصفدى وما رواه من مرويات كثيرة
عنه وعن معاصريه إزاءه ، يتبين له صدق دعوانا ، وقد كتبت رسالة الغفران
غالباً في ظروف سيطرت عايمه وأحاطته به ، نihil إليه أنه في قمة الجمال
الإنسانى وصار ينعر إلى الناس من حل وكانهم إزاءه قد انحدروا إلى هاوية
الانحطاط والضعفة ، انحطاطاً يذكر بالساخر الإنجليزى سويفت مؤلف
رحلات جلفر ، فتلك الحالة هى التى ولدت عنده حالة السخرية العميقة من
ابن القارح والناس والمجتمع وما فوقهم فكانت رسالة الغفران ١ ، ،

ذيل

مقطعات الحمدونى

فى الشاة والطيلسان

(١)

وكان المثل يضرب بشاة منيع ، ثم تحول المثل إلى شاة سعيد ، لكثرة ما قال الحمدونى فيها ، وتسميره الملاح فى وصف هزالها :^(١)

ما أرى إن ذبحت شاة سعيد	حاصلا فى يدى غير الإهاب ^(٢)
ليس إلا عظامها لو تراها	قلت : هذى أدارن ^(٣) فى جراب
كم تغت بمحرقه حين تطعو	م لم تذق غير سف التراب ^(٤)
رب لا صبر لى غير ذا العذاب	بليت مهجتى وأودى شبابى

(١) ثمار القلوب ص ٣٠١ والورقة لابن الجراح ص ٦٢ ، وفوات الوفيات .
ومى من بحر الخفيف .

(٢) الإهاب : الجلد الذى لم يدبغ .

(٣) أدارن : جمع الدرن وهو الوسخ . ورويت فى « الورقة » لابن الجراح :
أرزان . والأرازن : جمع أرزن : وهو شجر صلب يتخذ منه العصى . ورواية
فوات الوفيات : أزانف .

(٤) روى هذا البيت وما يليه فى فوات الوفيات هكذا :

من حبسا الشياه اللواتى إذا ما . . أبصروهن قيل شاء الشهاب
ستراهن كيف يهصقن فى وجد . . به المضحى بهن يوم الحساب .

(٢)

وقال :

صاح بي ابن سعيد من وراء الحجرات^(١)
قرب الناس الأضاحي فأنا قربت شاتي
شاة سوء من جلود وعظام نخدرات
كلها قدمتها للـ ذبح قالت : واحياقي !

(٣)

وقال :^(٢)

أبا سميد لنا في شاتك العبر جاءت وما إن^(٣) لها بول ولا بحر
وكيف تبعر هامة عندكم مكثت طعامها الأبهضان الشمس والقمر
لو أنها أبصرت في نومها علفا غنت له ، ودموع العين تنحدر
يا مانمي لذة الدنيا بأجمعها^(٤) إني ليفتني من وجهك النظر

(٤)

وقل :^(٥)

شاة سعيد في أمرها عبر لما أتتنا وقد مسها الضرر

(١) الأبيات من مجزوء الرمل .

(٢) زهر الآداب ٥٤٩ - وجمع الجواهر ١٢٥ - ونهاية الأرب ١٠ / ١٣١ وفوات الوفيات ١ / ١٨ وهي من بحر البسيط .

(٣) جمع الجواهر : وليس لها .

(٤) جمع الجواهر : بما رجبت . إني ليمتني . وفي نهاية الأرب والوفيات : ليقنني .

(٥) الآداب ٥٤٩ - وجمع الجواهر ٢٩٤ - ونهاية الأرب ١٠ / ١٣١ - وفوات الوفيات ١ / ١٨ وهي من المنسرح .

وهي تغني من (١) سوء حالتها حسبي بما قد لقيت يا عمر
مرت بقطف (٢) خضر ينشر هاقوم فظفت بأنها خضر
فأقبلت نحوها لتأكلها حتى إذا ما تبين الخبر
وأبدلتها الظنون من طمع ياسا تغنت والدمع منحدر
كانوا بعيدا وكنت أمهلهم (٣) حتى إذا ما تقر بوا هجروا

(٥)

وقال: (٤)

لسعيد شوية سلها (٥) الضر والمعجف (٦)
قد تغنت وأبصرت رجلا حاملا علف
بأبي من بكفه بره دأى من الدنف
فأتاهما مطمعا فأتته لتعتلف
فتولى (٧) فأقبلت تغنى من الأسف
ليته لم يكن يقف عذب القلب وانصرف

(١) جمع الجراهر: لسوء.

(٢) القطف: جمع قطيفة: دثار مخمل.

(٣) جمع الجواهر: آمههم.

(٤) العقد الفريد ٤ / ٢٩٠ - وزهر الآداب ٥٥٠ - وجمع الجواهر ٢٩٥ -

وفوات الوفيات ١ / ١٨ - ونهاية الأرب ١٠ / ١٣٢ وهي من مجزوء الخفيف.

(٥) العقد: نالها.

(٦) فوات الوفيات: والتلف.

(٧) العقد: ثم ولي.

(٦)

وقال: (١)

جاء سعيد لي بشا	ة ذات سقم ودنف
فاحلة الجسم إذا	ماهي مرت بالجيف
صاحت عليها ههنا	يا أختنا ذات العجف
تخففها العبرة إن	مرت بأصحاب العلف
كم تغنى ولها	شرق لإيها ولطف
قد تقطعت إلى	وجهك شوقا وأسف

(٧)

وقال الحدوني في أضحية أهداها لإليه سعيد بن أحمد بن جوسبنداد: (٢)

أسعد قد أهديتني (٣) أضحية	مكنت زمانا عندكم ما تطعم
نضوا (٤) تغامزت (٥) الكلاب بها وقد	شدوا عليها كي تموت فيقضموا
فإذا الملا ضحكوا بها قالت لهم	لاتهزأوا بي، وارحموني ترحوا
مرت على علف، فقامت لم ترم	عنه، وغنت، والمدامع سجم (٦)

(١) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للشمالي ص ٣٠٢ .

(٢) الآداب ٥٤٩ - وجمع الجواهر ٢٩٤ - وفوات الوفيات ١ / ١٨ وهي من بحر الكامل .

(٣) زهر الآداب : أعطيتني .

(٤) النضر : المهزول .

(٥) زهر الاداب : تعاقرت .

(٦) المرجع السابق : تسجم .

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي

متاخر عنه ولا متق — دم^(۱)

(A)

وقال : (٢)

بشاة سعيد وهي روح بلا جسم
تقول لي الإخوان حين طبختها
فقلت : كلوا منها ، فقالوا تهزأ
وكم قد تغتت إذ تطاول جوعها
ألا أيها الغضبان بالله ما جرى

(9)

وقال المحدثون في طيلمان ابن حرب (٣):

قل لابن حرب مقالة العائب
أما رأيت الرفاء يحرّني^(٤)
أفناء جور البلي عليه كما
ولست فيما أقول بالكاذب
برفوه طيلسانك الذهاب ؟
أفنى الهوى قلب خالد الكاتب^(٥) ١

(٦) البيت لأبي الشيص وكان معاصره أبو نواس ممجياً بالقصيدة التي منها هذا البيت إعجاباً شديداً (الأخاني ١٦ / ٣١٩) .
(٧) ثمار القلوب ص ٣٠٢ وهي من بحر الطويل .

(١) التشبيهات المشرقية لابن أبي عون (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٧١٤٠ ز) ص ٢٤٣ وقد طبع حديثاً . والطيلسان من أردية العجم معرب والتالسان .

(۲) یحربنی : یسلبنی ،

(۳) فی الاعلام للزکلی ۲ / ۳۴۳ : د خالد بن یزید البغدادی أبو الهیثم المعروف بالکاتب : شاعر غزل من المکتاب ، أصله من خراسان ، عاش وتوفي =

(١٠)

وقال (١):

أيا طيلسانى أعيت طبي أسل بجسمك أم داء حب ؟
ويا ريح صيرتني أتقيك وقد كنت لا أتقى أن تهبي
ومستحبر خبر الطيلسان فقلت له: الروح من أمر ربى (٢)

(١١)

وقال (٣):

قل لابن حرب طيلسا نك قوم نوح منه أحدث
أفنى القرون ولم يزل عن مضى من قبل يحدث (٤)
فاذا العيون لحظته فكانه باللفظ يحدث
يودى إذا لم أرفه وإذا رفوت فليس يلبث

= بغداد . كان أحد كتاب الجيش في أيام المعتصم ، وكان يهاجى أبا تمام ، وغلبت عليه السوداء ، وعاش عمرا طويلا حتى دق عظمه ورق جلده . شعره رقيق أكثره غزل . له ديوان مخطوط توفى سنة ٢٦٢ هـ أو سنة ٢٦٩ هـ (انظر المنتظم لابن الجوزى ٥ / ٣٥ - والافغانى ٢١ / ٣١ - وفوات الوفيات ١٤٩ / وإرشاد الأريب لياقوت - ٤ / ١٧١ - وتاريخ بغداد ٨ / ٣٠٨) .

(١) زهر الاداب ٥٥٢ هـ وهى من المتقارب .

(٢) الآية الكريمة ٨٥ من سورة الإسراء .

(٣) وفيات الأعيان (طبعت بيروت) ٩٧ / ٧ وروى البيت الثالث : يعرث . والآيات من مجزوء الكامل ورويت أيضاً في جمع الجواهر ١٢٤ وفوات الوفيات ١ / ١٧ .

(٤) روى هذا البيت في فوات الوفيات وفيات الأعيان (بيروت) ٩٧ / ٧

هو طيلسان لم يزل . . . عن مضى من قبل يورث

كالسكب إن تحمل عليـ ٤ الدهر أو تتركه يلمث^(١)

(١٢)

وقال^(٢) :

يابن حرب كسوتني طيلساناً يزرع الرفو فيه وهو شباخ^(٣)
مات رفاؤه ومات بنوه وبدا الغيب في بنهم وشاخوا

(١٣)

وقال^(٤) :

يابن حرب كسوتني طيلسانا مل من صعبة الزمان وصدا
خسبنا نسج العناكب لوقي^(٥) إلى ضعف طيلسانك سدا^(٦)

(١) الآية الكريمة ١٧٦ من سورة الأعراف .

(٢) وفيات الأعيان (بيروت) ٩٧ / ٧ - وفوات الوفيات ١٧ / ١
والتشبيهات ٢٢٣ .

(٣) أعقب ابن أبي عون في التشبيهات المشرقية ٢٣٣ البيت الأول ما يلى
هون أن يذكر الثاني الذي أمته ابن خلكان في الوفيات :
تستطير الغرور طولا وعرضا فيه حتى كأنهن رعاخ

(٤) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٧١ - وجمع الجواهر ص ١٢٥
وثمار القلوب ٤٨٢ - وزهر الاداب ٥٥٠ ووفيات الأعيان (طبعة القاهرة)
٨١ / ٦ ص ٥٢٩ ، ٤٣٧ / ٣ وفي طبعة بيروت من الوفيات ٩٦ / ٧ أورد
الأول والرابع فقط بروايه : فصدا - ورويت الأبيات أيضا في فوات الوفيات
١٧ / ١ وهى من بحر الحقيق .

(٥) زهر الاداب : قد حال .

(٦) هذا البيت والذي يليه لم يذكر في ثمار القلوب .

إن تنفسيت فيه ينشقي شقا أو تنحنجت فيه ينقد قدا^(١)
 طال ترداده إلى الرفو ح لو بعثناه وحده لتهدى
 (١٤)

وقال^(٢)

يا قاتل الله ابن حرب لقد أطال إتعابي على عمدا
 بطليسان خملت أن البلي تطلبه بالوتر والحد
 أجد في رفوي له والبلي يلهو به في الهزل والجد
 ذكرني الجنة لما خدا أصحابها منها على جرد^(٣)
 أن أتهم الرفاء في رفوه مضى به التزيق في نجد
 غنيته لما قضى راحا يا واحدني تتركني وحدي^(٤)
 (١٥)

وقال^(٥):

طليسان لابن حرب جهادني قد قضى التزيق منه وطره
 أنا من خوف^(٦) عليه أبدا سامري^(٧) ليس يألو حذره
 يابن حرب خذه أوفابه ث بما نشترى^(٨) عجلا بصفر عشره

(١) روى هذا البيت في جمع الجواهر ص ١٢٥ هكذا :

لن تنسمت فيه ينجر جرا أو تبسمت منه ينقد قدا

(٢) زهر الآداب ١٠٤٧

(٣) الآية ٢٥ من سورة القلم .

(٤) انظر الأغاني ٦ / ١٧٢ ، ١٦٣

(٥) زهر الآداب ص ٥٥٢ ، وجمع الجواهر ص ١٢٥ .

(٦) جمع الجواهر : من خوف .

(٧) السامري : الذي عبد العجل ، كان عظيمًا من بني إسرائيل .

(٨) جمع الجواهر : يشترى .

لعل الله يحياه لنا إن ضربناه ببعض البقرة
فهو قد أدرك نوحا فمسي عنده من علم نوح خبره
أبدا يقرأ من أبصره أنذا كنا عظاما نخره^(١)

(١٦)

وقال^(٢):

طيلسان لابن حرب جاءني خلعة في يوم نحس^(٣) مستمر
فإذا ما صحت فيه صبحه تركته كهشيم المحتظر^(٤)
وإذا ما الريح هبت نحوه طيرته كالجراد^(٥) المنتشر
مقطع^(٦) الداعي إلى الرافى إذا مارآه قال: ذاشيء ذكر^(٧)
وإذا رقاؤه حاول أن يتلافاه تعاظم فقر^(٨)

(١٧)

وقال^(٩):

فما كسانيه ابن حرب معتبر فانظر إليه، إنه إحدى الكبر^(١٠)

(١) الآية ١١ من سورة النازعات .

(٢) زهر الآداب ص ٥٥٢ .

(٣) الآية ١٩ من سورة القمر .

(٤) الآية ٣١ من سورة القمر . والمحتظر : صاحب الخطيئة .

(٥) الآية ٧ من سورة القمر .

(٦) المقطع : الساكت المنطلق إلى من هتف به .

(٧) الآية ٦ من سورة القمر .

(٨) الآية ٢٩ من سورة القمر .

(٩) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٧١ - وثمار القلوب ص ٤٨١ .

(١٠) الآية ٣٥ من سورة المدثر .

قد كان أبيض ثم ما زلنا به نرفوه ، حتى اسود من صده الإبر

(١٨)

وقال (٢) :

طيلسان لابن حرب يشدهى لامساسا (٢)
قد طوى قرنا فقرنا وأناسا فأناسا
لبس الأيام حتى لم تدع فيه لباسا
غاب تحف الحس حتى لا يرى إلا قياسا

(١٩)

وقال (٣) :

طيلسان لابن حرب ذو أياد ليس تحصى
أنا فيه أشعر النا من ، إذا ما الشعر نصا
وأرائى صرت أدنى بعدما قد كنت أقصى
واقفانى الناس وازدا دوا على شعرى حرصا
ولكم قد حازلى أردية تترى وقصا
كان دهر طيلسانا ثم قد أصبح شصا

(٢٠)

وقال (٤) :

ولى طيلسان إن تأملت شخصه تيقنت أن الدهر يقنى وينقرض

(١) زهر الاداب ص ١٠٤٨ وهى من مجزوء الرمل .

(٢) الاية ٩٧ من سورة طه .

(٣) الجواهر ص ١٢٤ وهى من مجزوء الرمل .

(٤) زهر الاداب الجواهر ص ١٠٤٦ - وجمع الجواهر ص ١٢٥ وهى من

بحر الطويل .

تصدع حتى قد أمنت انصداهه وأظهره الأيام من عمره الغرض
 كئاني لإشفاقي عليه بمرض أخو سقم بما تمادى به المرض (١)
 فلو أن أصحاب الكلام يرونه لما روك (٢) فيه وادعوا أنه عرض !
 (٢١)

وقال (٣):

وطيلسان إن تأملته قد دته بالطول والعرض
 كأن إشفاقي عليه إذا غدوت إشفاقي على عرضي
 لو أنه بعض بني آدم كمان أسير أسير الله في الأرض (٤)
 (٢٢)

وقال (٥):

ولى طيلسان ناحل الجسم غير أنه ثبوت لهبات الرياح الزعازع
 وما ذاك إلا أنه متهتك يخل سبيل الريح غير منازع
 أراه كضوء الشمس بالعين رؤية ويمعنى من لمس بالاصابع
 وثقل اسم الطيلسان لضعفه فسميته « سانا »، فهل ذاك ناعمى !

(١) لم يروى في جمع الجواهر .

(٢) رواية جمع الجواهر : رأوه ما ما يروك

(٣) التشبيهات المشرقية لابن أبي عون ص ٢٢٣ - ووفيات الأعيان

٩٣ / ٦ وثمار القلوب ص ٤٨١ دون ذكر البيت الثاني وروى الشطر الثاني من البيت الأول : شقيقته .

(٤) اقتبس مما جاء في الخبر : أن للعبد إذا بلغ تسعين سنة ، كتبت له

الحسينات وكفرت عنه السيئات ، وسمى أسير الله في الأرض ،،

(٥) التشبيهات المشرقية ص ٢٢٣ وهو من بحر الطويل

(٢٣)

وقال : ٩

وهبت^(١) لنا ابن حرب طيلسانا يزيد المرء ذا^(٢) الضمة انضاعا^(٤)
يسلم صاحبي فيعيد شتمي لأن الروح يكسبه انضاعا^(٥)
أجيل الطرف في طرفيه طولا وعرضا ، ما أرى إلا رقعا
فلست أشك أن قد كان قدما لنوح في سفينته شراعا
فقد^(٦) غنيت إذ أبصرت منه جوانبه^(٧) على بدني تداعى
قضى قبل التفرق يا ضباعا ولايك موقف منك الوداعا^(٨)

(٢٤)

وقال^(٩):

يا بن حرب إنى أرى فى زوايا يديتا مثلما كسوت جماعه

-
- (١) زهر الآداب ص ٥٥٣ - ووفيات الأعيان (مصر) ٣ / ٣٣٧ (بيروت) ٩٦ / ٧ - وجمع الجواهر ص ١٢٥ والايات من بحر الوافر .
(٢) روى هذا الشطر فى الوفيات هكذا : رأينا طيلسانك يا بن حرب ...
(٣) جمع الجواهر : فى الضمة .
(٤) يروى ابن خلكان بعد هذا البيت :
إذا الرقاء أصلح منه بعضا تداعى بعضه الباقي انضاعا
(٥) روى هذا البيت فى وفيات الأعيان ، وجمع الجواهر هكذا :
يسلم صاحبي فيقد شبرا به ، وأقد فى ردى ذراعا
وروى الحصرى فى جمع الجواهر (له) بدلا من (به) .
(٦) الوفيات (بيروت) : وقد
(٧) الوفيات (القاهرة) بقاياه على كنى
(٨) البيت للقطامي عمير بن شميم التغلبي . وضباة : اسم امرأة .
(٩) زهر الاداب ص ١٠٤٨ - وفيات الأعيان ٣ / ٤٣٥ - فوات
الوفيات ١ / ١٧ وفيات (بيروت) ٩٧ / ٧ برواية : (مثل من) بدلا من
(مثلها) .

طيلسان رفوته ورفوت الر رفو منه حتى رفوت (١) رقاها
فأطاع البلى وصار خليعا (٢) ليس يعطى الرفاء فى الرفو طاعه
فإذا سائل رآنى فيه ظن أنى قى من أهل الصنائه (٣) ا

(٢٥)

وقال فى الطيلسان وكتبها إلى بعض الرؤساء (٤)

دعنى أبكى كسوتى إذ ودعت فلا زمن على البسكا إذ أزدعت
يابن الحسن أما ترى دراهق سملا تردت بالبلل وتدرعت
فيها من التمزيق مالو أنه مرت بها ربح الصبا لتفقت
يحكى (٥) نغرق طيلسانى إنها منه تعلمت البلى فتضعفت
لافرج الرحمن منه إنه أهدى ليابى كلها فتعلمت
فلتحمد الله الجبال فانها لو قارنته لحشمت (٦) وتصدعت

(٢٦)

وقال (٧)

إن ابن حرب كسانى ثوبا فظير أنجرافه

(١) فوات : رقمت ...

(٢) فوات : خليقا .

(٣) فوات : الصياحه .

(٤) وفيات الأعيان (القاهرة) ٩٣ / ٦ - (بيروت) ٩٦ / ٧ ومى
من بحر الكامل .

(٥) وفيات (بيروت) : تحكى .

(٦) المرجع السابق : تحشمت .

(٧) زهر الاداب ١٠٤٧ - وجمع الجواهر ١٢٨ ، وعروضه مستعملن فاعلاق .

أظل أدفع عنه وأتقى كل آفة
فقد تعامت من خشة يتى عليه الشفاهه ا

(٢٧)

وقال (١) :

وطيلسان إن تأملته لـج من التمزيق في محك
كأنه من طول رفقى به يملكنى مذصار في ملكى ا

(٢٨)

وقال : (٣)

لطيلسان ابن حرب نعمة سبقت
قد كنت دهرأ جهولا ثم حنفتى
أظل أجنب الإخوان من حذر
يا طيلسانا إذا الألاحظ جلن به
لئن بليت فكم أبليت من أمم
وكم رآك أخ لى ثم أنشدنى
بها تبين فضلى فهو متصل
عليه خوف من الأقوام إن جهلوا
كأنما بي جرح ليس يندمل
فعلن فعل سهام فيه تافضل
تترى ، أبادتهم أيامك الأول
ودع هريرة إن الركب مر فحل (٣)

(٢٩)

وقال (٤) :

وطيلسان هرم يحتمى عليه أكل الخل والبقل
كان كعبى إذا انضمتا عليه خوف الريح فى غل

(١) التشبيهات المشرقية ص ٢٣٣ .

(٢) زهر الاداب ص ١٠٤٦ وهى من بحر البسيط .

(٣) لأعشى قيس .

(٤) التشبيهات المشرقية ص ٢٣٤ .

(٣٠)

وقال : (١)

طيلسان ما زال أقدم في الدهر زمن الدهر امار اقيه حيله
وترى ضعفه كضعف عجوز رثة الحال ذات فقر معيله
غمرته الرقاع فهو كمصر سكتته نزاع (٢) كل قبيله
إن أزيته يابن حرب يذمى فجرير (٣) قد زان قبلي بجيله

(٣١)

وقال : (٤)

قل لابن حرب طيلسانك قد أوهى قواى بكثرة القدم (٥)
متبين فيه لمصره آثار رفو أوائل الأهم
فكانه (٦) الخمر (٧) التي وصفت في «ياشقيق النفس» (٨) من حكم،
فاذا رمتاه ، فقيل لنا قد صح ، قال له البلى : انهدم

(١) زهر الآداب ص ١٠٤٧ - والتشبيهات المشرقية ص ٢٣٥ بدون الرابع، وهي من الرمل .

(٢) النزيع : الغريب ، كالنزع . وجمعه نزاع .

(٣) جرير بن عبد الله البجلي رضى الله عنه ؛ صحابى . وقد ذكره الشاعر غسان فى هجائه جرير بن عطية الشاعر الأموى المشهور :

لعمري لئن كانت بجيلة زانها . . . جرير ، لقد أخزى كليبا جريرها .
(٤) زهر الآداب ٥٥١ ، ٥٥٢ - وجمع الجواهر ١٢٦ .

(٥) زهر الآداب : الغرم .

(٦) زهر : وكأنه .

(٧) الخمر التي وصفت من قول أبي نواس :

ياشقيق النفس من حكم . . . تمتع عن ليل ولم أنم

(٨) زهر الآداب : الروح .

مثل السقيم برآء^(٥) ، فراجعه نكس^(٣) ، فأسله إلى سقيم
أشدت حين طغى فأعجزني ومن العناء رياضة الهرم
(٣٢)

وقال :^(٣)

يا بن حرب كسوتني طيلساناً أمرضته^(٤) الأوجاع فهو سقيم
فاذا ما لمصته^(٥) قلت : سبحا نك تحي العظام وهي رميم
طيلسان له إذا هبت الويـح عليه عنكبى هنيم^(٦)
لو يدب الحولى مر ولد الذر عليه لأنوبته الكلوم^(٧)
(٣٣)

وقال :^(٨)

بأهلك في جبة مخرقة أطول أعمار مثلها يوم

(١) المرجع السابق . برو فعاوده . . .

(٢) النكس : عود المرض .

(٣) زهر الاداب ١٠٤٧ - جمع الجواهر ١٢٦ - وفيات الاعيان (مصر)
٤٣٧ / ٣ - ٥٢٩ / ٨١ / ٦ - و (بيروت) ٩٦ / ٧ وهي أيضاً في ثمار القلوب -
والآبيات من بحر الخفيف .

(٤) في الوفيات روايتان : أنحلته الأوجاع - أنحلته الأزمان وهو .

(٥) في الوفيات (بيروت)

فاذا ما رفوته قال : سبحانك يحي العظام . . . وفي زهر الاداب : لمصته . . .

(٦) زهر الاداب : هميم . وبعد البيت الثالث انفردت زهر الاداب

بهذا البيت :

أذكرني بيتاً لحسان فيه . . . حرق للفرّاد - بين أقوم

ولم يذكر البيتان (٣) ، (٤) في الوفيات .

(٧) الليث من قصيدة لحسان بن ثابت في ديوانه .

(٨) التفهيمات المشرقية ص ٢٣٣ .

(م ١٨ - السخرية)

وطيلسان كالال يابسه على قيص كأنه غيم

(٣٤)

وقال : (١)

إن ابن حرب جادلي كاسياً بطيلسان هــرم قشعم
انظر إلى كثرة تمزيقه كأنما مزق في مآثم
ذمى له وهو ذميم كمن بينى بناء فوق مستهدم
يصـدعه اللحظ يابسه صدع فؤاد العاشق المغرم
يذكرني كثرة تمزيقه تفرق الناس عن الموسم

(٣٥)

ومن ملح مضمنات الحمدوني قوله : ويقال إنه أول شعر قاله فيه ، وقد
قال فيه خمس بن مقطوعاً (٢) يريد إبراهيم بن المهدي - وهذا الشعر له -
وتنمته :

كساق ابن حرب طيلساناً كأنه فتي ناحل (٣) بال من الوجد كالشن
يعني لإبراهيم لما (٥) أبسته ذهب من الدنيا وقد ذهبت مني (٦)
ذهب من الدنيا وقد ذهبت مني (٧) هوى الدهر لي عنها ، وولي لها غنى
فإن أبك نفسي ، أبك نفساً نفيسة وإن أحسبها أحسبها على صن

(١) المرجع السابق وكذلك الصنحة .

(٢) فراء الوفيات للصلاح السكتي ١ / ١٧ وثمار القلوب ص ٤٨١ .

(٣) ثمار القلوب : عاشق .

(٤) الشن والشنه : القرية القديمة .

(٥) ثمار : حين .

(٦) هذا الشطر روى في الأغاني (بيروت ٥ / ٢٦٠ ولم أعر على بقية البيت .

(٧) هذا البيت والذي يليه لإنفرد بروايتها للصلاح السكتي في الوفيات .

(٢٦)

ومن طريف شعره قوله : (١)
يا طيلسان ابن حرب قد همت بأن (٢)
تودى بجسمى كما أودى بك الزمن
قد أوهنت حيلتى أركانك الوهن (٣)
فلو ترانى لدى الرفاء مرتبطاً
كما أنتى فى يديه الدهر مرتين
أقول (٤) حين رآنى الناس ألرمه
كما تأملنى فى حانوته وطن
من (٥) كان يسأل عنا أين منزلنا
فالأفحواة (٦) منا منزل قمى (٧)

(٢٧)

وقال فيه أيضاً : (٨)

طيلسان لو كان لفظاً إذن ما شك خلق (٩) فى أنه بهتان

(١) جمع الجواهر ص ١٢٥ - وزهر الاداب ص ٥٥١ - وثمار القلوب ص ٤٨٢ والآيات من بحر البسيط .

(٢) ثمار القلوب : بما ... يودى

(٣) لم يروى فى ثمار القلوب .

(٤) ثمار القلوب : غنيت .

(٥) البيت للبحارث بن خالد المخزومى ، وكان أمير مكة على عهد عبد الملك بن مروان ، وبعده فى الأغانى (طبعة صادر) ٣ / ٣٢٠

إذن تلبس العيس صفوا ما يكدره طعن الوشاة ولا ينبو بنا الزمن
ليت الهوى لم يقربنى اليك ولم أعرفك إذ كان خطى منكم الحزن

(٦) موضع قرب مكة .

(٧) قمى : خلىق وجدير أن تسكنه أو معناه قريب .

(٨) وفيات الأعيان (مصر) ٦ / ٩٣ (وبيروت) ٧ / ٩٧ - وثمار

القلوب ص ٤٨١ ، ٤٨٢ - والآيات من بحر الخفيف .

(٩) ثمار القلوب : إنسان .

فهو كالطور إذ تجلى له الأله فدكت قواه والأركان
كم رفوناه إذ تمزق حتى بقي الرفو وانقضى الطيلسان
(٢٨)

وله من أبيات (١) :

لقد حالف الرفاء حتى كأنه يحاول منه أن يعليه الرفوا
(٢٩)

وقال : (٢)

يابن حرب أظلت ظالي (٣) برفوى طيلسانا قد سكنت عنه غنيا
هو (٤) في الرفو آل فرعون في العـ رض على النار بكرة (٥) وعشيا
زرت فيه معاشرًا فازدروني فتغنيت إذ رأوني زريا (٦)
جئت في زى سائل كي أراكم وعلى الباب قد وقفت مليا

-
- (١) وفيات الأعيان (مصر) ٦ / ٨١ / ٥٣٩ - (وبيروت) ٧ / ٩٦ وهو من بحر الطويل .
- (٢) جمع الجواهر ص ١٢٤ - وطبقات ابن المعتز ص ٣٧١ - والتشبهات المقريفة ص ٢٢٤ - وزهر الاداب ص ٥٥٣ - وثمار القلوب ص ٤٨١ - وفيات الأعيان (مصر) ٣ / ٤١٧ (وبيروت) ٧ / ٩٦ وهي من بحر الخفيف .
- (٣) زهر الاداب - والوفيات - والتشبهات - وابن المعتز : فقرى . الوفيات أيضاً : وترى .
- (٤) الوفيات ، وزهر الاداب : فهو ...
- (٥) زهر : غدوة . وهو يشير إلى الآية الكريمة رقم ٤٦ من سورة غافر . ونهاية الآية ٦٢ من سورة مريم .
- (٦) أنظر سبب هذه الأبيات في جمع الجواهر ص ٤٩ .
- (٦) هذا البيت والذي يليه لم يرويا إلا في زهر الاداب .

وغيره

الفهرس

تقديم

١-٢٢٢

١-٢٢٢

٢ تقديم

٢٢٢ مقدمة

٢٢٢ حاجة الانسان إلى الضحك

٢٢٢ محاولة تعريف الضحك

٢٢٢ الضحك وأنواعه

٢٢٢ السخرية والهجاء

٢٢٢ ألفاظ السخرية وتعريفها

٢٢٢ أسباب السخرية

٢٢٢ قومات السخرية

٢٢٢ السخرية في البلاغة العربية

٢٢٢ أماليب السخرية

٢٢٢ صور السخرية

٢٢٢ صيغ السخرية

٢٢٢ الباب لأول

٢٢٢ قدم السخرية ورسوم قدمها عند الأوربيين

٢٢٢ في الأدب الغربي

٢٢٢ الأدب الجاهلي

٢٢٢ السخرية في عصر النبوة

٢٢٢ السخرية في القرآن الكريم

الموضوع	صفحة
الباب الثاني : الصاخرون	٨٣ - ٣٥٧
أدب السخرية في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي حسان والحطيئة	٨٣
جرير	٨٨
أدب السخرية في العصر العباسي	١١٢
ابن المقفع	١١٥
الجاحظ	١٤٩
أبو العيناء	٢٠٧
الحدوني	٢٣٤
أبو العلاء المعري	٢٤٢
ذيل : تحقيق مقطعات الحدوني في الشاة	٢٥٨
في العايلسان	٢٦٢
المراجع	٢٧٩

المراجع

- الأخبار الطوال الدينوي مصر ١٩٧٢ م
 أخبار الأذكياء لابن الجوزي تحقيق محمد مرسى الخولي . مصر ١٣٧٠ هـ
 أخبار الظراف والمتماجنين لابن الجوزي القدس ١٨٤٣ م
 أدب الجاحظ للسندوبي (التجارية بمصر) ١٩١٢ م
 أدب الدنيا والدين للماوردي القاهرة ١٩١٢ م
 أساس البلاغة للزمخشري دار الكتب المصرية ١٩٢٦ م
 الأعلام لخبر الدين الزركلي مصر ١٩٥٤ م
 الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (دار الكتب المصرية) ١٩٢٦ - ١٩٧٥ م
 الأماشي لأبي علي القالي دار الكتب المصرية ١٩٣٦ م
 البانشتانتر ترجمة د . عبد الحميد تونس الكويت ١٩٧٠ م
 البخلاء للجاحظ تحقيق د . طه الحاجري دار المعارف ١٩٥٨ م
 البيان والتبيين للجاحظ (مصطفى الحلبي) ١٩٠٢ م
 تاريخ الرسل والملوك للطبري (دار المعارف) ١٩٦٢ م
 تاريخ بغداد للخطيب البغدادى (الحانجي) سنة ١٩٣١ م
 القصة والنقد في الأذنب العربي للسباعي السباعي بيومي
 (دار نشر الثقافة بالاسكندرية) سنة ١٩٥٠ م
 تأويل مختلف الحديث لابن قتبية القاهرة سنة ١٣٢٦ هـ
 التشبيهات المشرقية لابن أبي عون المخطوط والطبوع مصر ١٩٦٨ م
 تفسير الياضوى طبع صبيح بالقاهرة ١٩٢٦ م
 تفسير الطبري (دار المعارف بمصر) ١٩٦٥ م
 تفسير الكشاف مصطفى الحلبي بمصر

- تحقيق ما للهند من مقولة للبيروني الهند ١٩٢٤ م
ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي مصر ١٩٥٨ م
الجاحظ لإفرايم البستاني (عدد ١٩ من مجموعة الروائع: بيروت)
الجاحظ د. طه الحاجري دار المعارف ١٩٦٢ م
الجاحظ حنا الفاخوري دار المعارف ١٩٦٤ م
الجاحظ شفيق جبري دار المعارف ١٩٦٦ م
جحا الصالح المضحك لعباس محمود العقاد (دار الهلال) بمصر ١٩٥٦ م
جرير حياته وشعره د. نعمان محمد أمين طه دار المعارف ١٩٦٨ م
جمع الجواهر في الملح والنوادر الثعالبي هبسي الحلبي ١٩٥٠ م
حكم قر العوش د. عبد اللطيف حمزة عيسى الحلبي مصر ١٩٥٥ م
الحماسة لأبي تمام بشرح للرزوقي لجنة التأليف والترجمة بمصر ١٩٦٥ م
الحماسة لابن الشجري طبع حيدر آباد الدكن بالهند
الحيوان للجاحظ طبع مصطفى الحلبي بمصر ١٩٣٨ م
خزانة الأدب للحموي مصر ١٩٠٤ م
دراسات في الأدب الإسلامي للأستاذ محمد خلف الله لجنة التأليف ١٩٤٧ م
ديوان امرئ القيس نشر السنديوني بالمكتبة التجارية ١٩٤٩ م
وتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم "بدار المعارف ١٩٥٨ م
ديوان أبي نواس لجنة التأليف بمصر ١٩٥٤ م
ديوان زهير بشرح ثعلب دار الكتب المصرية ١٩٣٨ م
ديوان جرير د. نعمان محمد أمين طه دار المعارف ١٩٧٠ م
ديوان حسان بن ثابت طبعة البرقوقي ١٩٢٩ م
والدار القومية بمصر ١٩٧٤ م

- ديوان الخطيئة د. نعمان محمد أمين طه
الحلبى ١٩٥٨ م
- ذكر المعتزلة المرتضى
حيدر آباد بالهند
- رسائل الجاحظ (على هامش السكاهل المبرد)
مصر ١٩١٨ م
- رسائل الجاحظ
نشر الخانجي بمصر ١٩٠١ م
- رسالة التريبع والتدوير للجاحظ تحقيق شارل بلات دمشق ١٩٥٦ م
- رسالة الغفران للمعري
دار المعارف بمصر ١٩ م
- زهر الآداب المحصرى (تحقيق البجاوى)
الحلبى ١٩٥٨ م
- زهر الزريع فى المعانى والبيان والبديع
مصر ١٩٠٦ م
- شرح العميون فى شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة
مصر ١٩٧٠ م
- السيرة لابن هشام بتحقيق مصطفى السقا
الحلبى ١٩٤٢ م
- سيكولوجية الضحك لآحمد عطية الله
عيسى الحلبي بمصر ١٩٤٧ م
- سيكولوجية الفكاهة والضحك زكريا ابراهيم
مكتبة مصر ١٩٥٨ م
- ضحى الإسلام لآحمد أمين
لجنة التأليف ١٩٣٨ م
- الضحك لهنرى برجسون ترجمة ساسى للدروبي
- دار الكاتب المصرى ١٩٤٨ م
- طبقات الشعراء لابن المعتز
دار المعارف بمصر ١٩٦٢ م
- طبقات فحول الشعراء لابن سلام
دار المعارف بمصر ١٩٥٢ م
- كتاب الشعر لأرسطو ترجمة د. إحسان عباس دار الفكر ١٩٥٢ م
- كتاب الشعر لأرسطو ترجمة د. شكرى محمد عياد
- دار الكاتب العربى بمصر ١٩٦٧ م
- العصر العباسى الأول د. شوقى ضيف
دار المعارف
- العصر العباسى الثانى د. شوقى ضيف
دار المعارف

- العقد الفريد لابن عبد ربه مصر ١٩١٣ م
- ولجنة التأليف والترجمة ١٩٤٧ م
- أبو العلام العشري د. عائشة عبد الرحمن مصر ١٩٦٧ م
- أبو العلاء المعري (رسالة الغفران) العدد ١٧ من مجموعة الروائع لإفرايم البستاني الطبعة الثانية بيروت ١٩٤٢ م
- أبو العلاء المعري فاقد المجتمع لزكي المحاسني مصر ١٩٥٣ م
- نحره الخصائص الواضحة للوطواط جمال الدين القاهرة ١٢٩٩ هـ
- فصول مختارة لطله حسين (بالاشتراك) دار الطباعة الحديثة ١٩٥٦ م
- الفكاهة في الأدب د. أحمد الحوفي دار نهضة مصر بالقاهرة ١٩٥٨ م
- الفكاهة في مصر د. شوقي ضيف (كتاب الهلال) ١٩٥٨ م
- فن تكوين النكتة لجون ويزدم مقال بمجلة علم النفس
- دار المعارف ١٩٤٨ م
- الفهرست لابن التميمي تحقيق فلوجل طبع ليسك ١٨٧٢ م
- فوات الوفيات لمحمد بن شاكر الكتبي (بيروت) ١٩٦٧ م
- العقل الباطن وعلاقته بالأمراض النفسية تعريب عباس حافظ القاهرة ١٩٤٦ م
- كشف الخفا ومزيل الإلباس فيما اشهر من الحديث على أسنة الناس للمجاولي مصر ١٩٣٦ م
- كلية ودمنة (طبعة مكتبة دار الهلال بمصر) ١٩٢٤ م
- كلية ودمنة (نشر الأب شيخو) بيروت ١٩٣٦ م
- كلية ودمنة (تحقيق المرحوم د. عبد الوهاب عزام) دار المعارف ١٩٤٢ م

- لسان العرب لابن منظور الأفریقی مصر ١٣٠١ هـ
- مجلة الاثنين مصر ١٩٤٨ م
- بمجموع رسائل الجاحظ (الساسی) ١٩٠١ م
- مروج الذهب للمسعودی (نشر محمد محیی الدین عبد الحمید) ١٩٤٨ م
- مطالعات فی الکتب والحیة للعقاد (التجاریة) ١٩٢٦ م
- معجم الأدباء لیاقوت مصر ١٩٣٨ م
- المفضلیات للغبی (دار المعارف بمصر) ١٩٤٨ م
- ابن المقفع للدکتور عبد اللطیف حمزة مصر ١٩٢٦ م
- ابن نمائی د. عبد اللطیف حمزة الحلبي بمصر ١٩٤٦ م
- مناهج الدراسة الأدبية د. شکری فیصل بیروت ١٩٧٠ م
- نتائج الفطنة فی نظم کایلة ودمنة (بیروت) ١٩٠١ م
- نثر الدرر فی المحاضرات للآبی زین الکفافة منصور بن الحسین مخطوط
- النثر الغنی د. زکی مبارک مصر ١٩٣٢ م
- نهاية الارب فی فنون الأدب للنویری دار الکتب ١٩٤٨ م
- نوادیر أبی العیاء ومخاطباته د. نعمان طه مطبعة المدنی بمصر ١٩٧٢ م
- الهجاء والهجاءون د. محمد محمد حسین مکتبة الآداب ١٩٤٧ م
- الورقة للآبی عبد الله محمد بن داود الجراح (تحقیق د. عزام) دار المعارف ١٩٥٣ م
- الوزراء والکتاب للجمشیاری (تحقیق مصطفی السقا) الحلبي ١٩٤٨ م
- وفیات الأعیان وأنباء أبناء الزمان لابن خلیکان (نشر محمد محیی الدین عبد الحمید) بمصر ١٩٤٢ م و بیروت ١٩٧٠ م
- یتیمة الدهر فی شعراء أهل العصر للثعالبی القاهرة ١٩٣٤ م

Edgar Johnson : Treasury of Satire.

Newyork / 1944.

G. G. Sedjwick Of Irona Especially in Drama Toronto 1948

Sterhen Potter : Sense joy Humouy / Newyork 1954.

Harms Worth's Universal Encc / Irany.

The Americana.

La Rousse

Encylopydia Britanica



١٣٧٦
مكتبة

استدراك

- سقط سهواً من ص ٢٠٦ الفقرة الآتية

وقد حذا حذو الجاحظ الشاعر الأندلسي النثر ابن زيدون (ت ٤٦٣ هـ) فنهج نهجه في رسالته الهزلية المشهورة التي بدأها متحدثاً بها على لسان ولادة تخاطب الوزير ابن جمهور، ثم انتقل إلى إنطاق إحدى جواري الوزير متهمكة بابن جمهور مخاطبة إياه زاعمة أن المروءة لفظ أنت معناه، والإنسانية اسم أنت جسمه وهيولاه، فاطمة أنك انفردت بالجمال !!

واستأثرت بالمكالم، واستعليت في مراتب الجلال، واستوايت على محاسن الجلال، حتى خملت أن امرأة العزيز رأيتك فسلفت عنه، وأن قارون أصاب بعض ما كنزت، والنطف عثر على فضل ما ركزت، وكسرى حمل غاشيتك، وقبصر رعى ماشيتك ...

وهكذا نلاحظ أنه حشد فيها كثيراً من الأسماء التي يرمي بها إلى حوادث تاريخية وأحداث مختلفة، وشخصيات مذكورة في التاريخ سواء عند العرب أو الفرس أو غيرهم في الجاهلية والإسلام، مثل كسرى، وقبصر، والإسكندر وبلقيس، والرباء وغيرهم من القواد والخطباء والشعراء والحكام والولاة. وتنبئنا الرسالة بكثرة محفوظ ابن زيدون من روائع الأدب العربي، وهو ينزع فيها إلى استخدام السجع الازدواج.

للؤاف

* مختارات شعراء العرب لابن الشجري : وقد أوشك على الصدور
في ثوب قشيب .

* ديوان جرير : وقد صدر عن دار المعارف في دغار العرب ، سنة ١٩٧٠

* جرير حياته وشعره : د د د د د مكتبة الدراسات الأدبية ،

سنة ١٩٦٨ م

* ديوان الخطبة : في طبعة جديدة ومنقحة .

* هاشميات الحكميت : تحت الطبع .

* نواذر أبي العيناء : وهي سخریات طريقة وردود لاذعة . صدر

سنة ١٩٧٢

* رسالة الترييع والتدوير للجاحظ : تحت الطبع .

* نثر الدرر في المحاضرات للآبي : تحت الطبع .